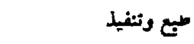
الآداب التعاملية
في فكر الإمام الغزالي

الطبعة الأولى
١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م





بيروت - الحمراء - شارع اميل اده - بناية سلام
هاتف ٨٠٢٤٢٨ - ٨٠٢٤٠٧ - ٨٠٢٢٩٦
بيروت - المصيطبة - بناية طاهر هاتف : ٣٠١٠٣٠ - ٣١١٣١٠
ص . ب. ٦٣١١ / ١١٣ تلكس: LE ٢٠٦٦٥ - ٢٠٦٨٠ لبنان

الدكتور احمد خواجة

الآداب التعاملية في فكر الإمام الغزالي

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

مقدمة

العودة إلى الغزالي تعني العودة إلى الأصل ، العودة الى روح الاسلام ، وما الحديث في هذا الكتاب عن الآداب التعاملية التي بسطها الغزالي في مؤلفه الهام « إحياء علوم الدين » بلغة تجمع بين الفقه وأحكامه الجامدة والتصوّف وعاطفته الدينية المتّقدة إلا محاولة متواضعة لإنارة جوانب من فكر هذا الإمام الذي أعطى للإسلام الكثير الكثير من عقله وروحه وعاطفته .

وبادئاً نقول أن الغزالي جمع في قرارة وجدانه الديني الإرث السلفي الصافي الذي أرسى دعائمه نبي الاسلام وصحابته الأخيار . ولئن كانت الحقبة التي عاصرها الغزالي مليئة بالتناقضات والإنقسامات السياسية والدينية وتفكك الامبراطورية العباسية فمما لا شك فيه أنه كان خير شاهد على احتدام هذه التناقضات والاختلافات وقد كان في موقع القلب منها وساهم بفكره وعمله في توجيه تياراتها . ويكفي في هذه المقدمة الإشارة إلى أمرين أساسيين هامين طبعا فكره ونهجه :

1 ـ ولد الغزالي في الطابران من قصبة طوس عام (450 هـ) الموافق (1058 م) وقد عرف « بالطوسي » و« الفقيه الشافعي[1] » باعتباره أكبر فقهاء الشافعية في القرن الخامس الهجري . وقد عرف كرائد من رواد علم الكلام الأشعري ويوضع اسمه عادة مع الباقلاني (ت 403 هـ) والجويني (ت 478 هـ) . وما يهمنا هنا من تاريخ ولادته ومذهبه الفقهي أنه ولد في حقبة تاريخية فاصلة بين انهيار ملك البويهيين الفرس الذين كانوا ذوي نزعة شيعية ، واثني عشرية على درجة الخصوص ، وصعود السلاجقة التركمانيين ذوي النزعة السنية . وقد انخرط الغزالي فيما بعد في مشروع

(1) راجع معجم البلدان لياقوت الحموي ، ج 3 ، ص 561 ، وكشف الظنون لحاجي خليفة طبعة اسطنبول 1360 هـ / 1941 م ، ج 1 ، ج 2 ، ص 23-24

تجديد الدولة الاسلامية بأصولها السنية القديمة وذلك عبر إنشاء المدارس النظامية لتقوية المذهب الأشعري والعقيدة الأشعرية . وخاض في سبيل ذلك حملة فكرية هامة ضد الدعوات الاسلامية المغايرة للمذهب الأشعري وخاصة الدعوة الفاطمية والحركة الإسماعيلية .والشيعة الاثني عشرية ، وقد توج الغزالي هذه الحملة ضد العقائد الباطنية بكتابه « المستظهري » (نسبة للخليفة المستظهر بالله) أو فضائح الباطنية ، ويعتبر كتاب « إحياء علوم الدين » الأصل الذي أعاد بواسطته الغزالي المسلمين الى التعرّف على مبادىء عقيدتهم وغاص في الكشف عن أدوارهم التعاملية مذكراً إياهم بسيرة السلف مجدداً الدعوة الى النصوص الصريحة والسنن الثابتة في وجه الدعوات الباطنية المغرقة في التأويل البعيدة عن الروح الجوهرية للعقيدة حسب رأيه .

2 ـ نستطيع اعتبار الغزالي (بعيداً عن أي ادعاء) الممثل الروحي الصافي لجوهر الإسلام في وجه كل التيارات الفكرية ـ الدينية بما فيها الاتجاهات الفلسفية . وقد نظر الغزالي إلى الأمور من وجهة نظر دينية صادقة ، فأمام العقيدة الاسلامية الواضحة لا مجال لتلفيق الفلاسفة وأبحاثهم الدائبة للتوفيق بين النقل والعقل ، بين الفلسفة ومناهجها من جهة والدعوة الاسلامية وأحكامها من جهة ، لذلك انحاز الغزالي بوضوح الى الدعوة وهاجم الفلسفة ، والغزالي رأى أن لا مجال للتوفيق بين الدعوات الباطنية وتراث سني يختزن دقائق العقيدة بشكل واضح جلي ، لذلك انصب اهتمام الغزالي على محاربة النزعات المغايرة للمذهب الأشعري السني ورأى فيها خطراً على الدين والدولة السلجوقية التي رأى فيها الدولة الحامية لحياض الاسلام ، من هنا أغفل الغزالي ـ عن غير عمد ربما ـ الخطر الصليبي الذي بدأت طلائعه في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي ، لأنه كان يرى التناقض الرئيسي قائم بين السلجوقيين وخصومهم السياسيين ـ الدينيين من فاطميين واسماعيليين .

أين تقع الآداب التعاملية التي عرضها الغزالي والتي سنتحدث عنها في هذا الكتاب من فكر الغزالي ؟ إنها تعيد التذكير بعادات ومسالك على المؤمن أن يتبعها ليستحق الانتساب الى الدين وتتواصل حضارته الراهنة مع إرثه الروحي الاجتماعي الذي خلفه النبي وصحابته ، ولا تتم استقامة المسلم إلا باتباع هذه الموجبات البسيطة والعفوية والابتعاد عن المحرمات واتباع النصح والنواهي ليفوز في نهاية المطاف برضوان الله والذي هو الغاية والمرتجى .

أحمد خواجة

الفصل الأول

آداب الأكل عند الإمام الغزالي

تمهيد :

ينطلق الإمام الغزالي في تناوله لآداب الأكل من مقدمات دينية معتبراً أن لا طريق للوصول لله إلا بالعلم والعمل . ولا تمكن المواظبة عليهما (أي العلم والعمل) إلا بسلامة البدن ، ولا تصفو سلامة البدن إلا بالأطعمة والأقوات[1] . فهو ينطلق من اعتبار الطعام حاجة ضرورية للجسم كي يستمر على قيد الحياة ، وبما أن حياة المؤمن كلها في سبيل الله ، لذلك يعتبر الأكل عملاً في سبيل الإعانة على عبادة الله ولقائه في دار الثواب ، وبما أن الدين عند الغزالي هو الغاية والمرتجى ، لذلك ليس الأكل كما قال بعض السلف الصالحين **إلا من الدين** . ويعتبر الأكل وسيلة للتقوى ، وليس غريزة بهيمية يسترسل بها الإنسان كاسترسال البهائم في المرعى[2] .

ولطالما اعتبر الأكلُ المعيار الفاصل والحاسم في التفرقة بين حسّية الانسان وحيوانيته من جهة وروحانيته وسموه وترفعه من جهة أخرى . لذلك شرعت الأديان منذ وجودها على هذه الأرض في الحث على كسر شهوة الطعام واختبار الانسان في الصوم ، حتى الأنبياء جُرِّبوا في الصوم . ففي الكتاب المقدس أنه عندما أُخرج يسوع إلى البرية من الروح ليجرَّب من إبليس ، فصام أربعين يوماً وأربعين ليلة وأخيراً جاع ، فدنا إليه المجرِّبُ قائلاً : إن كنت ابن الله فمر أن تصير هذه الحجارة خبزاً . فأجاب قائلاً مكتوب

---

(1) الغزالي ، إحياء علوم الدين ، دار القلم ، بيروت ، ج 2 ، ص 3 .

(2) نفس المصدر .

ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان ، بل بكل كلمة تخرج من فم الله[3] . وفي الإسلام يكفي القول بأن رسالة الوحي السماوية (القرآن الكريم) نزلت في شهر رمضان ، وشهر رمضان في الإسلام هو أفضل شهور السنة الهجرية لأنه شهر الصوم ، والصوم ركن أساسي من أركان الإسلام ، يقول الله تعالى : ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبيّنات من الهدى والفرقان ﴾ . (سورة البقرة آية 185) . وهكذا يكون الصيام هو الفعل الروحي الذي يساعد العبد على كسر شهوة هامة من شهوات الجسد ، لذلك ألحت الأديان جميعاً على إبراز فضيلة الجوع على الشبع وكأنها تحاول العودة بالإنسان إلى حاله الأسطورية عندما كان في السماء طاهراً مطهراً من خبث الأطعمة وشهوات البطن التي بها أخرج آدم وحواء « من دار القرار إلى دار الذل والافتقار »[4] على حد تعبير الغزالي ، ذلك أن آدم وحواء نُهيا عن الاقتراب من الشجرة فغلبتهما شهواتهما حتى أكلا منها فبدت لهما سوآتهما . وهكذا تكون شهوة البطن منذ أن ابتلي آدم بها شر الشهوات فالنبي محمد يقول في الحديث الشريف أنه « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه » .

ويستند الدين الاسلامي إلى تراث من الأخلاق والعادات العربية التي تحض على الإيثار والسخاء وتقديم الجوع على الشبع وذم البخل والتقتير فمن قول أعرابي طالت إقامته بالبصرة واشتاق للبادية :

أقولُ بالمصر لما ساءني شبعي ... ألا سبيل إلى أرض بها جوعُ
ألا سبيل إلى أرض بها غُرُسٌ[5] ... جوع يصدّع منه الرأس برقوعُ[6]

ومن قول لآخر :

وعادة الجوع فاعلم عصمةٌ وغِنىً ... وقد يزيدك جوعاً عادة الشبع[7]

وعن العتبي أنه قال : قلت لرجل من أهل البادية : يا أخي إني لأعجب من أن فقهاءكم أظرف من فقهائنا ، وعوامّكم أظرف من عوامنا ، ومجانينكم أظرف من مجانيننا ، قال وما تدري لم ذاك ؟ قلت لا ؛ قال : من الجوع ، ألا ترى أن العود إنما

---

(3) الكتاب المقدس ، متى 4 :1 -4

(4) الغزالي الاحياء ، ج 3 ، ص 80

(5) كذا بالأصل ولعله « غَرَث » (بالغين المعجمة والثاء المثلثة) بمعنى الجوع ليناسب المقام . وجوع برقوع أي جوع شديد .

(6) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، دار الكتاب العربي ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية 1343 هـ - 1925 م ، م 2 ، ج 9 ، ص 222

(7) نفس المصدر .

صفا صوته لخلو جوفه[8] .

ويكفي في هذا المجال القول أن العرب سمّت من يرضع الحَلَب[9] فلا يحلبه في الإناء لئلا يُسمع صوت الحَلْب باللئيم الراضع[10] ، ويحكي ابن قتيبة أن اعرابياً أكل قُطراً ، فأصابته ذُبحة ، فقيل له : إن الطبيب بعث أن يُحلَبَ في فيك ، فقال : ما زلت أسمع باللئيم الراضع ولا والله لا أكونه ؛ قالوا : فتموت إذاً ؛ قال : وإن متّ .

ويبقى اتجاه الامام الغزالي في آداب الأكل والطعام تقديم الشبع على الجوع لما فيه من كسر لشهوة الشبع الصاد عن سبيل الله وسنعمد الى عرض آرائه في آداب الأكل ومن ثمّ استخلاص العبَر منها .

1 ـ آداب الأكل للمنفرد منه :

أ ـ الآداب التي تتقدم على الأكل :

يرى الغزالي أن من الآداب التي لا بد منها قبل الشروع بالأكل هي كون الطعام حلالاً في نفسه ، لم يكتسب بسبب مكروه في الشرع ولا بحكم هوى ومداهنة وهذا أمر الله تعالى فقد ورد في القرآن الكريم الأمر بأكل الطيب والحلال وقدّم النهي عن الأكل بالباطل على القتل تفخيماً لأمر الحرام وتعظيماً لبركة الحلال ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ الى قوله ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ﴾[11] ، وهكذا يكون الأكل الحلال من الفرائض وأصول الدين ، كذلك لا بد من غسل اليد ، والرسول (ص) أوصى بالوضوء قبل الطعام بقوله : « الوضوء قبل الطعام ينفي الفقر وبعده ينفي اللمم » . كذلك من آداب الأكل أن يوضع الطعام على السفرة الموضوعة على الأرض فهو أقرب الى فعل رسول الله (ص) من رفعه على المائدة ، وفي الخبر أن رسول الله كان إذا أتى بطعام وضعه على الأرض فهذا أقرب الى التواضع ، ويرى الغزالي انه إذا كان الأكل على السفرة أولى فلسنا نقول الأكل على المائدة منهي عنه ، وإذا قيل بأنه بدعة ، فليس كل ما أُبدع منهياً ، بل المنهي بدعة تضاد سنة ثابتة وترفع أمراً من الشرع مع بقاء علته ، بل الإبداع قد يجب في بعض الأحوال إذا تغيرت الأسباب وليس في المائدة الا رفع الطعام عن الأرض لتيسير الأكل وأمثال ذلك مما لا كراهة فيه[12] . ويعود الغزالي ليؤكد

---

(8) نفس المصدر .

(9) الحلب (بالتحريك) : اللبن .

(10) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، م 2 ، ح 9 ، ص 258

(11) القرآن الكريم ، سورة النساء ، آية 29

(12) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 4 . دار القلم ، بيروت .

على وجوب طاعة الله بالأكل ، فعلى المؤمن أن ينوي بأكله أن يتقوى به لطاعة الله ولا بقصد (من الأكل) التلذذ والتنعم . قال ابراهيم بن شيبان : منذ ثمانين سنة ما أكلت شيئاً لشهوتي(13) ، لذلك على المؤمن أن يرضى بالموجود من الرزق والحاضر من الطعام ولا يجتهد في التنعم وطلب الزيادة ، كذلك عليه أن لا يمد اليد الى طعام الا وهو جائع . قيل لبعض حكماء الروم(14) : أي وقت الطعام فيه أطيب وأفضل ؟ قال : أما لمن قدَرَ فإذا جاع ، وأما لمن لم يقدر فإذا وجد .

ب ـ في آداب حالة الأكل :

في آداب حالة الأكل عند الغزالي الابتداء حسب الشريعة الإسلامية بالقول : « بسم الله » والختم « بحمد الله » ، ولو قال المؤمن مع كل لقمة « بسم الله » فهو حسن »(15) وذلك حتى لا يشغله الشره عن ذكر الله تعالى ، وفي هذا الموضع استقبح العرب مبادرة المضيف لضيوفه بقوله « الحمد لله » أثناء الطعام وذلك كأنه يستعجلهم الانتهاء منه . وقد ذمه الشيخ بدر الدين محمد الغزي (ت 984 هـ) وسماه « الحامد » ، أي الذي يحمد الله تعالى جهراً في وسط الطعام (وهذا مستقبح ولا سيما إذا صدر من رب المنزل) فكأنه يُنسبُ في ذلك الى تنبيه الحاضرين على الكف عن الطعام كما حكى جحظة عن نفسه : قال : أكل عندي بعض المجان ، فسمعني وأنا أحمد الله عزّ وجلّ في وسط الطعام لشيء خطر ببالي من نعمة لا تحصى ، فنهض ، وقال : أعطي الله عهداً إن عاودت ، وما معنى التحميد في هذا الموضع ؟ كأنك أردت أن تعلمنا أنّا قد شبعنا ! ثم مال الى الدواة فكتب :

وحمد الله يحسن كل وقت	ولكن ليس في وقت الطعام
لأنك تُحشم(16) الأضياف منه	وتأمرُهم بإسراع القيام .
وتؤذيهم وما شبعوا بشبع	وذلك ليس من خلق الكرام(17)

وفي هذا المجال حكى الجاحظ عن أبو الجهجاه النوشرواني قال : حدثني أبو

(13) الاحياء : ج 2 ص 5

(14) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، م 2 ، ج 9 ، ص 222 ، وفي العقد الفريد (ج 3 ، ص 387) انه برزجمهر وهو من حكماء الفرس .

(15) الاحياء ، ج 22 ص 5

(16) تحشم : يقال حشمتُه وأحشمتُه : أخجلته . ويقال للمنقبض عن الطعام : ما الذي حشمك وأحشمك :.من الحشمة والاستحياء .

(17) آداب المؤاكلة ، الشيخ بدر الدين محمد الغزي ، تحقيق الدكتور عمر موسى باشا ، مطبوعات مجمعة اللغة العربية بدمشق ، 1387 هـ / 1967 م ، ص 31

الأحوص الشاعر قال : كنا نفطر عند الباسياني ، فكان يرفع يديه قبلنا ، ويستلقي على فراشه ويقول :

« إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكورا »[18]

ويوصي الغزالي بالأكل باليد اليمنى والابتداء بالملح والختم به وتصغير اللقمة وتجويد مضغها ، وحكى ابن قتيبة قال : قال جعفر : كنا نأتي فرقداً السبخي ونحن شبيبة فيعلمنا : إن من ورائكم زماناً شديداً ، فشدوا الأزر على أنصاف البطون ، وصغروا اللقم ، وشددوا المضغ ومصوا الماء مصاً . وإذا أكل أحدكم فلا يحلّن إزاره فتتسع أمعاؤه ، واحتموا فإن من ورائكم زماناً شديداً[19] .

وفي مواضع الشره والنهم والإقبال على الطعام يحكي المسعودي عن الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك[20] أنه كان أكولاً نهماً صاحب أكل كثير يجوز المقدار وان « شبعه في كل يوم من الطعام مائة رطل بالعراقي وكان ربما أتاه الطباخون بالسفافيد التي فيها الدجاج المشوية وعليه جبة الوشي المثقلة ، فلِنهمه وحرصه على الأكل يُدخل يده في كمه حتى يقبض على الدجاجة وهي حارة فيفصلها[21] .

وذكر الأصمعي أنه حدث الرشيد عن نهم سليمان فقال له : قاتلك الله فما أعلمك بأخبارهم ، إنه عرضت عليّ جباب بني أمية ، فنظرت الى جباب سليمان وإذا كل جبة منها في كمها أثر فإنه أثر دهن ، فلم أدر ما ذلك حتى حدثتني بالحديث[22] .

وفي آداب الأكل أيضاً يرى الغزالي أنه على الآكل أن لا يذم مأكولاً فقد كان رسول الله (ص) لا يُعيبُ مأكولاً كان إذا أعجبه أكله وإلا تركه[23] . كذلك عليه أن لا ينفخ في الطعام الحار فهذا منهي عنه بل يصبر الى أن يسهل أكله وقد سمّى هذا النمط من الآكلين الشيخ الغزي « بالمدَمِّع » أي الذي يتناول طعامه حاراً ، ولا يصبر عليه إلى أن يبرد ، فيتناول اللقمة ، فيخلف ظنه في احتمال حرارتها ، فتدمع عيناه عند احتراق

---

(18) الجاحظ ، البخلاء ، دار صادر ، بيروت ، دمشق ، ص 67

(19) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج 3 ، ص 214-215

(20) توفي سليمان بن عبد الملك بمرج دابق من أعمال جند قنسرين يوم الجمعة لعشر بقين من صفر سنة تسع وتسعين هجرية (المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، دار الأندلس ، بيروت ، ط 5 -1983 ، ج 3 ، ص 173)

(21) نفس المصدر ، ص 175 . كذلك حكى ابن قتيبة عن نهم سليمان في عيون الأخبار ، ج 3 ، ص 227

(22) نفس المصدر .

(23) هذا الحديث رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق بسند ضعيف .

فمه ، وربما اضطرَّ الى إخراجها من فيه أو الى ابتلاعها بجرعة ماء بارد مهما يحصل من إحراقها معدته(23) .

أما آداب الشرب عند الغزالي فهو أخذ الكوز باليمين والقول « بسم الله » وان يكون مصاً لا عبّاً(24) وذلك لقول رسول الله (ص) مصوا الماء مصاً ولا تعبوه عباً فإن الكباد من العب(25) . كذلك على الشارب أن لا يتجشأ ولا يتنفس في الكوز بل ينحيه عن فمه بالحمد ويرده بالتسمية ، ومن الأدب أن يدار الكوز عن يمين القوم فقد شرب رسول الله لبناً وأبو بكر رضي الله عنه عن شماله وأعرابي عن يمينه وعمر ناحيته فقال عمر رضي الله عنه : أعط أبا بكر فناول (الرسول) الأعرابيَّ وقال الأيمن فالأيمن(26) ، وحكى ابن قتيبة عن عبد الله بن أبي أوفى عن رسول الله : « ساقي القوم آخرهم شرباً »(27) .

ويرى الغزالي في آداب الشرب أن لا يكثر منه أثناء الطعام إلا إذا غصّ الآكل بلقمة أو صدق عطشه ، وفي هذا الموضع يوصي البخلاء بالإكثار من الشرب على الطعام وفي ذلك يقول محمد بن أبي المؤمَّل أنه « لولا رخصُ الماء وغلاء الخبز لما كلبوا (الضيوف) على الخبز وزهدوا في الماء . كذلك كان يقول : لو شرب الناس الماء على طعامهم لما اتخموا . وذلك أن الرجل لا يعرف مقدار ما أكل حتى ينال من الماء شيئاً ، لأنه ربما كان شبعان وهو لا يدري(28) .

ومن طريف ما حكى الجاحظ على لسان أحد بخلائه حكاية عن المهلب بن أبي صفرة(29) قال فيها :

مد رجل من بني تميم يده الى صاحب الشراب يستسقيه ، وهو على خوان المهلب ، فلم يره الساقي ولم يفطن له . ففعل ذلك مراراً والمهلب يراه ، وقد أمسك عن الأكل الى أن يُسيغ لقمتَه بالشراب . فلما طال ذلك على المهلب قال : اسقه يا غلام ما أحب من الشراب . فلما سقاه استقلّه وطلب الزيادة منه . وكان المهلب أوصاهم بالإقلال من الماء ، والإكثار من الخبز . قال التميمي : إنك لسريع الى السّقي ، سريع الى الزيادة . وحبس يده عن الطعام . فقال المهلب : إله عن هذا أيها الرجل ، فإن هذا

---

(23) الشيخ الغزي : آداب المؤاكلة ، ص 11

(24) الاحياء ، ج 2 ، ص 6

(25) أخرج هذا الحديث أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بالشطر الأول ولأبي داود في المراسيل من رواية عطاء بن أبي رباح : « إذا شربتم فاشربوا مصاً » .

(26) الأحياء ، ج 2 ، ص 7

(27) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج 3 ، ص 215

(28) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج 3 ، ص 254

(29) المهلب بن أبي صفرة : كان والياً لمصعب بن الزبير على البصرة ، ولعبد الملك بن مروان على خراسان .

لا ينفعك ولا يضرنا . أردنا أمراً وأردت خلافه[30] .

ج ـ ما يستحب بعد الأكل

يرى الغزالي في هذا الموضع أن على المرء أن يمسك (عن الطعام) قبل الشبع وأن يلعق أصابعه ثم يمسح بالمنديل ويلتقط فتات الطعام وذلك لقول رسول الله (ص) « من أكل ما يسقط من المائدة عاش في سعة وعوفي في ولده[31] . ويشرح الغزالي للمؤمن كيفية غسل اليدين بالأشنان[32] كأن يجعل الأشنان في كفه اليسرى ويغسل الأصابع الثلاث من اليد اليمنى أولاً ويضرب أصابعه على الأشنان اليابس فيمسح به شفتيه[33] .

2 ـ آداب الأكل مع الجماعة : الإيثار والتواضع

من آداب الأكل مع الجماعة أن لا يبتدىء المرء بالطعام ومعه من يستحق التقديم بكبر سن أو زيادة فضل إلا أن يكون هو المتبوع والمقتدى به[34] . كذلك يرى الغزالي أن على الآكلين أن لا يسكتوا على الطعام فإن ذلك من سيرة العجم ولكن يتكلمون بالمعروف ويتحدثون بحكايات الصالحين في الأطعمة وغيرها . وقد اختلف الناس في موقع الحديث على الطعام ، فاستحسنه قوم وكرهه آخرون ، والكلام يصبح مكروهاً حتماً إذا كان المحدث منفراً مستقبحاً ، إلا أن الحديث من صاحب المنزل والمائدة أحسن منه من الآكل والزائر[35] ، وقد بالغ العرب في مدح صاحب المنزل الذي يحسن محادثة ضيوفه وعده البعض طرفاً من القِرى والكرم وحسن الضيافة ، نقل ابن قتيبة عن الخريمي[36] أنه قال :

أُضاحِكُ ضيفي قبل إنزال رحله ... ويُخصِبُ عندي والمحل جديبُ
وما الخصب للأضياف أن يكثرُ القرى ... ولكنما وجه الكريم خصيبُ

---

(30) الجاحظ ، البخلاء ، ص 102

(31) هذا الحديث أخرجه أبو الشيخ في كتاب الثواب .

(32) الأشنان والإشنان : ما تُغسل به الأيدي من الحمض وهو أنواع الطفها الأبيض ويسمى « بخرء العصافير » والأصفر ويسمى بالغاسول وكلاهما مُنقٍّ (المنجد في اللغة والاعلام ، دار المشرق ، بيروت ط 25 -1973 م .

(33) الأحياء ، ج 2 ، ص 7 .

(34) الاحياء ، ج 2 ، ص 7-8

(35) راجع في ذلك آدم متز ، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ومكتبة الخانجي القاهرة ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة ، ط 4 ، م 2 ، 1387 هـ / 1967 م ص 239

(36) الخريمي (أبو يعقوب) توفي نحو 821 م ، من شعراء بغداد على أيام الرشيد والمأمون فارسي الأصل والى البرامكة وفاخر بشعوبيته . له « قصيدة في تاريخ بغداد » . المنجد في اللغة والاعلام .

وقول آخر :

لحافي لحاف الضيف والبيت بيته ... ولم يلهني عنه الغزال المقنَّعُ
أحدثه ، إن الحديث من القرى ... وتعلم نفسي أنه سوف يهجعُ(37)

ويوصي الغزالي المرء بأن « يرفق برفيقه في القصعة فلا يقصد أن يأكل زيادة على ما يأكله فإن ذلك حرام إن لم يكن موافقاً لرضا رفيقه مهما كان الطعام مشتركاً »(38) . لذلك على المؤمن أن يقصد الإيثار في طعامه مع أخوانه ، وقد ذم العرب في أدبياتهم الشَّرِهَ النهِمَ الذي يقصد الى الإستئثار لنفسه عن غيره بكمية الطعام أو أطايبه وقد سمّى الشيخ الغزي هذا النمط من الرجال « بالمستأثر » أي الذي يغلب عليه النهم فيستأثر بأطايب اللحم لطعام دونه ، وإن اتفق أن الطعام لا يكفيهما جميعاً ، كان شبعُهُ أهم عنده من إشباع رفيقه ؛ وأحسن ما قيل في إيثار المؤاكل قول حاتم(39) :

وإني لأَستحيي رفيقي أن يرى ... مكان يدي من موضع الزاد بلقعا(40)
وأنت إذا أعطيت بطنك سؤله ... وفرجك ، نالا منتهى الذم أجمعا

ومن هذا الصنف من المؤاكلين الذين يستأثرون بالطعام دون غيرهم من ينقل لحماً كثيراً على الولاء ويضعه قدام من بجنبه . ويقول له : كل يا سيدي ، فيحتشم ويمتنع فيرجع هو فيأكله ، فهو حيلة على حصول ذلك له(41) ، وهذا منتهى الجشع وحب النفس ومطاوعة الهوى ، وينقل ابن قتيبة عن عمر (بن الخطاب) أنه قال : يا بني عود نفسك الأُثْرَة ومجاهدة الهوى والشهوة ، ولا تنهش نهش السباع ، ولا تخضم خضم البراذين(42) . ولا تدمن الأكل إدمان النعاج ، ولا تلقم لقم الجمال ، فإن الله تعالى جعلك انساناً وفضَّلك ، فلا تجعل نفسك بهيمة ولا سبعاً واحذر سرعة الكظة وسرف البطنة(42) . وفي هذا الكلام حث على الأكل بلطف وأدب ورفق لئلا ينتقل الإنسان من مرتبة الانسانية الى مرتبة الحيوانية مع ما في ذلك من تغليب لشهوات الإنسان على روحه وخلقه ودينه وهذا ما أسبق وأشار اليه الغزالي من أن الطعام يجب أن يكون في سبيل مرضاة الله وطاعته وعوناً له على ذلك لا في سبيل الصد عن الدين والأخلاق لذلك قال

---

(37) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، م 3 ، ص 240
(38) الاحياء ، ج 2 ، ص 8
(39) الشيخ الغزي ، آداب المؤاكلة ، ص 39 والأبيات واردة في ديوان حاتم ضمن مقطوعة مؤلفة من أربعة أبيات وهما الأول والثالث (ص 100) وفيهما بعض التحريف .
(40) بلقعاً : المكان المقفر ، والمقصود هنا الموضع الذي يفتقر الى أصناف الطعام .
(42) الشيخ الغزي ، آداب المؤاكلة ، ص 43
(43) خَضَمَ وتَخضِمَ خضماً الطعام : أكله بأقصى أضراسه ، والبرذون : دابة الحمل الثقيلة .
(44) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج 3 ، ص 217

أبو ذر (الغفاري) : تخضمون ونقضم والموعد لله (44) . أي أنكم تهالكتم على ملذاتكم ونسيتم آخرتكم بينما نحن لا نجد ما يسد رمقنا فالموعد لله في ذلك .

ومن طريف ما نقله ابن قتيبة في هذا الموضع عن أبي نهشل أنه قال : كانت لي ابنة تجلس معي على المائدة فتُبرز كفاً كأنها طَلْعَة (45) ، في ذراع كأنه جُمّارة(46) ، فلا تقع عينها على أكلة نفيسة ، إلا خصتني بها ، فزوجتها وصرت أُجلسُه معي على المائدة ابناً لي فيبرز كفاً كأنها كِرنافة(47) ، في ذراع كأنه كربة ، فوالله ما إن تسبق عيني الى لقمة طيبة إلا سبقت يدُه إليها(48) .

أما غسل اليدين بالطست فله آداب عدة لعل أفضلها أن يقوم صاحب المنزل بصب الماء بنفسه على يد ضيفه ، هكذا فعل مالك بالشافعي في أول نزوله عليه وقال : « لا يروعك ما رأيت مني فخدمة الضيف فرض »(49) ، كذلك ما روي عن هرون الرشيد أنه دعا أبا معاوية الضرير فصبَّ الرشيد على يده في الطست فلما فرغ قال : يا أبا معاوية تدري من صبَّ على يدك ؟ فقال لا ، قال : صبه أمير المؤمنين فقال : يا أمير المؤمنين إنما أكرمت العلم وأجلَلْته فأجلَّك الله وأكرمك كما أجللت العلم وأهله(50) .

ويبقى المتعارف عليه أنه إذا كان الغسل مع الرؤساء ، لا مع النظراء ، فالأليق أن يغسل الضيوف أيديهم في ناحية خاصة بعيداً عن أعين الملوك الأمراء ، وحكى الغزولي أن الأفشين (52) كان حظياً عند المعتصم ، فكان أول غضبه عليه أن أكل عنده يوماً ، ثم دعا بالطست ، فغسل يديه بحيث يراه المعتصم ، فقال المعتصم : هذا التيس الطويل اللحية يدعو بالطست ، حيث أراه(53) . ويبدو أن الخليفة المعتصم كان يتشدد في شروط مزاملته فقد قال يوماً لمحمد بن حماد : إذهب بالغداة الى علي بن الجنيد ، فقل له

---

(45) الجاحظ ، البيان والتبيين ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت 1968 ، ج 3 ، ص 135 . والخضم كما مر معنا الأكل بجميع الفم والقضم الأكل بأطراف الاسنان .

(46) الطلع : ما يبدو من ثمرة النخل في أول ظهورها ، إشارة هنا إلى نضارتها .

(47) جمارة : شحم النخلة .

(48) الكرنافة : واحدة الكرناف (بالكسر والضم) وهو أصول الكرب التي تبقى في جذع النخلة بعد قطع السيف .

(49) ابن منية ، عيون الأخبار ، ج 3 ، ص 219

(50) الغزالي ، الاحياء ، ج 22 ص 9 .

(52)) الغزالي ، الاحياء 2.، ص 8

(53) الأخشين : (ت 226 هـ / 841 م) قائد تركي قاد جيوش المعتصم في غزوات بلاد الروم ، حارب بابك الخرمي ، انتصر في معركة عمورية ، رمي بالكفر ومات في السجن . (المنجدفي اللغة والاعلام) .

(53) الغزولي ، مطالع البدور ، طبعة مصر 1300 هـ ، ج 2 ، ص 67 . وراجع أيضاً الحضارة الاسلامية لآدم متز ، م 2 ، ص 238 وما بعدها .

يتهيأ حتى يزاملني ، فأتاه فقال : إن أمير المؤمنين يأمرك أن تزامله ، فتهيأ لشروط مزاملة الخلفاء ومعادلتهم فقال علي بن الجنيد : وكيف أتهيأ ؟ أهيء لي رأساً غير رأسي ؟ أأشتري لحية غير لحيتي ؟ أأزيد في قامتي ! أنا متهيىء وفضلة ، قال لست تدري بعد ما شروط مزاملة الخلفاء ومعادلتهم ! فقال علي بن الجنيد : وما هي ؟ هات يا من تدري ، قال ابن حماد وكان أديباً ظريفاً وكان برسم الحجاب : شرط المعادلة الإمتاع بالحديث والمذاكرة والمناولة ، وأن لا يبزق ، ولا يسعل ، ولا يتنحنحَ ، ولا يمخط ، وألا يتقدم الرئيس في الركوب إشفاقاً عليه من الميل ، وأن يتقدمه في النزول ، فمتى لم يفعل المعادِلُ هذا كان هو والمثقلة الرصاص التي تعدل بها القبة سواء ، وليس له أن ينام وإن نام الرئيس ، بل يأخذ نفسه بالتيقظ الخ(54) .

يبقى أخيراً في آداب الأكل مع الجماعة أن لا يفعل الآكل ما يستقذره غيره فلا ينفض يده في القصعة ولا يقدِّم إليها رأسه عند وضع اللقمة في فيه ، وإن أخرج شيئاً من فيه صرف وجهه عن الطعام وأخذه بيساره ولا يغمس اللقمة الدسمة في الخل ولا الخل في الدسومة . . . واللقمة التي قطعها بسنه لا يغمس بقيتها في المرقة والخل ، ولا يتكلم بما يذكر المستقذرات (55) .

وتبدو هذه النواهي صالحة لكل عصر ومصر ، لأن نضافة الآكل مع الجماعة أمر لا بد للمرء من التهيؤ له والاحتياط الكافي لعدم ظهور أي شيء ينفر الجماعة من الأكل ، وقد نبه الغزالي وغيره كثيرون الى هذه المسألة خاصة أن عادة العرب القديمة في الأكل كانت أن يقدم الطعام كله مرة واحدة وفي طبق واحد ، ولم يكن يُفرد لأحد من الضيوف طبقٌ على حدة ويحكى عن أبي رياش (عاش في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري) أنه كان آية في حفظ أيام العرب وأنسابها وأشعارها ؛ ولكنه كان وسخ اللبسة ، قليل التنظيف ، شرهاً على الطعام ، سيء الأدب في المؤاكلة ؛ دعاه الى البصرة أبو يوسف اليزيدي الى مائدته يوماً ، فلما أخذ في الأكل مد يده الى بضعة لحم ، فانتهشها ، ثم ردها الى القصعة ؛ فكان بعد ذلك إذا حضر مائدته أمر بأن يهيّأ له طبق ليأكل على حدة ، ودعاه الوزير المهلّبي(56) يوماً الى طعامه ، فامتخط في منديل الغمر وبزق فيه ، ثم أخذ زيتونة من قصعة ، فغمرها بعنف ، حتى طفرت نواتُها ، فأصابت

---

(54) المسعودي ، مروج الذهب ، ج 3 ، ص 461

(55) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 9

(56) الوزير المهلّبي (الحسن بن محمد) (ت 352 هـ / 963) أديب وشاعر من كبار الوزراء يعود نسبه الى المهلّب بن أبي صفرة ، استوزره معز الدولة البويهي والمطيع العباسي . (المنجد في اللغة والإعلام) .

وجه الوزير(57) . وأموراً كهذه دفعت الحارثي للابتعاد عن مؤاكلة الناس وعندما سئل عن ذلك قال : « لوم لم أترك مؤاكلتهم الا لنزوعي عن الأسواري لتركتُها ، ما ظنّكم برجل نهش بضعة لحم بقر فانقلع ضرسه وهو لا يدري . وكان إذا أكل ذهب عقلُه وجحظت عيناه وسكر وسدر(58) وتربَّد(59) وجهُه وغضب ولم يسمع ولم يبصر ، فلما رأيتُه وما يعتَريه ويعتري الطعام منه صرت لا آذنُ له إلا ونحن نأكل الجوز والتمر والباقليّ ، ولم يفجَأني قطُّ وأنا آكل تمراً إلا استفَّه سفّاً وزداً(60) به زوداً ، ولا وجده كنيزاً(61) إلا وتناول القطعة منه كجمجمة الثور كدماً كدمها ، ونهشها طولاً وعرضاً ، ورفعاً وخفضاً ، حتى يأتي عليها ، ثم لا يقع عضُّه إلا على الانصاف والأثلاث ؛ ولا رمى بنواة قط ولا نزع قمعاً ، ولا نفى عنه قشراً ، ولا فتشه مخافة السوس والدود(62) .

3 ـ آداب تقديم الطعام الى الأخوان الزائرين

يرى الغزالي أن تقديم الطعام الى الأخوان فيه فضل كبير ويعود في ذلك الى سيرة النبي والسلف الصالحين في البذل والسخاء أمام إخوانهم الزائرين ، فعن النبي قوله : « لا تزال الملائكة تصلي على أحدكم ما دامت مائدته موضوعة بين يديه حتى ترفع »(63) . وفي الخبر أيضاً : « ثلاثة لا يحاسَبُ العبد عليها : أكلة السحور ، وما أفطر عليه وما أكل مع الأخوان » وعن الامام علي بن أبي طالب قوله : لأن أجمع إخواني على صاع من طعام أحب من أن أعتق رقبة . وكان الصحابة يقولون : الاجتماع على الطعام من مكارم الأخلاق(64) . بعد أن يبين الغزالي فضل تقديم الطعام للإخوان الزائرين وفضل الأكل مع الجماعة يتحدث عن آداب هذا الفصل فيقسمه الى قسمين : القسم الأول في الدخول الى الجماعة والقسم الثاني في التقديم .

أ ـ آداب الدخول :

يقول الغزالي أنه ليس من السُّنة أن يقصد (المرء) قوماً متربصاً لوقت طعامهم فيدخل عليهم وقت الأكل فإن ذلك من المفاجأة وقد نُهيَ عنه قال الله تعالى : ﴿ لا

(57) الثعالبي ، يتيمة الدهر في شعراء أهل العصر ، طبعة دمشق ، ج 2 ، ص 120

(58) سدر الرجل : تحيَّر .

(59) تربَّد وجهه : تغيَّر .

(60) زدا به ، رمى به ، وفي كتاب البخلاء « وذرا به ذرواً » .

(61) الكنيز: التمر يُجعل في قواصر للشتاء .

(62) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج 3 ، ص 229 -230 . وفي بخلاء الجاحظ (طبعة صادر ، بيروت ص 114) عن الحارثي قوله : والله اني لو لم أترك مؤاكلة الناس وإطعامهم إلا لسوء رعة علي الأسواري لتركته . . .

(63) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 9 ، والحديث أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث عائشة .

(64) نفس المصدر .

تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ﴾ سورة الأحزاب ، آية ٥٣ . يعني منتظرين حينه ونضجه ، وفي الخبر : « من مشى الى طعام لم يُدعَ اليه مشى فاسقاً وأكل حراماً »(65) . وقد ذم العرب كثيراً الطفيلي الذي يثقل على الناس بمؤنته وهو طارىء عليهم وربما كانوا على غير استعداد . ويقول الجاحظ في حكاية له أن « الطفيلي » لقب رجل من الكوفة من بني عبد الله بن غطفان يسمى طُفيلاً ، وكان أبعد الناس نجعة في طلب الولائم والأعراس ، فقيل له ذلك : طُفَيل العرائس ، وصار ذلك نبزاً(66) له ، ولقباً لا يعرف بغيره ، فصار كل من كانت تلك طعمته يقال له طفيلي(67) . ويرى الجاحظ أن القول فلان طُفيلي ليس من أصول كلام العرب . ومن طريف شعر بعضهم :

دعوت نفسي حين لم تدعُني فالحمد لي لا لك في الدعوه
وقلت ذا أحسنُ من موعد أخلافه يدعو الى جفوه(67)

وقول آخر :

إذا جاء ضيف جاء للضيف ضَيْفَنٌ(69) فأودى بما تُقرى الضيوف الضيافن(70)

لكن الغزالي لا يرى في كل من دخل بيتاً أثناء الطعام أو في حينه بمتطفل فاسق وشرط ذلك ألا يكون متربصاً لموعد طعامهم أما إذا اتفق دخوله وطعامهم فعليه أن لا يبادر الى الأكل ما لم يؤذن له . فإذا قيل له : كل . نظر فإن علم أنهم يقولونه على محبة لمساعدته فليساعد ، وإن كانوا يقولونه حياء منه فلا ينبغي أن يأكل ، بل ينبغي أن يتعلل(71) . إلا أن صاحب المنزل إذا كان صادقاً في دعوته فهو لا بد عارف بتعلل ضيفه ، فعن أسماء بنت رفيد قالت : دخلنا على النبي ﷺ ، فأُتي بطعام فعرض علينا فقلنا : لا نشتهيه ، فقال : « لا تجمَعُنَّ كذباً وجوعاً »(72) . والغزالي يرى للمؤمن إن كان جائعاً أن يقصد بيت أحد إخوانه ليطعمه وهذا يصح أيضاً ما لم يكن متربصاً وقت

---

(65) الغزالي الاحياء ، ج 2 ، ص 10 والحديث من مشى الى طعام . . . أخرجه البيدهقي من حديث عائشة ولأبي داوود من حديث ابن عمر : « من دخل على غير دعوة دخل سارقاً وخرج مغيراً » .

(66) النبز : لقب فيه معنى الذم .

(67) الجاحظ ، البخلاء ، ص 113

(68) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج 3 ، ص 232

(69) الضيفن : الطفيلي

(70) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج 3 ، ص 233

(71) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 10

(72) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج 3 ، ص 231

أكله . فقد قصد رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما منزل أبي الهيثم بن النبهان وأبي أيوب الأنصاري لأجل طعام يأكلونه وكانوا جياعاً[73] . لا بل إن الدخول على مثل هذه الحالة إعانة لذلك المسلم على حيازة ثواب الإطعام وهذه كانت عادة السلف . كذلك للمسلم أن يدخل بيت الواحد من أخوانه وكان صاحب الدار غائباً وكان واثقاً من صداقته عالماً بفرحه إذا أكل من طعامه فله أن يأكل بغير إذنه . فقد مشى قوم الى منزل سفيان الثوري فلم يجدوه ففتحوا الباب وأنزلوا السفرة وجعلوا يأكلون فدخل الثوري وجعل يقول : « ذكرتموني أخلاق السلف هكذا كانوا »[74] . فأين من أخلاق السلف ما حكاه الجاحظ عن احتيال محمد بن المؤمل في منع أصحابه والبخل عليهم وله في الداخل اليه وقت طعامه حيل محكمة في صده عن مشاركته ، فهو يبادره « أول دخوله وخلع نعله ، وهو رافع صوته بالتنويه وبالتشنيع : هاتِ يا مبشر لفلان شيئاً يطعَم منه ، هاتِ له شيئاً ينال منه ، هات له شيئاً ؛ اتكالاً على خجله أو غضبه أو أنفته وطمعاً في أن يقول : قد فعلتُ » .

فإن أخطأ ذلك الشقي وضعف قلبه وحُصر[75] وقال : قد فعلت ، وعلم أنه قد أحرزه وحصَّله وألقاه وراء ظهره ، لم يرض بذلك حتى يقول : بأي شيء تغديت؟ فلا بدّ له من أن يكذب ، أو ينتحلَ المعاريض[76] . فإذا استوثق منه رباطاً ، وتركه لا يستطيع أن يترمرم[77] ، لم يرض بذلك حتى يقول في حديثٍ له : كنّا عند فلان ، فدخل عليه فلانٌ فدعاه الى غدائه فامتنع . ثم بدا له ، فقال : في طعامكم بُقيلة[78] أنتم تجيدونها . ثم تناوله ، فلا يزال يزيد في وِثاقه ، وفي سد الأبواب عليه ، وفي منعه البدَوَات[79] . حتى إذا بلغ الغاية قال : يا مبشر أما إذا تغدّى فلان واكتفى ، فهات لنا شيئاً نعبث به[80] .

ب ـ آداب تقديم الطعام

من أول آداب التقديم عند الغزالي « **ترك التكلف** وتقديم ما حضر ، فإن لم

---

(73) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 10

(74) نفس المصدر ، ص 11

(75) حصر : أي ضعف عن إبداء الحقيقة .

(76) المعاريض : أي يدعي شيئاً غير حقيقي .

(77) يترمرم : يتحرك .

(78) ضرب من عيون الأطعمة ويبدو أنه لا تُستحسن المبادرة اليه وذلك ما حكي عن الحارثي في كلام طويل أنه إن كان لا بد من المؤاكلة ولا بد من المشاركة فمع من لا يستأثر عليَّ بالمنح ، ولا ينتهز بيضة البقيلة ولا يلتقم كبد الجاج الخ (عيون الأخبار لابن قتيبة ، ج 3 ، ص 253) .

(79) البدوات الواحدة بداة : ما يبدو من الرأي ، والمراد أن يبدو ما يُشعر بطلب الأكل .

(80) الجاحظ ، البخلاء ، ص 141

يحضره شيء ولم يملك فلا يستقرض لأجل ذلك فيشوش عليه . وإن حضره ما هو محتاج إليه لقوته ولم تسمح نفسه بالتقديم فلا ينبغي أن يُقَدِم »(81) . وعدم التكلف يزيد في التواصل ويمنع تقاطع الناس لأن من أشعرته بتكلّفك له فإنما بذلك تقطعه عن الرجوع إليك مرة ثانية ، روي في ذلك « أن رجلاً دعا علياً(82) رضي الله عنه فقال علي : أجيبك على ثلاث شرائط لا تُدخل من السوق شيئاً ولا تدَّخر ما في البيت ولا تجحف بعيالك »(83) . فكأنه بذلك حدّد شروط تقديم الطعام للضيف وهو ترك التكلف وترك البخل والتقتير وفي كل ذلك مراعاة عدم إيذاء أهل البيت والعيال والإجحاف عليهم . ومن حسن ما قيل في آداب تقديم الطعام قول بعضهم : إذا قُصدت للزيارة فقدِّم ما حضر وإن استزرت فلا تُبق ولا تذر . وقال سليمان(84) أمَرنا رسول الله ﷺ أن لا نتكلف للضيف ما ليس عندنا وأن نقدم إليه ما حضر(85) .

وإذا كان واجب المضيف أن لا يتكلف فمن أول واجبات الزائر أن لا يتطلب ولا يقترح « ولا يتحكم بشيء بعينه فربما يشق على المزور إحضاره ، روى الأعمش عن أبي وائل أنه قال : مضيت مع صاحب لي نزور سلمان فقدم إلينا خبز شعير وملحاً جريشاً ، فقال صاحبي : لو كان في هذا الملح سعتراً كان أطيب ، فخرج سلمان فرهن مطهرته وأخذ سعتراً ، فلما أكلنا قال صاحبي : الحمد لله الذي قنعنا بما رزقنا : فقال سلمان : لو قنعت بما رُزقت لم تكن مطهرتي مرهونة »(86) .

والملفت للنظر أن الغزالي الذي عاش في القرن الرابع الهجري يتحدث عن الآداب العامة والأخلاق الحميدة التي يجب أن يتحلى بها المؤمن مقتدياً سيرة الرسول والصحابة والسلف الصالحين دون أن يذكر جانباً آخر من الترف الذي كان سائداً في عصره بلغ حداً عجزت عنه بلاغة البلغاء، لم يذكر هذا الجانب بخير ولا سوء ولا تعرض لأصحابه، فأين ما رواه الغزالي عن أنس بن مالك وغيره من الصحابة الذين كانوا يقدِّمون ما حضر من الكِسر اليابسة وحشف التمر ويقولون : لا ندري أيهما أعظم وزراً

---

(81) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 11

(82) الامام علي بن أبي طالب

(83) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 11

(84) سلمان الفارسي (ت 35 هـ / 655 م) : من خواص الصحابة ، كان رقيقاً ، أسلم بعد الهجرة . ولاه عمر عاملاً على المدائن . روى الحديث عنه ابن العباس وأبو هريرة . (المنجد في اللغة والأعلام) .

(85) الحديث أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق ولاحمد: « لولا أن رسول الله ﷺ نهانا أن يتكلف أحدنا لصاحبه لتكلفنا لك » وللطبراني « نهانا رسول الله أن نتكلف للضيف ما ليس عندنا » .

(86) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 11

الذي يحتقر ما يقدَّم إليه أو الذي يحتقر ما عنده أن يقدمه[87] . وما روي عن الصاحب بن عباد الذي كتب يدعو أحد أصحابه الى وليمته واصفاً مجلسه بقوله : « نحن يا سيدي في مجلس غني إلا عنك ، شاكر إلا منك ، قد تفتحت فيه عيون النرجس ، وتوردت فيه خدود البنفسج ، وفاحت مجامر الاترج . . وقام خطباء الأوتار ، واهتزت رياح الأقداح ، وقام منادي الطرب ، وطلعت كواكب الندماء ، وامتدت سماء الند ، فبحياتي لما حضرت ، لنحصل بك في جنة الخلد وتتصل الواسطة بالعقد »[88] .

وفي أوائل القرن الرابع الهجري كان الوزير أبو الحسن علي بن الفرات يدعو الى طعامه في كل يوم تسعة من الكتاب الذين اختص بهم ، وكان منهم أربعة نصارى فكانوا يقعدون من جانبيه وبين يديه ، ويُقدَّم الى كل واحد منهم طبق فيه أصناف الفاكهة الموجودة في الوقت من خير كل شيء ، ثم يجعل في الوسط طبق كبير يشتمل على جميع الأصناف ؛ وكل طبق فيه سكين يقطع بها صاحبها ما يحتاج الى قطعه من سفرجل وخوخ وكمثرى ؛ ومعه طست زجاج يرمي فيه الثفل ، فإذا بلغوا من ذلك حاجتهم واستوفوا كفايتهم شيلت الأطباق وقُدِّمت الطسوت والأباريق ، فغسلوا أيديهم ، وأحضرت المائدة مغشاة بدبيقي فوق مكبة خيازر ، ومن تحتها سفرة أدم فاضلة عليها ، وحواليها مناديل الغمر . . . فإذا وضعت رُفعت المكبّة والأغشية ، وأخذ القوم في الأكل ، وأبو الحسن بن الفرات يحدثهم ويؤانسهم ويباسطهم ، فلا يزال على ذلك ، والألوان توضع وترفع أكثر من ساعتين، ثم ينهضون الى مجلس في جانب المجلس الذي كانوا فيه ، ويغسلون أيديهم ، والفرّاشون قيام يصبون الماء عليهم[89] .

وأين ما يتحدث عنه الغزالي من عدم التكلف والإسراف والتخلق بأخلاق الرسول والصحابة وما عرفته موائد الخلفاء والأمراء والوزراء من تبذير بلغ حد الخيال . فالمسعودي يروي حكاية طبق سمك قدَّمه ابراهيم بن المهدي لهرون الرشيد فاستصغر القطع وقال : لِمَ صغَّر طباخك تقطيع السمك ؟ فقلت (أي ابراهيم بن المهدي) : يا أمير المؤمنين ، هذه ألسنة السمك ، قال : فيشبه أن يكون في هذا الجام (الطبق) مائة لسان ، فقال مراقب خادمه : يا أمير المؤمنين فيها أكثر من مائة وخمسين ، فاستحلفه عن مبلغ ثمن السمك ، فأخبره أنه قام بأكثر من ألف درهم ، فرفع الرشيد يده وحلف أن لا يُطعم شيئاً دون أن يُحضِرَهُ ألف درهم فلما حضر المال أمر أن يتصدق به . وقال :

---

(87) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 11

(88)يتيمة الذهر ج 3 ، ص 244

(89) أبو الحسن الهلال بن المحسِّن بن ابراهيم الصابي ، تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ، نشرة أمدروز ببيروت 1904 ، ص 240

أرجو أن يكون كفّارة لسرفك في إنفاقك على جام سمك ألف درهم ، ثم ناول الجام بعض خدمه وقال : اخرج من دار أخي ، ثم انظر أول سائل تراه فادفعه اليه[90] .

ومن أركان الأدب في تقديم الطعام عند الغزالي أن لا يقول المزور للزائر : « هل أقدم لك طعاماً ؟ بل ينبغي أن يقدم إن كان . قال الثوري : إذا زارك أخوك فلا تقل له : أتأكل ؟ أو أقدم اليك ؟ ولكن قدّم فإن أكل وإلا فارفع .

4 ـ آداب الضيافة عند الغزالي .

يتحدث الغزالي في باب آداب الضيافة بأحوال وأمور سبق وطرقها في الأبواب السابقة لذلك سنعمد الى الحذر من الوقوع في التكرار وطرق الموضوع الواحد ما لأنه عاد فكرر في آداب الضيافة عدداً من النقاط ، كالتكلُّف للضيف وغير ذلك ، ويردد في هذا الباب الحث على عدم التكلُّف للضيف حذراً من إبغاضه[91] . ويحث على التخلّق بفضيلة الضيافة لقول رسول الله ﷺ « لا خير فيمن لا يُضيف »[92] . وتحدثنا في موضع سابق عن الضيافة واعتبارها رأس الفضائل التي على المؤمن أن يتحلى بها عند الغزالي ، ويحكى عن رسول الله ﷺ أنه مرَّ برجل له إبل وبقر كثيرة فلم يُضفه ومر بامرأة لها شويهات فذبحت له : فقال ﷺ : انظروا إليها إنما هذه الأخلاق بيد الله فمن شاء أن يمنحه حسناً فعل[93] . وكان ابراهيم الخليل صلوات الله عليه وسلامه إذا أراد أن يأكل خرج ميلاً أو ميلين يتلمس من يتغذّى معه وكان يُكنّى أبا الضيفان[94] . وجعل الرسول في بعض المواضع الايمان « إطعام الطعام وبذل السلام »[95] وفي « الكفارات والدرجات إطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام »[96] . وسئل عن الحج المبرور فقال : إطعام الطعام وطيب الكلام .

وفي أدبيات العرب تراث ضخم في الحث على القِرى والبذل للضيف وإطعام الطعام على حب وذم البخل وأهله والتشهير بهم . وكتاب البخلاء للجاحظ خيرُ مرجع ودلالة على ما للبخل من وقع سيء في نفوس الناس على مر العصور . وإذا شنّع على

---

(90) المسعودي ، مروج الذهب ، ج 3 ، ص 363

(91) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 12

(92) حديث « لا خير فيمن لا يضيف » أخرجه أحمد من حديث عقبة بن عامر .

(93) الحديث أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق من رواية أبي المنهال مرسلا .

(94) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 12

(95) حديث « ما الإيمان ؟ قال : إطعام الطعام وبذل السلام » متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو بلفظ : « أي الاسلام خير ؟ قال تطعم الطعام وتقري السلام على من عرفت ومن لم تعرف » .

(96) هذا الحديث أخرجه الترمذي وصحّحه والحاكم من حديث معاذ .

قوم بهجاء وُصفوا أول ما وصفوا بالبخل واللؤم . وكانوا ينفرون من داء البخل كما لو أنه وباء معد يسري في العروق وتتوارثه الأجيال فمن رسالة أبي العاص(97) بن عبد الوهاب ابن عبد المجيد الثقفي الى الثقفي يقرّعه لدخوله باب البخيل الواسع لمخالطته أشهر بخلاء عصره كالأصمعي وسهل بن هارون واسماعيل بن غزوان وغيرهم :

« ولقد سَرى اليك عرْق(98) ، ولقد دخل أعراقك خَوَرْ(99) ، ولقد عمل فيها قادح(100) ، ولقد غالَها غولٌ . وما هذا المذهب من أخلاق صميم ثقيف ، ولا من شيم أعرقت فيها قريش »(101) . نلاحظ هنا أن أبي العاص يؤكد أن عرق البخل الخسيس تسرب الى بني ثقيف عندما ضَعُفَ وعَفُن وهلك واحد منهم أصابته لوثة البخل ، وهذا ليس من أخلاق صميم ثقيف ولا من شيم قريش ، وبما أنه قد وُصم بالبخل لذلك فهو يخاطبه بقوله :

فلا بد « أن يكون قد عرضت لك إقراف ولقد أفسدتك هجنة » (102) ، أي أنه خرج من أصله فإما أن يكون أبوه غير عربي أو أمه غير عربية . قال معاوية : من لم يكن من بني عبد المطلب جواداً فهو حميل(103) ، ومن لم يكن من آل الزبير شجاعاً فهو لزيق . وفي هذه الرسالة الأدبية الرائعة يصف أبو العاص فضيلة الجود والبذل ويسفّه البخل والمنع فيذكر عن النبي ﷺ أنه لم يضع درهماً على درهم ، ولا لَبِنة على لَبِنة ، وملك جزيرة العرب ، فقبض الصَّدَقات ، وجُبيت له الأموال ما بين عِذار العراق الى شِحر عُمان ، الى أقصى مخاليف اليمن ، ثم توفي وعليه دين ، ودرعه مرهونة ، ولم يُسأل حاجة قط فقال : لا . . . ومدحته الشعراء بالجود ، وذكرته الخطباء بالسماح .

وفخرت هاشم على سائر قريش فقالوا : نحن أطعم للطعام ، وأضرب للهام . وذكرها بعض العلماء فقالوا : أجواد مجّاد ، ذوو ألسنة حداد(104) . وكان العرب يفاخرون غيرهم من الأمم بحسن الضيافة والجود والسخاء ، وقد ابتدأ الحارث بن كلدة طبيب العرب وهو بين يدي كسرى أنوشروان الفارسي بالسخاء عندما سأله عما يحمد من أخلاق العرب ويحفظ من مذاهبهم ، « قال الحارث : لهم أنفس (العرب) سخية ،

---

(97) أبو العاص : من سراة البصرة وأعرق أسرها .

(98) عرق : أي عرق خسيس

(99) خور : فتور أو ضعف

(100) القادح : أكال يقع في الأسنان والشجر ، والعفن . الغول ، من غاله : أهلكه .

(101) الجاحظ ، البخلاء ، ص 223

(102) نفس المصدر ، والإقراف أن تكون الأم عربية والأب غير عربي والهجنة أن تكون الأم غير عربية .

(103) نفس المصدر ، والحميل الدخيل واللزيق الذي لزق بغير أهله .

(104) الجاحظ ، البخلاء ، ص 224-225

وقلوب جرية ، وعقول صحية مرضيَّة . وأحساب نقية . . . يطعمون الطعام ، ويضربون الهام ، وعزهم لا يرام ، وجارهم لا يضام »[105] .

يبقى أن الأخبار الواردة في الحث على الضيافة والذم على البخل واللؤم كثيرة لا تحصى ، أما آداب الضيافة فيفصلها الغزالي كما يلي : آداب الدعوة ، آداب الاجابة ، آداب الحضور ، آداب إحضار الطعام ، آداب الانصراف .

وسنتحدث بقليل من التفصيل متوقين دائماً الايجاز وعدم الاطالة والحذر من الوقوع في التكرار ، ذلك أن بعض المواضيع عند الغزالي تتداخل ببعضها بشكل يبدو واضحاً في كثير من الأحيان .

أ ـ آداب الدعوة :

ينبغي للداعي أن يعمد بدعوته الاتقياء دون الفُسّاق . وذلك لقول النبي ﷺ « لا تأكل إلا طعام تقي ولا يأكل طعامك إلا تقي » ، كذلك من آداب الدعوة دعوة الفقراء دون الأغنياء على الخصوص ، لقوله ﷺ : « شر الطعام طعام الوليمة يدعى اليها الأغنياء دون الفقراء »[106] ، كذلك على الداعي أن لا يهمل دعوة أقاربه فإنّ « إهمالهم إيحاش وقطع رحم »[107] ، وعليه أن لا يقصد بدعوته المباهاة والتفاخر بل استمالة قلوب الأخوان ، لذلك عوتب الحارثي ، بقولهم له : « إنك لتصنع الطعام فتجيدُه ، وتعظم عليك النفقة وتكثر منه . . . ثم أنت مع هذا كله ، لا تُشهِدُه عدواً لتَغُمّه ، ولا ولياً فتسُرَّه ولا جاهلاً لتُقرّفه ، ولا زائراً لتعظمه ، ولا شاكراً لتثبته »[108] . فكأنهم بهذا العتاب أجملوا الأسباب التي من أجلها يدعو الناس بعضهم للطعام ، وإذا كان من النادر أن يدعو الواحد عدوه ليغمَّه فهو غالباً ما يدعو فقيراً ليسره أو زائراً ليعظِّمه أو شاكراً ليثبته ، والأولى كما يرى الغزالي أن يدعوَ المؤمن أخاه المؤمن ليستميل قلبه ويثبت شكره ويقتديَ بسنة الرسول في إطعام الطعام وإدخال السرور على قلوب المؤمنين ، وبما أن كل فعل يقوم به العبد مرتبط عند الغزالي بالمثل الأعلى وهو تقوى الله وعبادته فإن « إطعام التقي إعانة على الطاعة وإطعام الفاسق تقوية على الفسق »[109] . ويحكي الغزالي حكاية عن ابن المبارك في هذا المجال تعتبر غاية في التطرف إذ سأله رجل

---

(105) أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد (تحقيق محمد سعيد العريان) ، دار الفكر ، بيروت دون تاريخ ، ج 8 ، ص 77 .

(106) هذا الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة .

(107) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 13

(108) الجاحظ ، البخلاء ، ص 97

(109) الغزالي ، الاحياء ، ص 13

خياط : « أنا أخيطُ ثياب السلاطين فهل تخاف أن أكون من أعوان الظلمة ؟ قال : لا إنما أعوان الظلمة من يبيع منك الخيط والابرة ، أما أنت فمن الظلمة أنفسهم »(110) .
فإذا كان الأمر هكذا فكيف يكون بالمؤمن الذي يدعو فاسقاً ليشاركه طعامه .

أما في شأن إجابة الدعوة فإن الغزالي يرى بأن الإجابة واجبة وهي سُنّة مؤكدة وذلك لقول الرسول ﷺ : لو دُعيتُ إلى كراع لأجبتُ ولو أُهديَ اليَّ ذراع لقبلت(111) . وكان يجيبُ دعوة العبد ودعوة المسكين . ومر « الحسن بن علي رضي الله عنهما بقوم من المساكين الذين يسألون الناس على الطريق وقد نشروا كسراً على الأرض في الرمل وهم يأكلون وهو على بغلته فسلَّم عليهم فقالوا له : هلمّ الى الغداء يا ابن بنت رسول الله فقال : نعم إن الله لا يُحب المستكبرين فنزل وقعد معهم على الأرض وأكل ثم سلَّم عليهم وركب وقال : قد أجبتكم فأجيبوني ، قالوا : نعم ، فوعدهم وقتاً معلوماً فحضروا فقدّم اليهم فاخر الطعام وجلس يأكل معهم(112) ، أما إذا كان المدعو يعلم أن الداعي له بتقلد مِنَّة ويرى ذلك شرفاً له وذخراً لنفسه في الدنيا والآخرة وهو مع هذا يستثقل الإطعام ويفعل ذلك مباهاة وتكلفاً فليس من السنة إجابته ، بل الأولى التعلل . أما إذا علم أنه لا مِنَّة له بذلك فلا ينبغي أن يرُدّ الدعوة . قال أبو تراب الخشبي رحمة الله عليه : عُرض عليَّ طعام فامتنعت فابتُليت بالجوع أربعة عشر يوماً فعلمت أنه عقوبته(114) .

كذلك على المدعو أن لا يمتنع عن الاجابة لبعد المسافة كما لا يمتنع لفقر الداعي وعدم جاهه ، ولا أن يمتنع لكونه صائماً فقد نهى الرسول عن ذلك بقوله لمن امتنع بعذر الصوم : « وتكلَّف لك أخوك وتقول إني صائم »(115) . وعلى المدعو أن يمتنع من الإجابة إن كان الطعام طعام شُبهة أو الموضع أو البساط المفروش من غير حلال(116) ، كذلك عليه أن لا يجيب إن كان الداعي ظالماً أو مبتدعاً فاسقاً أو شريراً أو متكلفاً طلباً للمباهاة والفخر(117) . كذلك عليه أن لا يقصد بالإجابة شهوة البطن فيكون عاملاً في

---

(110) نفس المصدر .
(111) هذا الحديث أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة .
(112) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 13-14
(113) نفس المصدر .
(114) نفس المصدر
(115) الحديث أخرجه البيهقي من حديث أبي سعيد الخدري « صنعت لرسول الله طعاماً وأتاني هو وأصحابه فلما وُضع الطعام قال رجل من القوم : إني صائم ، فقال رسول الله ﷺ : دعاكم أخوكم وتكلف لكم . الحديث » .
(116) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 14
(117) نفس المصدر .

أبواب الدنيا بل يُحسِن نيته ليصير بالإجابة عاملاً بالآخرة ، وهذا الذي يتحدث عنه الغزالي في إجابة الدعوات للطعام والشراب يعتبر ضرباً من المثالية الحسية لا يرقى إليها إنسان ، فالغالب في طباع البشر إجابة الدعوات لإشباع الرغائب وشهوات النفس وهم غالباً ما يكونون في لهو عن ذكر الله والإعانة على طاعته ، قيل لميسرة الأكول : كم تأكل كل يوم ؟ قال : من مالي أو من مال غيري ؟ قيل له : من مالك : قال : مكوك . قيل فمن مال غيرك ؟ قال اخبزوا واطرحوا . وكان الواثق (وهو الخليفة هرون بن محمد بن هارون) مفتوناً بحب الباذنجان ، وكان يأكل في أكلة واحدة أربعين باذنجانة ؛ فأوصى اليه أبوه ، وكان وليّ عهده : ويلك ! متى رأيت خليفة أعمى ؟ فقال للرسول : أعلم امير المؤمنين أني تصدقت بعينيّ جميعاً للباذنجان[118] . وكان سليمان بن عبد الملك من الأكلة وأخبار نهمه تطول وفيها من المبالغة ما ينبىء بشدة شرهه وعظم شهواته . فإذا كان هذا هو حال الخلفاء فكيف الحال مع عامة الناس ، وغني عن الذكر أن الموائد كانت تهيؤ لهؤلاء الخلفاء والأمراء والسلاطين الموائد طلباً للمباهاة والفخر وتقرباً من أصحاب النفوذ ، قال سليمان بن عبد الملك للشمردل (وكيل عمرو بن العاص) ويلك يا شمردل ما عندك شيء تطعمني ؟ قال : بلى ، إن عندي جدياً كانت تغدو عليه بقرة وتروح أخرى . قال : عجّل به . . . فأتى عليه ، ثم قال : ويلك يا شمردل أما عندك شيء تطعمني ؟ قال بلى والله ، عندي خمس دجاجات هنديات كأنهن رئلان النعام[119] .

هذا ما كان يعد للخلفاء من موائد لطعامهم ومع ذلك فقد أصرّ الغزالي على أن العودة الى أصول الدين هي التي تخلِّص المؤمن مما لحقه من شرور وآثام لتركه فضائل دينه وآدابه .

ب ـ آداب الحضور

من آداب الحضور عند الغزالي أن لا يتصدّر الزائر أحسن الأماكن بل يتواضع « ولا يطوِّلُ الانتظار عليهم ولا يعجِّل بحيث يفاجئتهم قبل تمام الاستعداد »[120] . وعليه أن يلزم الموضع الذي يشير اليه صاحب البيت ولا يخالفه في ذلك البتة وإن أشار إليه بعض الضيفان بالارتفاع إكراماً ، فواجبه أن يتواضع ولا يشوّش على صاحب

---

(118) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج 8 ، ص 10 -11 . والمكوك مكيال قيل في مقداره عدة أقوال وفي عيون الأخبار لابن قتيبة قال : دونان ، وهذه كلمة فارسية تعني رغيفان (ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج 3 ، ص 225

(119)

(120) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 15

الدعوة ترتيبه ، وقد أوصى الرسول بالتواضع في المجلس بقوله : « إن من التواضع لله الرضا بالدون من المجلس »(121) . ومن آداب الحضور أيضاً أن لا يكثر النظر الى الموضع الذي يخرج منه الطعام فإنه دليل على الشره . وعليه إن رأى منكراً أن يغيِّرَهُ إن قدر وإلا أنكر بلسانه وانصرف . ويعدد الغزالي بعض المنكرات حسب الشريعة الاسلامية كفرش الديباج واستعمال أواني الفضة والذهب والتصوير على الحيطان وسماع الملاهي والمزامير وحضور النسوة المتكشفات الوجوه(122) . حتى يصل الأمر عند الامام أحمد بن حنبل أن يقول أن على الزائر إذا رأى مكحلة رأسها مفضض فينبغي أن يخرج . وقوله أيضاً أنه إذا رأى كِلَّة(123) فينبغي أن يخرج فإن في ذلك تكلف لا فائدة فيه ولا تدفع حراً ولا برداً ولا تستر شيئاً(124) ، وكذلك قال (ابن حنبل) أن على الزائر أن يخرج إذا رأى حيطان البيت مستورة بالديباج كما تستر الكعبة كذلك إذا رأى صورة أو دخل الحمام ورأى صورة فينبغي أن يحكّها فإن لم يقدر خرج(125) .

ويناقش الغزالي أقوال ابن حنبل ويفصل ما في بعضها من تطرف لا معنى للأخذ به لأنه ليس بحرام . ويرى أن الكلة وتزيين الحيطان بالديباج لا ينتهيان الى التحريم ذلك أن الحرير يحرم على الرجال وذلك لقول الرسول « هذان حرام على ذكور أمتي حل لأناثها »(126) . ويرى الغزالي أن ما على الحائط « ليس منسوباً الى الذكور ولو حرّم هذا لحرّم تزيين الكعبة بل الأولى إباحته لموجب قوله (زينة الله) لا سيما في وقت الزينة إذا لم يتخذ عادة للتفاخر »(127) .

أما فيما يختص برب المنزل وآداب إحضاره للطعام فأولى هذه الآداب **تعجيل الطعام** فذلك من اكرام الضيف ، ومهما حضر الأكثرون وغاب واحد أو إثنان وتأخروا عن الوقت الموعود فحق الحاضر في التعجيل أولى من حق أولئك في التأخير(128) . وقد حثّ القرآن الكريم على تعجيل تقديم الطعام بقوله تعالى ﴿ فما لبث أن جاء بعجل

---

(121) هذا الحديث أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق ، وأبو نعيم في رياضة المتعلمين من حديث طلحة بن عبيد .

(122) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 15

(123) الكِلّة : جمعها كلل وكِلّات : الستر الرقيق ، غشاء رقيق يخاط كالبيت يُتوقّى به من البعوض ويعرف « بالناموسية » .

(124) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 15

(125) نفس المصدر .

(126) هذا الحديث أخرجه أبو داوود والنسائي وابن ماجة من حديث الامام علي .

(127) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 15

(128) نفس المصدر .

حنيذ ﴾ وقوله : ﴿ فراغ الى أهله فجاء بعجل سمين ﴾ والروغان : الذهاب بسرعة وقيل في خفية . وقال حاتم الأصم : العجلة من الشيطان الا في خمسة فإنها من سنة رسول الله ﷺ : إطعام الضيف وتجهيز الموتة وتزويج البكر وقضاء الدين والتوبة من الذنب[129] . وهكذا فقد قدم إطعام الضيف على سائر ما يراه حسن التعجيل ، والابطاء في تقديم الطعام وتأخيره من سجايا البخلاء عند العرب وقد حكى أبو كعب[130] عن موسى بن جناح (أحد البخلاء المشهورين) خطبة طويلة وهو يدعو ضيوفه الى التمهل - بقوله : لا تعجلوا ، فإن العجلة من الشيطان . ثم وقف وقفة ثم قال : وكيف لا تعجلون وقد قال الله جلّ ذكره : ﴿ وكان الانسان عجولا ﴾ ! وقال : ﴿ خلق الانسان من عجل ﴾ . اسمعوا ما أقول : فإن فيما أقول حسنَ المؤاكلة ، والبُعدَ من الأثرة ، والعاقبة الرشيدة ، والسيرة المحمودة : إذا مدَّ أحدكم يده الى الماء فاستَسْقى . . . فأمسكوا حتى يفرغ صاحبكم . فإنكم تجمعون عليه خصالاً ، منها : أنكم تُنغِصون عليه تلك الشَّربة . إذا علم أنه لا يفرغ إلا مع فراغكم ، ومنها أنكم تحنقونه ، ولا يجد بداً من مكافأتكم ، فلعله أن يتسرع الى لقمة حارة ، فيموت وأنتم ترونه ، وأدنى ذلك أن تبعثوه على الحرص وعلى عظم اللقم . ولهذا ما قال الإعرابي حين قيل له : لم تبدأ بأكل اللحم الذي فوق الثريد ؟ قال : لأن اللحم ضاعن والثريد مقيم »[131] .

وقد يؤدي التكلف أيضاً الى إجاعة الضيف فقد حكى الشيخ الغزي عن رب المنزل الذي ينتظر بمؤاكليه إدراك طعامه حتى يُجيعهم وقد سماه (بالمجوِّع) أن محمد بن عبد الله بن ضاهر دعاه رجل من أصحابه دعوة ، فأنّق فيها ، واحتفل لها ، فلما حضر محمد ، طالبه بالطعام ، فمطله ليتكامل ويتلاحق على ما أحبَّه من الكثرة والحفلة حتى تصرَّم النهار ، ومس محمداً الجوع ، فتنغَّص عليه يومُه ، ثم أراد محمد سفراً ، فشيَّعه هذا الرجل ، حتى إذا دنا منه ليودعه قال له : أتأمر بشيء ؟ قال : نعم ! اذهب فاجعل طريقك في عودك على أحمد بن يوسف الكاتب ، وقل له : قد بعثني اليك الأميرُ

---

(129) نفس المصدر .

(130) هو أبو كعب الصوفي ، ويبدو أن الجاحظ شكّك في صحة زهده عندما قال في تقديم كتاب البخلاء « أنك لو ولدت كلاماً في الزهد وموعظة الناس ، ثم قلت : هذا من كلام بكر بن عبد الله المُزَني وعامر بن عبد قيس العنبري . . . لتضاعف حسنُه ولأحدث له ذلك النسب نضارة ورفعة لم تكن له ، ولو قلت : قالها أبو كعب الصوفي أو عبد المؤمن أو أبو نواس أو حسين الخليع (الحسين بن الضحاك ، شاعر عباسي مشهور) لما كان لها إلا ما لها في نفسها . (الجاحظ ، البخلاء ، ص 20) ويظهر من هنا الكلام أن أبا كعب الصوفي وعبد المؤمن كانا من طراز أبي نواس وحسين الضحاك .

(131) الجاحظ ، البخلاء ، ص 181-182 ، وابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج 3 ، ص 257

لِتعلِّمني القِرى ، ففعل ذلك ، فلما سمعه أحمدُ ضحك وقال لفراشه[132] : هاتِ ما حضر ، فجاء بطبق كبير ، عليه ثلاثة أرغفة من أنظف الخبز ، وسُكُرُّجاتٍ[133] مريء وخل وملح من أجود الملح ، وما يُتّخذ من هذه الأصناف ؛ وابتدأ يأكل ، فجاء بأوزّة من مطبخه . . . ووافى من دار حُرَمه بفضلة أخرى ، وأهدى له بعض غلمانه جام[134] حلوى ، فانتظم السماط بشيء ظريف خفيف بغير احتشام ولا انتظار[135] .

ويبقى عند الغزالي وعند الكثيرين ممن يدركون أسباب حسن المؤاكلة أن التعجيل في الطعام أفضل بكثير من تأخيره لأي سبب من الأسباب كانتظار مدعو متخلف أو انتظار الطعام حتى يهيأ كله أو خلاف ذلك من الأسباب التي تنغّص على المدعو يومه وتطيل جوعه وتدفعه الى الانتظار الممل .

أما في ترتيب الأطعمة فيرى الغزالي ذلك تقديم الفاكهة أولاً فذلك أوفق في الطب فإنها أسرع استمالة فينبغي أن تقع في أسفل المعدة[136] . فكأنه يقصد بذلك ما نسميه اليوم « بالمقبلات » التي يُستحسن أن تسبق الطعام . ويرى الغزالي أن القرآن نبه الى تقديم الفاكهة في قوله تعالى ﴿ وفاكهة مما يتخيرون ﴾ ثم قال : ﴿ ولحم طير مما يشتهون ﴾ وأفضل ما يقدم بعد الفاكهة اللحم والثريد [137] . وقد سبق وأشرنا إلى أن مائدة الوزير أبو الحسن علي بن الفرات كانت تقدم عليها الفاكهة أولاً وبعد ذلك تتتالى أصناف الطعام واحداً بعد واحد ، وهذه عادة مستحدثة لأن العادة الاسلامية القديمة كانت تقضي بأن يوضع الطعام كله مرة واحدة ، ويقول آدم متز أن هذه الطريقة هي الطريقة الفرنسية التي كانت شائعة في القرن الثامن عشر والتي حلّت محلها الآن الطريقة الروسية الشائعة في أوروبا كلها[138] .

ودليل إكرام الضيف تقديم اللحم ومن ذلك قول الله تعالى في ضيف ابراهيم إذ أحضر العجل الحنيذ ـ أي المحنوذ وهو الذي أُجيد نضجه ـ وهو أحد معاني الإكرام للضيف . هذا وإن كان رب المنزل ممن يقدم الطعام لوناً بعد آخر فمن الآداب أن يذكر ذلك لضيوفه ليأخذ كل امرىء حاجته مما يحب ويشتهي وقد حكي عن بعض أصحاب

(132) اي خادمه ، وهي مأخوذة من قولنا : نرشق زيداً بساطاً وأفرشته وفرّشته : إذا بسطت له بساطاً في ضيافته .

(133) لفظة فارسية معربة وهي جمع سُكرجة وتطلق على إناء صغير يؤكل فيه الشيء القليل من الأُدْم وفي الحديث النبوي الشريف : « لا آكل في سكرجة » .

(134) إناء من فضة ، وقال ابن الاعرابي إنه الفاثور من اللجين .

(135) الشيخ الغزالي، آداب المؤاكلة ، ص 7-8

(136) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 16

(137) نفس المصدر .

(138) آدم متز ، الحضارة الاسلامية ، ج 2 ، ص 237

المروءات أنه كان يكتب نسخة بما يُستحضر من الألوان ويعرض على الضيوف وقال بعض الشيوخ : قدَّم إليّ بعض المشايخ لوناً بالشام فقلت عندنا بالعراق إنما يُقدَّم هذا آخراً ، فقال : وكذا عندنا بالشام ، ولم يكن له لون غيره فخلجت منه .. وقال آخر : كنا جمٰعة في ضيافة فقدم الينا ألوان من الرؤوس المشوية طبيخاً وقديداً فكنا لا نأكل ننتظر بعدها لوناً أو حملاً ، فجاءنا بالطست ولم يُقدِّم غيرها ، فنظر بعضنا الى بعض فقال بعض الشيوخ وكان مزّاحاً : إن الله تعالى يقدر أن يخلق رؤوساً بلا أبدان ، قال : وبتنا تلك الليلة جياعاً نطلب فتيتاً الى السحور[139] .

كذلك على رب المنزل أن لا يعمد إلى رفع الألوان قبل تمكن الضيوف من الاستيفاء حتى يرفعوا أيديهم عنها . حكي عن الستوري وكان صوفياً مزاحاً فحضر عند واحد من أبناء الدنيا على مائدة فقدَّم اليهم حمل ـ وكان في صاحب المائدة بخل ـ فلما رأى القوم مزقوا الحمل كل ممزَّق ضاق صدره وقال : يا غلام ارفع الى الصبيان ، فرفع الحمل الى داخل الدار فقام الستوري يعدو خلف الحمل فقيل له : إلى أين ؟ فقال : آكل مع الصبيان فاستحيا الرجل وأمر برد الحمل[140] .

أخيراً من آداب إحضار الطعام أن يُقدَّم من الطعام قدر الكفاية ، فإن التقليل عن الكفاية نقص في المروءة[141] . كذلك فالزيادة تصنع ومراءاة لا سيما إذا كانت نفسه (رب المنزل) لا تسمح بأن يأكلوا الكل . لكن السلف أجمعوا على استحسان الإكثار في تقديم الأطعمة فقد أحضر ابراهيم بن أدهم طعاماً كثيراً على مائدته فقال له سفيان : يا أبا إسحق أما تخاف أن يكون هذا سرفاً ؟ فقال ابراهيم : ليس في الطعام سرف[142] . وهذا بخلاف ما حكاه الجاحظ عن أحد بخلائه عندما حضر مائدته هو وأبو اسحق ابراهيم بن سيار النظام ، وقطرب النحوي[143] وأبو الفتح مؤدِّبُ منصور بن زياد ، والخوان من جزعة[144] ، والغضار[145] صيني ملمَّع « والألوان شهية وغذية قدِيَّة ، وكل رغيف في بياض الفضة ، كأنه البدر وكأنه مرآة مجلوة ، ولكنه على قَدَر عدد الرؤوس ، فأكل كل إنسان رغيفه إلا كِسرة . ولم يشبعوا فيرفعوا أيديَهم . ولم يُمدّوا بشيء فيُتمّوا أكلهم ، والأيدي مُعلقة . وإنما هم في تنقير وتنتيف .

---

(139) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 17

(140) نفس المصدر .

(141) نفس المصدر .

(142) نفس المصدر .

(143) قطرب النحوي : هو أبو علي محمد بن المستنير نحوي لغوي من أهل البصرة .

(144) الجزعة : قطعة من خشب .

(145) صحفة من الخزف .

فلما طال ذلك عليهم ، أقبل الرجل على أبي الفتح ، وتحت القصعة رقاقة ، فقال : يا أبا الفتح خذ ذلك الرغيف فقطّعه واقسِمْه على أصحابنا . فتغافل أبو الفتح . ثم أعاد عليه القول ، فتغافل . فلما أعاد عليه القول الرابعة قال : مالك ويلك لا تقطّعه بينهم ؟ قطع الله أوصالك ! قال : تُبتلى على يدي غيري أصلحك الله ! فخجلناه مرة ، وضحكنا مرة ، وما ضحك صاحبنا ولا خجل(146) .

وقد هجا العرب بأوصاف بالغة البخيل الذي يعمد الى التقليل من الطعام على مائدته وخاصة الخبز ، أو لعل في منع الخبز رمزاً للبخل عامة فقد ذكر ابن قتيبة لأحد الشعراء شعراً يهجو به أحد البخلاء :

استبقِ ودَّ أبي المقا	تل حين تأكل من طعامه
سِيَّانِ كسر رغيفه	أو كسر عظم من عظامِهْ
فتراه من خوف النزيـ	ـل به يُرَوَّع في منامهْ(147)
فإذا مررت ببابه	فاحفظ رغيفك من غلامه(147)

ج ـ آداب الانصراف

أول آداب الانصراف عند الغزالي أن يخرج صاحب الدار مع ضيفه الى الباب وذلك من إكرام الضيف وقد أمر الرسول ﷺ باكرامه وتشييعه الى الباب وعدّ ذلك من سنته لقوله : « إن من سُنَّةَ الضيف أن يشيع الى باب الدار » . وعندما قدم وفد النجاشي على الرسول قام يخدمهم بنفسه فقال له بعض أصحابه : « نحن نكفيك يا رسول الله » فقال : « كلا إنهم كانوا لأصحابي مكرِمين وأنا أحب أن أُكافئهم »(148) .

كذلك يجب في كل الأحوال أن ينصرف الضيف طيب النفس وإن جرى في حقه تقصير ، فذلك من حُسن الخلق والتواضع ، وقد اشتهر بحسن الخلق والتواضع في إكرام الضيف عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر فقد حدث عنه بلال بن أبي بردة وكان أميراً على البصرة قال : « كنا نأتيه فنجده متصبحاً ـ يعني نائماً ـ فنجلس حتى يستيقظ ، فيأذن لنا فنساقطه الحديث ، فإن حدثناه أحسن الاستماع ، وإن حدَّثنا أحسن الحديث ، ثم يدعو بمائدته ، ثم يُقبل خبازُه فيمثل بين يديه ، فيقول : ما عندك اليوم ؟ فيقول : عندي كذا . . . عندي كذا . . . فيُعدّد كل ما عنده ، ويصفه ، يريد بذلك أن يحبس كلُّ رجل نفسه وشهوته على ما يريد من الطعام ، وتُقبل الالطافُ

(146) الجاحظ ، البخلاء ، ج 2 ، ص 79-80
(147) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج 3 ، ص 246
(148) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 17

من ههنا وههنا ، وتوضع على المائدة . . . فنأكل معه ، حتى إذا ظن أن القوم قد كادوا يمتلئون ، جثا على ركبتيه ثم استأنف الأكل معهم(149) .

وقال مرة لأعرابي : ما تقول يا أعرابي لو أمرت الطباخ فعمل لـون كذا ، ولـون كذا ؟ قال : أصلحك الله لو كانت هذه الصنعة في القرآن لكانت موضع سجود(149ب) . فهكـذا كان يخـرج القوم من عنـده وقد طـابت أنفسهـم لحسن ضيافتـه وحسن حديثـه ومراعاته لأذواق جلسائه . فلا يجدر بالداعي أن يقيسه على مدعويه لبـذله لهم وتكلفـه أمامهم ، بل عليه أن يلزم التواضع في كل حال وعلى رأس التواضع أن يكـرم الضيف فيشيعه الى باب الدار تفخيماً وتعزيزاً له وأن يخرج طيب النفس راضي البال .

هذا فيما يختص برب الدار ، أمـا الضيف فعليه أن لا يخـرج إلا برضـا صاحب المنزل وإذنه وعليه أن يراعي قلبه في قدر الإقامة . فلا يزيد في ضيافته على ثـلاثة أيـام فلربما تبرم المضيف واحتاج الى إخراجه وعن الرسول قوله : الضيافة ثلاثة أيام فـما زاد فصدقة »(150) . لكن إذا تيقن الضيف من إخلاص مضيفه في استبقائه فلا بأس عليه في ذلك .

5 ـ آداب ومناهي طبية وشرعية متفرقة

في هذا الفصل يتناول الغزالي آداباً متفرقة لا جامع بينها ولا يقطع فيها برأي حازم وخاصة ما كان منها معلق بالمسائل الطبية أو بعض المسـائل المختلف فيهـا كالأكـل في السوق . فقد نقل عن ابراهيم النخعي أنه قال: « الأكل في السوق دناءة »(151) وأسند هذا الحديث الى الرسول . وقد نقل قول آخر مضاد لهـذا عن ابن عمر منسـوباً للرسـول : « كنا نأكل عهد رسول الله ﷺ ونحن نمشي ونشرب ونحن قيام(152) » . ويرى الغزالي أن هذا الأمر يتعلق باختلاف عادات البلاد وأحوال الأشخاص فمن لا يليق ذلـك بسائـر أعماله حُمل ذلك على قلة المروءة وفرط الشره . . . ومن يليق ذلك بجميع أحواله وأعماله في ترك التكلف كان ذلك منه تواضعاً(153) . كذلك ينصح الغزالي بأن لا يخرج المرء من بيته جائعاً لئلا يذهب حلمه وهذا يقلّل شهوته لما يـرى في السوق . ويـرى الغزالي أن التـأنق في المآكـل يورث السمنـة ، قال حكيم لسمـين : أرى عليك قـطيفة من نسـج

(149 أ) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج 8 ، ص 6

(150) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 18 . وهذا الحديث متفق عليه من حديث ابي شريح الخزاعي .

(151) أخرج هذا الحديث الطبراني من حديث أبي أمامة وهو ضعيف ورواه ابن عدي في الكامل من حديثه وحديث أبي هريرة . وذكر ابن عبد ربه هذا الحديث مسوباً للرسول في العقد الفريد ، ج 8 ، ص 8

(152) هذا الحديث أخرجه الترمذي وابن ماجة .

(153) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 18

أضراسك فمِمَّ هي : قال من أكل لُباب البر وصغار المعز وأدهن بجام[154] بنفسج وألبس الكتان[155] . كذلك فإن الكسل والدعة يورثان السمنة ، لذلك يُنصح بالمشي بعد الأكل بالليل ولو مائة خطوة[156] ، وقيل في ذلك لسمين ، ما أسمنك : فقال : قلة الفكرة ، وطول الدعة ، والنوم على الكظة . وقال الحجاج للغضبان بن القبعثري في حبسه : ما أسمنك . . ؟! قال : القيدُ والدَّعةُ ، ومن كان في ضيافة الأمير سمن[157] .

وينقل الغزالي أخيراً عن الشافعي نصائح ومناهي في الأكل منها أن « الأكل على أربعة أنحاء : الأكل بأصبع من المقت ، وبأصبعين من الكِبر ، وبثلاث أصابع من السُّنة وبأربع أو خمس من الشره . وأربعة أشياء تقوي البدن : أكل اللحم وشم الطيب وكثرة الغسل من غير جماع ولبس الكتان . وأربعة توهن البدن : كثرة الجماع وكثرة الهم وكثرة شرب الماء على الريق وكثرة أكل الحموضة[158] .

ويوصي الغزالي بالحمية فإن تركها يضر المريض كما أن الأخذ بها يضر الصحيح ونلاحظ أن طبيب العرب الحارث بن كلدة الثقفي أجمل وفصل القول في صحة البدن عندما مثل بين يدي كسرى أنو شروان الفارسي بالابتعاد عن الشره والكظة وما كانت تعتبره العرب أطعمة غليظة فهو يرى أن أصل الطب : ضبط الشفتين ، والرفق باليدين ، ويرى أن الداء الدوي هو : إدخال الطعام على الطعام . وعندما سُئل عن الجمرة التي تُلَهِّبُ منها الأدواء قال : هي التُخمة ، إن بقيت في الجوف قتلت ، وإن تحلَّلت أسقمت . وعندما سُئل عن شرب الدواء قال : اجتنب الدواء ما لزمتك الصحة ، فإذا أحسست بحركة الداء فاحسمه بما يردعه ، وقال في أكل اللحم أن المفضل منه : الضأن الفتي . . . وأوصى باجتناب القديد المالح والمعز والبقر . وأوصى بأكل الفاكهة في إقبالها وتركها في إدبارها وأفضل الفاكهة عنده الرمان والاترجّ . وأفضل البقول الهندبا والخس ، وأفضل الرياحين الورد والبنفسج . . .

6 ـ الاختلاف في الشراب ورأي الغزالي فيه

لم يتحدث الغزالي بالطبع عن آداب الشراب ، لأن الشراب حرام وتركه فرض ،

---

(154) العبارة غير واضحة ولعلها محرفة ، وفي (عيون الأخبار ، ج 3 ، ص 271) . بحمام والعبارة أيضاً غير واضحة ولعلها « بحم البنفسج » والحم : ما أُذيبت إهالته ، والمراد به دهن البنفسج وهو زيته الذي يُستخرج منه .

(155) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 19 . وابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج 3 ، ص 271

(156) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 19

(157) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج 3 ، ص 224-225

(158) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 20

ويـذهب الى حد تحـريم حضور مجلس من يتعـاطى شـرب الخمـر وان كـان مـع تـرك الشرب ، لأنه لا يجوز مجالسة الفاسق في حالة مباشرته للفسق . . . ويذهب الى القول بوجوب منع الصبي من شرب الخمر ـ لا لكونه مكلّـفاً ، لكن لأنه قد يأنس به . فإذا بلغ عسر عليه الصبر عنه(159) . إلا أن تحريم كافة أنواع الخمر مسألة وقع فيها الاختلاف ولا بد من إلقاء نظرة متأنية لمعرفـة دقائقهـا . فالتـاريخ الاسـلامي حفظ لنا سجـلاً لا يستهان به من كبار الخلفاء والقواد والقضاة وذوي المناصب الشرعية والمناصب الـرفيعة ممن تعاطوا شرب الخمر ولهم فيها مجالس ومنادمات وأشعـار وطرف ونـوادر . فالـوزير المهلبي مثلاً (وكان وزيراً لمعز الدولة) وكان من ارتفاع القـدر واتساع الصـدر ، ونبل الهمة ، وفيض الكيف وكرم الشيمة ويحضر مجلسـه مشايـخ وقضاة ومنهم القـاضي ابن فريعة(160) ، وكانوا في مجـالس الخمر والغنـاء يطرّحـون الحشمة ويتبسـطون في القصف والخلاعة . ونادراً ما تجد خليفة أموياً كان أو عباسياً لم يتعاطى شـرب الخمر فيـزيد بن معاوية (ت سنة 64 هـ) كان صاحب طرب وجوارح وكلاب وقرود وفهود ومنادمة على الشراب وجلس ذات يوم على شرابه ، وعن يمينه ابن زياد ، وذلك بعد قتل الحسين ، فأقبل على ساقيه فقال :

اسـقني شَـربـة تَـروي مُـشـاسـي	ثـم مـل فـاسـق مـثـلهـا ابـن زيـادِ
صـاحـب الـسـر والأمـانـة عـنـدي	ولتسـديـد مغنمـي وجـهـادي(161)

ويذكر المسعـودي أيضاً أنـه في أيام يـزيد ظهـر الغناء بمكـة والمدينـة واستعملت الملاهي(162) . والخليفة يزيد بن عبد الملك عذله مسلمة بن عبد الملك لما عمّ الناس من الظلم والجور ، باحتجابه وإقباله على الشراب واللهو(163) . كذلك كان الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك (قتل سنة 126 هـ) صاحب شراب ولهو وطرب وسماع للغناء وهو أول من حمـل المغنـين من البلدان اليـه وجـالس الملهـين ، وأظهـر الشـرب والمـلاهي والعزف ، وفي أيامه كان ابن سريج المغني ، ومعبد ، والفريض ، وابن عائشة ، وابن محرز ، وطويس ، ودحمان ، وغلبت عليه شهوة الغناء في أيامه ، وعلى الخاص والعام ، واتخذ القيان ، وكان ماجناً متهتكاً خليعاً . وطرب الوليد لليلتين خلتا من ملكـه وأرق فأنشأ يقول :

(159) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 312

(160) الثعالبي ، يتيمة الدهر ، ج 2 ، ص 226 وما بعدها .

(161) السعودي ، مروج الذهب ، ج 3 ، ص 67

(162) نفس المصدر .

(163) نفس المصدر ، ص 197

طال ليلي وبت أسقى السلافه وأتاني نعيّ من بالرصافه
وأتاني ببردة وقضيب وأتاني بخاتم للخلافه(164)

وإذا كانت هذه حال بعض خلفاء بني أمية القريبي العهد من الخلفاء الراشدين والسلف الصالحين فالأمر بلغ أقصاه عند خلفاء بني العباس وإقبالهم على الشراب والغناء ، ومع أن العامة والخاصة كانت تتكلم في حق شاربي الخمر ، إلا أن هنالك من تعلق بأقوال وأخبار تنمّ عن اختلاف الرأي حول القول بتحريم جميع أنواع الخمر . وسنناقش هذه المسألة لاعتقادنا بأن هؤلاء الخلفاء والقوّاد والقضاة وأصحاب المناصب الرفيعة إنما كانوا يجدون متنفساً لهم في تحليل شرب الخمر .

وقد دار الكثيرون حول الخمر محتجين بأنها لم تحرّم في القرآن الكريم تحريم العين كما حُرّمت عين الخنزير ، وإنما حُرمت لعرَض دخل لها ، فإذا زايلها ذلك العرض عادت حلالاً كما كانت قبل الغليان حلالاً . والمسلمون الذين لم يستطيعوا فراقها ظلوا يدورون حولها على حد تعبير الأحنف بن قيس عندما سُئل عن أي الشراب أطيب ؟ فقال : الخمر . قيل له : وكيف علمتَ ذلك وأنت لم تشربها ؟ قال : إني رأيت من أُحلّت له لا يتعدّاها ، ومن حُرّمت عليه إنما يدور حولها(165) . وقافلة الأشراف الذين عاقروها كما قلنا طويلة وقد حُدّ(166) بعضهم كيزيد بن معاوية ، والوليد بن عقبة بن أبي معيط ، أخو عثمان بن عفان لأمه ، شهد أهل الكوفة عليه أنه صلى الصبح بهم ثلاث ركعات وهو سكران ، ثم التفت إليهم فقال : إن شئتم زدتكم ، فجلده علي بن أبي طالب بين يدي عثمان وفيه يقول الحطيئة :

شهد الحطيئةُ يوم يلقى ربَّهُ أن الوليد أحق بالعذرِ
نادى وقد تمت صلاتهمُ ليزيدهم خيراً ولا يدري
ليزيدهم خيراً ، ولو قبلوا لجمعت بين الشفع والوتر
كبحوا عنانك إذ جريت ولو تركوا عنانك لم تزل تجري(167)

ومن الأشراف الذين حدوا في الخمر عبد الله بن عمر بن الخطاب ، شرب بمصر فحده عمرو بن العاص سراً ؛ فلما قدم على عمر جلده حداً آخر علانية . ومنهم العباس بن علي بن عبد الله بن عباس كان ممن شهر بالشراب ومنادمة الأخطل ، ومنهم قدامة بن

(164) نفس المصدر ، ص 213
(165) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج 8 ، ص 44
(166) نفس المصدر ، ص 55 -56
(167) حد شارب الخمر الجلد ثمانين جلدة .

مظعون ، من أصحاب رسول الله ، جلده عمر بن الخطاب ، وعبد العزيز بن مروان وقد حده عمرو بن سعيد الأشرف . ومن الذين شربوا عبد الملك بن مروان وكان يسمى حمامة المسجد لاجتهاده في العبادة قبل الخلافة ، فلما أفضت اليه الخلافة شرب الطلا ، وقال له سعيد بن المسيب : بلغني يا أمير المؤمنين أنك شربت بعدي الطلا ؟ فقال : أي والله ، وقتلت النفس(168) :

لماذا أقبل المسلمون على الشراب مع واقع التحريم ؟ يقول ابن عبد ربه أن تحريم الخمر (التي هي خمر العنب ، وهي ما غلى وقذف الزبدَ من عصير العنب من غير أن تمسه نار) . مجمع عليه لا اختلاف فيه بين الأئمة والعلماء ، وتحريم النبيذ مختلف فيه بين الأكابر من أصحاب النبي ﷺ والتابعين ، حتى لقد اضطر محمد بن سيرين مع علمه وورعه أن يسأل عبيدة السّلماني عن النبيذ ، فقال له عبيدة : اختلف علينا في النبيذ . وعبيدة ممن أدرك أبا بكر وعمر(169) . ويرى ابن عبد ربه أنه لو كان النبيذ هو الخمر التي حرمها الله في كتابه ، ما اختلف في تحريمه اثنان من الأمة . وابن قتيبة يقول أن الله تعالى حرم الخمر بالكتاب والمسْكرَ بالسنة . فكان فيه فسحة . لأن ما كان محرماً لا يحل فيه كثير أو قليل ، وما كان محرماً بالسنة ففيه فسحة أو بعضه كالقليل من الديباج والحرير يكون في الثوب ، والحرير محرّم بالسنة . ويحتج المحللون للنبيذ بأن الخمر حرّمت تعبداً ، لا لعلة الاسكار ، ولا لأنها رجس ، ولو كان ذلك كذلك لما أحلها الله للأنبياء ولا شربها نوح بعد خروجه من السفينة ولا عيسى ليلة رفع ولا شربها أصحاب محمد ﷺ في صدر الاسلام(170) .

ومن احتجاج المحللين ما رواه مالك بن أنس في موطئه من حديث أبي سعيد الخدري : قدم من سفر فقدم اليه لحم من لحوم الأضاحي ، فقال : ألم يكن رسول الله ﷺ نهاكم عن هذا بعد ثلاثة أيام ، فقالوا : كان بعدك من رسول الله ﷺ فيها أمر . فخرج الى الناس فسألهم ، فأخبروه أن رسول الله ﷺ قال : « كنت نهيتكم عن لحوم الأضاحي بعد ثلاثة أيام ، فكلوا وادّخروا وتصدقوا ؛ وكنت نهيتكم عن الانتباذ في الدباء والمزفّت ، فانتبذوا وكل مسكر حرام . وكنت نهيتكم عن زيارة القبور ، فزوروها ولا تقولوا هجرا » . والحديثان صحيحان ، رواهما مالك بن أنس وأثبتهما في موطئه . ولو كان ما يسكر كثيره يسمى قليله مسكراً ما أباح الرسول منه شيئاً . والدليل على ذلك أن النبي ﷺ شرب من سقاية العباس ، فوجده شديداً ، فقطب بين حاجبيه ، ثم دعا

---

(168) نفس المصدر .

(169) نفس المصدر ، ص 59 -60

(170) نفس المصدر ، ص 65

بذَنوب من ماء زمزم فصبَّ عليه ثم قال : « إذا اغتلمت أشربتكم فاكسروها بالماء » . ولو كان حراماً لأراقه ، ولما صبَّ عليه ماء ثم شربه(171) .

وسئل مالك بن دينار عن النبيذ أحرام هو؟ فقال : انظر ثمن التمر من أين هو ، ولا تسأل عن النبيذ أحلال هو أم حرام . وكان سفيان الثوري يشرب النبيذ الصلب الذي تحمّر منه وجنتاه(172) ، ويذكر أن الحاكم بأمر الله لما عنّ له أن يعيد العمل بأحكام الاسلام الأولى نهى الناس عن شرب النبيذ ، وتشدّد في ذلك ، حتى استطبَّ أبا يعقوب إسحق بن إبراهيم بن أنسطاس ، فأشار عليه بشرب النبيذ ، وذكر له ما فيه من المنافع ، فجنح الى مشورته ، ليتداوى بشربه ، وأغضى عما كان قد أمر به من منع الخمر ، بل استدعى المغنّين وأصحاب الملاهي الى مجلسه ، وشرب على غناهم ، وخلع العذار معهم ، وأحسن إليهم ، ورجع الناس في أمر النبيذ الى ما كانوا عليه من قبل(173) .

والملاحظ أن أهل الكوفة أجمعوا على التحليل لا يختلفون فيه وتلوا قول الله عز وجل : ﴿ قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً قل الله آذن لكم أم على الله تفترون ﴾ سورة يونس ، الآية 59 ، أما المحرمين فحججهم ولا شك أبلغ وأسطع فهم يعتبرون أن ما أسكر كثيره من الشراب فقليله حرام . . . ولم يفرق المحرمون بين ما طُبخ وما أُنقع وقضوا بأنه حرام ، ورفعوا حديثاً الى رسول الله يقول فيه : « كل مسكر حرام وكل مسكر خمر(174) » . والشاهد عندهم على تحريمها انها انما حرِّمت لإسكارها وجناياتها على شاربها ، ولأنها رجس كما قال الله تعالى . والحجج المألوفة هي تعداد آفات الخمر كالصد عن ذكر الله واحتجوا بأنه ليس بين شارب المسكر وموافقة السكر حدٌ ينتهى إليه ولا يوقَف عنده ، ولا يعلم شارب المُسكِر متى يسكرَ . كما لا يعلم المرء متى يرقد . وقد وجه عمر بن عبد العزيز رسالة الى أهل الأمصار يحرم فيه النبيذ . وقال في رسالته أن البعض يصيبون من هذا الشراب ويقولون : شربنا طلاء فلا بأس علينا في شربه ، ولعمري فيما قرّب مما حرَّم الله بأساً وان في الأشربة التي أحلّ الله ، من العسل والسويق ، والنبيذ والتمر ، لمندوحة عن الأشربة الحرام . . . وينتهي عمر ابن عبد العزيز الى القول بأن رسول الله نهى عن شرب ما جعل في الجرار والدُّباء

---

(171) نفس المصدر ، ص 71

(172) نفس المصدر ، ص 74

(173) آدم متز ، الحضارة الاسلامية ، ج 2 ، ص 247 نقلاً عن تاريخ يحيى بن سعيد الا طاكي مخطوط رقم 291 بالمكتبة الأهلية بباريس ص 118 أ .

(174) روى هذا الحديث عبد الله بن قتيبة عن محمد بن خالد بن خداش عن أبيه عن حماد بن زيد عن أيوب عن نافع عن ابن عمر .

والظروف المزّفتة(175) . . . . وواضح هنا أن رسالة عمر لا تأخذ بما رواه أنس وما أثر عن ابن مسعود بل إنه يرى بأن النبيذ حرام لأنه مسكر وكل مسكر حرام . ننتهي من هذا العرض الى القول بأن أمر بعض الأشربة التي تخمر لم يكن متفقاً عليها كلها بخلاف خمر العنب الذي لم تمسه نار . وإن الجدال دار حول نسبة المُسكر في الخمر وبما أن الخمرة لم تحرم كما حرمت الميتة والدم ولحم الخنزير فقد ظل البعض يقولون أن فيها منافع للناس بدليل قوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ﴾ سورة البقرة ، الآية 219 ، إلا أننا نلاحظ اليوم أن الأخذ برأي المحرمين هو السائد ومن يدور حول الخمرة حسب تعريف الأحنف بن قيس إنما يشهد على نفسه ، بتناول المحرمات ويبقى طامعاً في نهاية الأمر بالتوبة والغفران .

7 ـ خلاصة وحكم :

يظهر مما تقدم أن الغزالي كان يسترشد بالمثالية في التعامل بين البشر بأمورهم العملية ، مستنداً في ذلك الى الشريعة الاسلامية ، ولا بد من الإشارة الى أن النواهي التي حذر منها والفضائل التي دعا اليها إنما تدلّ دلالة واضحة على استشراء هذه النواهي من جهة واضمحلال الفضائل من جهة أخرى وهذا يدخل أساساً في أسباب تأليفه لكتاب الاحياء ، والمعروف أن المجتمع العربي كان ـ وما زال في كثير من جوانبه ـ مجتمعاً يقبل على الملذات الحسية ، والاسلام يدعو الى التمتع بالطيبات والحلال ، لذلك يمكن اعتبار آداب الطعام عند الغزالي دعوة مثالية طوباوية ، فالعرب تفننوا منذ القديم في فنون الطعام وأقبلوا على الطيب منها . والشره والنهم يكادان أن يكونا ملازمين لحياة الأعراب ، والأخبار في ذلك كثيرة ، ويعتبر كتاب البخلاء للجاحظ وعيون الأخبار لابن قتيبة خير شاهدين على تهالك الأعراب على ملذات الأطعمة والاكثار منها . وقد عيرت بنو أسد بأكل الكلاب ويقول في ذلك الفرزدق :

إذا أسدي جاع يوماً ببلدة ... وكان سميناً كلبُه فهو آكلُه(176)

ويحكي ابن قتيبة أيضاً عن أعرابي سقط بعيره فنحره وأكله وقال :

إن السعيد من يموت جمله ... يشبع لحماً ويقل عمله(177)

والتهالك على الطعام كما سبق وأسلفنا لم يكن فقط من رذائل العامة بل كان

---

(175) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج 28 ص 64
(176) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج 3 ، ص 212
(177) نفس المصدر ، ص 213

ملتصقاً بالخلفاء والعظماء أكثر منه في عامة الناس فقد قال عبد الرحمن بن أبي بكرة (من أعيان التابعين) لما شهد لقم عبد الرحمن على خوان أبيه معاوية : ما فعل ابنك التلقامة ؟ قال : اعتلّ . قال : مثله لا يعدم العلّة[178] . أما إذا كان الغزالي يقصد التأديب بآداب الطعام التي تبعد الانسان عن حد الحيوانية فإن ما ذكره يعتبر ذا أهمية بالغة وهو بالفعل قدم ما يمكن اعتباره إرشادات تصلح لكل عصر ومصر . إلا أن القول بأن المسلم عليه أن يسترشد في قوته وطعامه سبيل الله في كل حين فهذا ما لا نعتقد بأن أحداً في عصرنا اليوم يأخذ به ، لا أحد يشبع ويفطن الى جوع غيره ، وظلت صيحة الأصمعي دون مجيب عندما قال أن « أقواماً لبسوا المطارف العتاق ، والعمائم الرقاق ، وأوسعوا دورهم ، وضيقوا قبورهم ، وأسمنوا دوابهم ، وهزّلوا دينهم ، طعام أحدهم غصب ، وخادمه سُخرة ، يتّكىء على شماله ، ويأكل من غير ماله ، حتى إذا أدركته الكِظّة قال : يا جارية هاتي حاطوماً !ويلك هل تحطم الا دينك » أين مساكينك ؟ أين قياماك ؟ أين ما أمرك الله به ! أين أين ؟ ![179] . أو أننا ما زلنا كما قال الشاعر :

وضيف عمرٍو وعمرٌو ساهران معاً فذاك من كِظّة والضيف من جوعِ[180]

أما دعوة الغزالي في أكثر من مجال الى ترك الاسراف وعدم التكلف وذم الشبع وبيان فضيلة الجوع فهذا يعكس على ما يبدو ضنك العيش وقلة الرزق في كثير من الأحيان . والشاهد على ذلك ما كرره الجاحظ في أكثر من موضع أنّ دافع البخلاء وحرصهم على مالهم كان خوفهم من الفقر ومكابدتهم للجوع والحاجة . وقد اعتذر هو نفسه عندما ذكر أن أناساً عابوا أهل المازح والمدير بأمور: منها أن خشكنانهم[181] من دقيق شعير ، وحشوه ، الذي فيه من الجوز والسكر من دقيق خشكار .

وأهل المازح لا يعرفون بالبخل ، ولكنهم أسوأ الناس حالاً . فتقديرهم على قدر عيشهم[182] .

يبقى عندنا أن الطعام بعد حوالي عشرة قرون من كتابة احياء علوم الدين لا يستعمل إلا للدنيا وأكاد أن أقول لا يوجد ذلك الانسان الذي قال عنه الغزالي أنه لا يأخذ من قوته إلا ما يعينه على عبادة الله والتوجه كلية نحوه .

---

(178) الجاحظ ، البخلاء ، ص 218

(179) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج 3 ، ص 220

(180) نفس المصدر ، ص 261 وفي نهاية الارب (ج 3 ، ص 320 طبعة اولى) ينسب هذا البيت لبشار بن برد .

(181) الخشكنان : شيء كالكعك .

(182) الجاحظ ، البخلاء ، ص 173

أما الضيافة عند العرب فهي مسألة بلغت من التعقيد مبلغاً . والضيافة ذات قيمة عالية جداً في نمط الفضائل عند العربي . ولا يمكن التحدث عنها بسهولة ويسر كما يحلو للبعض تصويرها . إنها ليست فطرة فُطر عليها البدوي ، وليست علماً وفضلاً تعلمهما بالكسب ، ليست عزاءً لوحدته ، وليست وليدة ظروف الصحراء القاسية ، إنها قد تكون شيئاً من هذا ، وأشياء أخرى بحاجة إلى مزيد من التقصي والفهم . لكنها ليست بالطبع كما صورها « لامنس » نزوة تنزل بالبدوي الأناني على حين غرة ، عندما تجود السماء بأمطارها فيقبع في وحدته وتتضاعف مواشيه ، فيتذكر حفيد اسماعيل عندئذٍ مفاخر جده ابراهيم ويتحول فجأة إلى سيد شريف يمارس بنبل واجب الضيافة ، وخاصة عندما يكون بجانبه أحد الشعراء(183) . هكذا لا نستطيع أن نمسخ ظاهرة الضيافة عند العربي بهذا الشكل . إنها مركب معقد وهي رأس الفضائل عند العربي ولطالما جاهد للحفاظ عليها ، وقد لاحظنا أن الغزالي جعلها من فرائض المسلم حتى وصل الأمر عند أبي هريرة أن يقول : إذا نزلت برجل ولم يقرك فقاتله(184) .

---

(183) H. Lammens, L, Islam, Croyances et institutions. Im. Catholique, 3ᵉ ed. Beyrouth 1943, p. 15.

(184) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج 3 ، ص 234

الفصل الثاني

آداب الزواج عند الغزالي

تمهيد

إن آداب الزواج (أو النكاح) عند الغزالي هي من الآداب الهامة للاستعانة على التوجه نحو الخالق . والزواج عنده من بدائع ألطاف الباري عزّ وجلّ ، وما تسليط الشهوة على الخلق إلا بدافع استمرار النسل والحياة ، أما تعظيم الأنساب وتقديرها عند الباري فهي وسيلة للزجر عن الفاحشة والنهي عن السِفاح والأمر والندب الى النكاح ، وسنرى بالتفصيل الآداب التي سيحُث الغزالي المؤمنين للأخذ بها مسترشداً في ذلك كعادته بالقرآن والسنة ، ويبدو لي أن هاجسين اثنين يحكمان توجهاته الاجتماعية المثالية هذه :

1 ـ يسعى الغزالي في مختلف الآفات التي نهى عنها والواجبات التي دعى اليها بالإضافة الى إحياء السنة والسير حسب الشريعة الى الدعوة الى الرأفة والرحمة بالنساء ، ويدعو الرجال في مجتمع تسوده علاقات السيادة المطلقة للذكر على الأنثى الى حسن الخلق مع النساء واحتمال الأذى منهن وذلك ترحماً عليهن لقصور عقلهن[1] . والنساء حسب حديث نبوي عوان ـ أي أسراء . في أيدي الرجال لذلك دعا الى الرأفة بهن بقوله : «الله الله في النساء فإنهن عوان في أيديكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهنَّ بكلمة الله »[2] .

---

(1) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 40

(2) الحديث أخرجه النسائي في الكبرى ، وابن ماجه من حديث أم سلمة أن النبي ﷺ وهو في الموت جعل يقول : « الصلاة وما ملكت أيمانكم » أما الوصية بالنساء فالمعروف أن ذلك كان في حجة الوداع . رواه مسلم من حديث جابر الطويل « اتقوا الله في النساء . . » .

2 ـ وإذا كانت الرحمة سنة وواجبة فالهاجس الأكبر يبقى الحذر من النساء ، ومراعاة السيادة المطلقة للرجل في جميع المجالات ، لأن حق الرجل أن يكون متبوعاً لا تابعاً ، وقد سمى الله الرجال قوّامين على النساء وسمى الرجل سيداً وذلك بقوله تعالى : ﴿ وألفَيا سيدها لدى الباب ﴾ سورة يوسف ، الآية 25 . وقد دعا الشافعي الى أخذهن بالشدة وإهانتهن حتى أنه قال : « ثلاثة إن أكرمتهم أهانوك وإن أهنتهم أكرموك : المرأة والخادم والنبطي(3) » . وأمثال العرب وأخلاقهم وعاداتهم تحض بالجملة على إهانة المرأة والحذر منها والحط من قيمتها حتى نقل عن النبي قوله : « مثل الصالحة في النساء كمثل الغراب الأعصم بين مائة غراب »(4) . والأعصم يعني الأبيض البطن . والتفاوت في حظوظ المرأة والرجل في الاسلام مكرس بالقرآن والسنة . ومن غريب ما أوصى به الشاعر الحطيئة عندما سئل عن ماله بقوله : « للأنثى من ولدي مثل حظ الذكر ، قالوا : ليس هكذا قضى الله عزّ وجلّ لهن : قال : لكني هكذا قضيت »(5) . ذلك أن القرآن كما هو معروف جعل حظ الرجل في الميراث كحظ الأنثيين ، ولعل أقسى قول قيل في حق المرأة ما قاله عمر بن الخطاب لامرأته عندما راجعته (في الكلام) بقوله لها : ما أنت إلا لعبة في جانب البيت إن كانت اليك حاجة وإلا جلست كما أنت(5 ب) . ومما لا شك فيه أن نظام الجواري في المجتمع العربي الاسلامي زاد الأمر سوءاً على سوء . فنافست السراري الحرائر في استمالة قلوب الرجال . وزاد هذا الأمر في صلف الرجال وزهدهم وذلك لتملكهم الإماء والحرائر معاً . وكان من الطبيعي أن يبقى عند الرجل شيء من الاحترام والحظوة للنساء الحرائر وذلك لِكِبر وعِزةٍ وأنفةٍ ورثنها في خدر آبائهن . وقد حفظ التاريخ صفحات من مواقف وقفتها نساء عربيات أثبتن من خلالها جدارتهن في فهم الحياة والأمور العامة وتذوق الأدب وإملاء النصائح ورد المعتدي وإبداء الرأي في موضعه ، ولعل في موقف أم البنين بنت عبد العزيز وابنة عم الوليد بن عبد الملك مع الحجاج بن يوسف أبلغ شاهد على ذكاء المرأة العربية وحسن أخلاقها وعلو مقامها ، فعندما وفد الحجاج بن يوسف على الوليد بن عبد الملك ، دخل عليه وهو متسلح بدرع وكنانة وقوس عربية وكان الوليد جالساً في غلالة . فبينما هو يحادثه إذ جاءت جارية فسارَّت الوليد ومضت ثم عادت فسارّته ثم انصرفت ، فقال الوليد للحجاج : أتدري ما قالت يا أبا محمد ؟ قال لا والله ، قال : بعثتها إليّ ابنة عمي أم البنين بنت عبد العزيز تقول : ما مجالستُك لهذا الأعرابي المتسلح في السلاح وأنت في

(3) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 42

(4) روى هذا الحديث الطبراني من حديث ابن أمامة بسند ضعيف ، كذلك رواه النسائي في السنن الكبرى .

(5) أبو الفرج الأصبهاني ، الأغاني ، طبعة مؤسسة جمال للطباعة والنشر ، بيروت د. ت. نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ، ج 2 ، ص 197

غلالة ؟ فأرسلت إليها إنه الحجاج . فراعها ذلك وقالت : والله ما أحب أن يخلو بك وقد قتل الخلق . فقال الحجاج : يا أمير المؤمنين ، دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول ، فإنما المرأة ريحانة وليست بقهرمانة ، فلا تطلعهن على سرك ، ولا مكايدة عدوك ، ولا تطعهن في غير أنفسهن ، ولا تشغلهن بأكثر من زينتهن ، وإياك ومشاورتهن في الأمور فإن رأيهم الى أَفْنٍ(6) وعزمهنّ الى وهن ، وأكفف عليهن من أبصارهن بحجبك ، ولا تملك الواحدة منهن من الأمور ما يجوز نفسها ، ولا تطمعها أن تشفع عندك لغيرها ، ولا تطل الجلوس معهن والخلوة بهن ، فذلك أوفر لعقلك وأبين لفضلك(7) .

هذه وصية الحجاج وهي بحق تختصر النظرة السائدة في ذلك العصر وما تلاه الى المرأة . فالمرأة عليها الاعتناء بزينتها والكف عن النظر في ما جاوز نفسها أو هي كما قال الامام علي بن أبي طالب للأشتر عندما سأله عن أهله بقوله : كخير امرأة ، قُبّاء جُبّاء(8) ، قال : وهل يريد الرجال من النساء غير ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال : لا ، حتى تُدفىء الضجيع ، وتروي الرضيع(9) . قلنا أن هذه هي النظرة الى المرأة أن تهتم بزينتها لرجلها ولا تشغلَنَّ نفسها بأكثر من ذلك ، أما أم البنين فعندما علمت بمقالة الحجاج طلبت من الوليد أن يأمر الحجاج بالتسليم عليها ، فطلب الحجاج إعفاءه ، فقال له : لا بد من ذلك ، فلما قدم اليها حجبته طويلاً ثم أذنت له فأقرته قائماً ، ولم تأذن له في الجلوس ، ثم قالت : ايه يا حجّاج ، أنت الممتنُّ على أمير المؤمنين بقتل ابن الزبير وابن الأشعث(10) . أما والله لولا أن الله جعلك أهون خلقه ما ابتلاك برمي الكعبة ، ولا بقتل ابن ذات النطاقين(11) ، وأول مولود ولد في الاسلام ، وأما ابن الأشعث فقد والله والى عليك الهزائم ،حتى لُذت بأمير المؤمنين عبد الملك فأغاثك بأهل الشام وأنت في أضيق من القرن ،فأظَلّتك رماحهم ،وأنجاك كفاحهم ،وطالما نفض نساء أمير المؤمنين المسك من غدائرهن وبعنه في الأسواق في أرزاق البعوث اليك ، ولولا

---

(6) أفِنَ أفناً : ضعف رأيه ، وأفَنَ الله فلاناً : انتزع عقله .

(7) المسعودي ، مروج الذهب ، ج 3 ، ص 158

(8) تقبّب القبة دخلها ، والمقصود هنا أن المرأة داخل قبتها ، وجباء تقال للذكر والأنثى أي جبان .

(9) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج 2 ، ص 81

(10) قتل عبد الله بن الزبير سنة 73 هـ في مكة على يد الحجاج وصلب فيها وقتل عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث سنة 82 هـ وقد أتي برأسه الى الحجاج (راجع مروج الذهب المسعودي، ج 3 ، ص 114 وما بعدها) .

(11) ابن ذات النطاقين هو عبد الله بن الزبير وقد ناداه بهذا الاسم رجال الحجاج عندما دخلوا عليه وقد التجأ إلى البيت وهم ينادون : يا ابن ذات النطاقين ، فقال ابن الزبير متمثلاً :

وعيّرها الواشون أني أحبها وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

(مروج الذهب للمسعودي ، ج 3 ، ص 114) .

ذلـك لكنت أذل من النَّقد[12] ، وأمـا ما أشـرت به عـلى أمير المؤمنـين من ترك لـذاتـه والامتناع من بلوغ أوطاره من نسائه فإن كنَّ ينفرجن عن مثل ما انفرجت به عنك أمك فما أحقه بالأخذ عنك والقبول منك ، وان كن ينفرجن عن مثل أمير المؤمنين فإنـه غير قابل منك ولا مصغ إلى نصيحتـك . . . ثم قالت لجواريها أخرجنه عني . فدخل الى الوليد من فوره فقال له : يا أبا محمد مـا كنت فيه ؟ فقـال : والله يا أمـير المؤمنين مـا سكتت حتى كان بطن الأرض أحبُّ إليَّ من ظاهرها[13] .

هذا حديث امرأة لم تحتمل ما أوصى به الحجاج لبنات جنسها ، ولو لم تكن كاملة العقل والمروءة لما تجرأت على الحجاج الـذي حكم العراق عشـرين سنة ، واحصي من قتله صَبْراً[14] سوى من قتل في عساكره وحروبه فوجد مائة وعشرون ألفاً . ومات وفـي حبسه خمسون ألف رجل ، وثلاثون ألف امرأة ، ولم يكن للحبس ستر يستر الناس من الشمس في الصيف ولا من المطر والبرد في الشتاء[15] .

وإذا كان القرآن الكريم قد أمر النساء أن يقرن في بيوتهن (سورة الأحزاب ـ الآية 32) . ودرجت العـادة على أن يُستحسن من المـرأة الخـروج ، فقـد جـاءت التقـاليـد والأعراف الاجتماعية وأهواء الحكـام واجتهادات المجتهـدين لِتُثقل الشـريعة بـأحكام تعسفية صارمة حتى وصل الأمر عند الحاكم بأمر الله في مصر أن يغلو في مـراعاة آداب الشريعة ، فمنع النساء من المشي في الطرقات ، ومنع الاساكفة من عمل خفاف لهن ، وإذا دعت الضرورة الى حضور غاسلة أو قابلة استؤذن في ذلك برُقعة تُرفع اليه ، فيوقّـع عليها الى متولي الشرطة ليسمح بذلك[16] .

صحيـح اليوم كـما بالأمس فـإن العادات الاجتمـاعية والتقـاليد هي التي كـانت تتداخل مع الشريعة لتفرض أحكاماً صارمة حيناً وتسامحاً ليناً حيناً آخر فالواقع مـا زال يشهد أن المجتمع العربي هو مجتمع الذكور السائد برغم تاريخ حافل من الصراعات الاصلاحية التي لا مجال لتفضيلها هنا ـ وسنعمد في الصفحات القادمة الى محاولة حصر الحديث في الآداب المثالية العامة للزواج عند الإمام الغزالي .

---

(12) النَّقَد : جنس من الغنم صغير الأرجل . والواحدة نَقَدَة للذكر والانثى ، ومن الصبيان : القميء الذي لا يكاد يشبُّ .

(13) المسعودي، مروج الذهب ، ج 3 ، ص 160

(14) يقال قُتل صبراً أي حُبس على القتل حتى يُقتل .

(15) نفس المصدر ، ص 166

(16) المقريزي ، كتاب الخطط ، ط بولاق . 1270 هـ ج 2 ، ص 289 . وينقل آدم متـز عن فستنفلد أن هذا المنع حدث في مصر عام 253 هـ 867 م Wustenfeld, Stauhalter ، Aegyptens, II, S. 58 . وراجع آدم متز الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، ج 2 ، ص 176 ، الطبعة العربية .

1 ـ الترغيب في النكاح عند الغزالي

اختلف علماء المسلمين في فضل النكاح حتى وصل الأمر بالبعض الى اعتباره أفضل من التخلي لعبادة الله . ورأى آخرون تفضيل تركه في الزمان المتأخر لأنه لم يعد فضيلة كما كان من قبل إذ « لم تكن الاكساب محظورة وأخلاق النساء مذمومة » . ويعرض الغزالي أسباب الترغيب في النكاح والترغيب عنه ، وهو وإن كان يعرض الشيء ونقيضه في كثير من الأمور إلا أنه في هذا المجال يميل بشكل واضح الى الأخذ بأسباب الترغيب باعتبار النكاح سنة النبي وسلفه . .

أ ـ الترغيب في النكاح في القرآن والأخبار والآثار .

يعود الغزالي إلى القرآن الكريم ، فالله تعالى ندب الى الزواج والنكاح بقوله : ﴿ وانكحوا الأيامى منكم ﴾ سورة النور الآية 32 ، وقال في وصف الرسل ومدحهم ﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية ﴾ سورة الرعد ، الآية 38 . فذكر ذلك في معرض الامتنان وإظهار الفضل . ومدح أولياءه بسؤال ذلك في الدعاء فقال : ﴿ والذي يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ﴾ سورة الفرقان ، الآية 74 .

أما السنة فقد ندبت الى الترغيب في النكاح بأخبار كثيرة وأحاديث صريحة فقد قال رسول الله ﷺ : « النكاح سنتي فمن رغب عن سنتي فقد رغب عني » . وقال : « النكاح سنتي فمن أحب فطرتي فليتسنّ بسنّتي »[17] . وقال أيضاً : « تناكحوا تكثروا فإني أباهي بكم الامم يوم القيامة حتى بالسقط »[18] . وقال : « من ترك التزويج مخافة العيلة فليس منا »[19] . وقال : « من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغضّ للبصر وأحصن للفرج ومن لا فليصُم فإن الصوم وجاء »[20] .

أما الآثار التي تركها السلف في الندب الى النكاح فهي وفيرة أيضاً فالخليفة عمر ابن الخطاب قال: « لا يمنع من النكاح الا عجز أو فجور »[21] . فبيّن أن الدين غير مانع

---

(17) حديث النكاح سنتي . . . . أخرجه أبو يعلي في مسنده مع تقديم وتأخير من حديث ابن عباس .

(18) حديث تناكحوا . . . أخرجه أبو بكر بن مردويه في تفسيره من حديث ابن عمر دون قوله « حتى السقط » . وذكره بهذه الزيادة البيهقي في المعرفة عن الشافعي أنه بلغه

(19) حديث من ترك التزويج . . . رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس وللدرامي في مسنده والبغوي في معجمه وأبي داوود في المراسيل من حديث أبي نجيح .

(20) حديث من استطاع منكم الباءة . . . متفق عليه من حديث ابن مسعود . والباءة المنزل وأباء بالمكان : أقام والمقصود من استطاع القيام بأعباء المنزل ، أما الوجاء فهو رض الخصيتين للفحل حتى تزول فحولته ، فهو مستعار للضعف عن الوقاع في الصوم .

(21) الاحياء ، ص 22

منه وحصر المانع في أمرين مذمومين . وقال ابن عباس : لا يتم نسك الناسك حتى يتزوج . وأراد بذلك أن الناسك لا يسلم قلبه لغلبة الشهوة إلا بالتزويج . وكره بعض الصحابة الموت عزباً . وكان بعضهم يقول : ما أتزوج إلا لأجل الولد . وقد دعا الرسول صحابته الى الزواج حتى على الفقر . وحكي عن بعض العبّاد أنه اعتلّ بالفقر لتركه الزواج فقال له النبي : « أنا أزوجك ابنتي فزوجه النبي عليه السلام ابنته »(22) . أما بشر بن الحارث الذي ترك الزواج وقيل في ذلك لأحمد بن حنبل فأجاب : واين مثل بشر ؟ إنه على مثل حد السنان . ومع ذلك فقد قال بشر أنه رأى في منامه أنه رفع منازل في الجنة وأشرف على مقامات الأنبياء ولم يبلغ منازل المتأهلين . وقيل له ما فعل أبو نصر التمار ؟ فقال : رفع فوقي بسبعين درجة . فقيل له : بماذا فقد كنّا نراك فوقه ؟ قال : بصبره على بنياته والعيال(23) .

وكان علي بن أبي طالب من أزهد أصحاب الرسول وكان له أربع نسوة وسبع عشرة سرية . وقال البعض أن فضل المتأهل على العزب كفضل المجاهد على القاعد . وركعة من متأهل أفضل من سبعين ركعة من عزب .

ولا عجب إن نحن أردنا أن نورد قليلاً من الأخبار والسنن النادبة للتزويج لَما اتسع لنا المجال . لأن المجتمع الذي فرض قيوداً قاسية على المرأة بالإضافة الى وضعها المعيشي وظروف البيئة القاسية واحترام التقاليد السلطوية للذكر على الأنثى رأى من الزواج أمراً مندوباً إليه لأنه ينظم الحياة الجنسية للمجتمع وفق تقاليده المثالية التاريخية ويحفظ بذلك أسس الدين والدنيا بالإضافة للفوائد الطبيعية للزواج كالنسل وتدبير المنزل وكسر الشهوات .

لذلك كان التزويج أمراً سهلاً والاخبار الكثيرة تظهر أن العرب والمسلمين كانوا يفضلون التزويج المبكر للفتاة وكانوا يتساهلون في مقدار المهر ، ذكر الأصبهاني أنه قدِم جُنْدبَ بن عمرو بن حُمَمَة الدَّوْسيُّ المدينة مهاجراً في خلافة عمر بن الخطاب ، ثم مضى الى الشام وخلف ابنته أمَّ أبان عند عمر ، وقال له : يا أمير المؤمنين ، إن وجدت لها كفئاً فزوِّجه بها ولو بشَراك نعله(24) ، وغالباً ما كان البعض يتشدد في أمور الدين عند المتزوج ورجاحة عقله أكثر من التشدد في ماله . فقد قيل لأعرابي : فلان يخطب فلانة ، قال :

---

(22) نفس المصدر .

(23) نفس المصدر .

(24) الاصبهاني ، الأغاني ، ج 1 ، ص 383 -384 . وشراك النعل : سيرها الذي على ظهر القدم ، وهو مثل في القلة .

أموسر من عقل ودين ؟ قالوا : نعم . فقال : زوجوه[25] . ومن الأخبار الحسنة التي تدعو الى تزويج ذا عقل وأدب وتفضيله على مُكثر المال ما حكاه الأصمعي عن رجل كان مُقلاً ، فخطب إليه مُكثر من مال مُقل من عقل ، فشاور فيه رجلاً يقال له أبو يزيد ، فقال : لا تفعل ، ولا تزوج إلا عاقلاً ديّناً ؛ فإنه إن لم يكرمها لم يظلمها . ثم شاور رجلاً آخر يقال له أبو العلاء ، فقال له : زوّجه . فإن ماله لها وحمقه على نفسه . فزوَّجه ، فرأى منه ما يكره في نفسه وابنته[26] . وهذا يدل على أن المال ليس سبباً يتدافع إليه الناس لتزويج بناتهم ، وروى ابن قتيبة أن خالد بن صفوان خطب امرأة فقال : أنا خالد بن صفوان ، والحسب على ما قد علِمتيه ، وكثرة المال على ما قد بلغكِ ، وفيَّ خصال سأبيِّنها لك فتقدمين عليّ أو تدعين ؛ قالت : وما هي ؟ قال : إن الحرّة إذا دنت مني أملّتني ، وإذا تباعدت عني أعلّتني ، ولا سبيل الى درهمي وديناري ، ويأتي عليّ ساعة من الملال لو أن رأسي في يدي نبذته ؛ فقالت : قد فهمنا مقالتك ووعيْنا ما ذكرتَ ، وفيك بحمد الله خصال لا نرضاها لبنات ابليس ، فانصرف رحمك الله[27] .

وهكذا فقد أخذت في أمور الزواج اعتبارات عدة غير المال كالحسب والنسب والأدب والمروءة والدين وحتى الكرم والشجاعة ، ومن الأخبار أن لقيط بن زارة خطب ابنة خالد ذي الجدين الشيباني ، فقال له قيس : ومن أنت : قال : لقيط بن زرارة ، قال : وما حملك أن تخطب اليّ علانية ؟ فقال : لأني عرفت أنّي إن عالنتك لم أفضحك وإن سارَرْتُك لم أخدعك ؛ فقال : كفء كريم ، لا تبيت والله عندي عزباً ولا غريباً . فزوّجه ابنته وساق عنه[28] .

وعندما خطب عمر بن الخطاب أم أبان بنت عتبة بن ربيعة بعد أن مات عنها يزيد ابن أبي سفيان، فقالت : لا يدخل إلا عابساً ولا يخرج إلا عابساً ، يغلق أبوابه ويقلّ خيره . ثم خطبها الزبير ، فقالت : يد له على قروني ويد له في السوط ، وخطبها علي ، فقالت : ليس للنساء منه حظ إلا أن يقعد بين شُعبِهِن الأربع لا يُصِبن منه غيره . وخطبها طلحة فتزوجته ، فدخل عليها علي بن أبي طالب فقال لها : ردَدْت من رددت منا وتزوجت ابن بنت الحضرمي : فقالت : القضاء والقدر ؛ فقال : أما أنك تزوجت أجملنا مَرآة وأجودَنا كفاً وأكثرنا خيراً على أهله[29] .

(25) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج 4 ، ص 11 . وفي العقد الفريد قيل للحسن : فلان خطب البنت فلانة . . . ج 7 ، ص 94

(26) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج 7 ، ص 94

(27) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج 3 ، ص 14

(28) نفس المصدر ، ص 17 وساق عنه : دفع عنه المهر .

(29) نفس المصدر .

ب ـ فوائد النكاح

أولاً ـ الولد :

يرى الغزالي أن الفائدة الأولى من النكاح هي الولد . وهو الأصل وله وُضع النكاح(30) . فالنكاح لم يوجد بسبب الشهوة وإنما خلقت الشهوة كباعثة مستحثة بالفحل في إخراج البذور وبالأنثى في التمكين من الحرث . ويرى الغزالي أن القدرة الإلهية الأزلية غير قاصرة عن اختراع الأشخاص ابتداء من غير حراثة وازدواج ، ولكن الحكمة اقتضت ترتيب المسببات على الأسباب مع الاستغناء عنها إظهاراً للقدرة وإتماماً لعجائب الصنعة(31) . ومعلوم أن معظم المتكلمين الاسلاميين استدلوا على وجود الخالق بالمقارنة بين حكمته وأحكام صنعه وتدبيره . ونقص الانسان واحتياجه في خلقه ونشأته الى خالق بتدبر أمر خلقه والعناية به . وقد دعا المتكلمون الانسان الى التفكر بنقصه . فالأشعري مثلاً يقول في كتابه اللمع . إن سأل سائل فقال : ما الدليل على أن للخلق صانعاً صنعه ومدبراً دبره ؟ قيل الدليل على ذلك أن الإنسان ـ الذي هو في غاية الكمال والتمام ـ كان نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم لحماً وعظماً ودماً . وقد علمنا أنه لم ينقل نفسه من حال الى حال . . . ولا أن يخلق لنفسه جارحة(32) . وهذا ما قصده الغزالي بقوله بأن الخلق إنما كان إظهاراً للقدرة وإتماماً لعجائب الصنعة . كذلك فإن ابن عربي(33) يرى في الإنسان الذي خلق على صورة الإله أكمل مخلوق وأشرفه . ويرى ابن عربي بأن الإنسان شُرّف على بقية المخلوقات وقُدّم عليها ، وله عند ربه جناب عزيز لا يشعر به الانسان نفسه لأنه موضع أسراره ومجلس تجلياته . ودليل ابن عربي على تشريف الانسان خلقه مباشرة بيدي الله ، وسمي بشراً لخلقه مباشرة بيدي الحق سبحانه وتعالى وذلك في قوله تعالى لابليس : ﴿ ما منعك أن تسجد لما خلقت بيديَّ ﴾ سورة ص ، الآية 75 . وإنما قال تعالى هذا القول على جهة التشريف الإلهي فقرينة الحال تدل على مباشرة خلقه بيديه بحسب ما يليق بجلاله فسماه بشراً لذلك(34) . وقد نال آدم هذا الشرف الرفيع لأنه لسان العرب الذي نزل القرآن بلغتهم يشير الى خصوصية الفعل وعلو مكانته إذا قال

---

(30) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 23

((31) نفس المصدر .

(32) الأشعري ، اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع ، تحقيق رتشرد مكارثي اليسوعي ، بيروت 1952 م ، ص 6

(33) هو الصوفي محمد بن علي المعروف بابن عربي (560 -638 هـ / 1165 -1240 م) .

(34) و(35) ابن عربي الفتوحات المكية ، بيروت دار صادر . د.ت. ص 70 . والقرآن يقول في معجزة عيسى عليه السلام : « فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً » سورة مريم الآية 17 . كذلك فقد استفظعت العذراء الحمل بقولها : « قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا ﴾ سورة مريم الآية 20

صاحب اللسان أنه فعل كذا وكذا بيده . وبما أن الله خلق آدم مباشرة فقد سرت هـذه الحقيقة في بنيه « فلم يوجد أحد منهم إلا عن مباشرة ، ألا ترى وجود عيسى عليه السلام لما تمثل لها الروح بشراً سوياً (سورة مريم ، الآية 17) فجعله واسطة بينه تعالى وبين مريم في إيجاد عيسى تنبيهاً على المباشرة بقوله بشراً سوياً »(35) .

وهكذا يكون الخلق عن طريق النكاح من الحكمة الإلهية التي لا يقرأها الا من كانت له بصيرة ربانية نافذة في إدراك دقائق الحكمة الأزلية ، ولذلك عظم الشرع الأمر في القتل للاولاد وفي الوأد لأنه منع لتمام الوجود . وإليه أشار من قال : العزل(36) أحد الوأدين فالناكح ساع في إتمام ما أحب الله تعالى تمامه والمُعرض معطّل ، ومضيِّع لما كره الله ضياعه(37) . واختصار الأمر أن الإنجاب أمر الله وقد ندب اليه وهيأ للإنسان أدواته فعليه أن لا يُعرض عن أمر الله ولا يضيع نسلاً أدام الله وجوده من آدم ﷺ عقباً بعد عقب إلى أن انتهى إليه .

ويرى الغزالي أن الإنجاب سعي في محبة رسول الله ورضاه بتكثير ما بـه مباهاته(38) . وقد صرح رسول الله بذلك . وإذا كان لهذه الفائدة معنى فيما مضى فهي ليست كما كانت عليه لاختلاف الأحوال وتطور المعيشة وثقل كلفة الأولاد . ولضعف حديث المباهاة وغني عن القول أن المجتمعات أصبحت من التعقيد بحيث لا يمكن الأخذ بالقول بأن الخلق إنما يزيدون النسل لرضى الرسول ومباهاته بهم يوم القيامة .

أما أن يبقى بعده ولداً صالحاً يدعو له أو يموت قبله فيكون له شفيعاً (39) ، فالواضح في هذا المجال أن المرء إنما يقصد بالانجاب الاستقواء بولده على دهره. وأن يخلفه ولد صالح يدعو له ويرث ملكه ويقوم مكانه ، أما أن يطمع بأن يكون له ولد يموت قبله فيكون له شفيعاً فهذا لعمري ما لا يتمناه أو يرضاه أحد لبنيه وخاصة أن الأحاديث التي تحكي عن وقوف المولود يوم القيامة على أبواب الجنة ممتلئاً غيظاً وغضباً ويقول : لا أدخل الجنة إلا وأبواي معي . أو نحو ذلك فكلها أحاديث ضعيفة لأن كل طائر ألزم عنقه ولاعتقادي بضعف أحاديث الشفاعة يوم القيامة وانعدام مبرراته .

ثانياً ـ التحصن من الشيطان ، وكسر التوقان ، ودفع غوائل الشهوة(40)

وهذه الفائدة هي التي تدخل في صلب اهتمام الامام الغزالي ، لأنه يرى ان تكون

---

(36) المقصود بالعزل هنا اجتناب حصول الحمل .

(37) الغزالي الاحياء ، ج 2 ، ص 24

(38) و(39) نفس المصدر .

(40) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 26 وما يليها .

كل أفعال الانسان موجّـهة للخالق وإلا كانت في سبيل الدنيا ، والدنيا وزينتهـا مهلكة الانسان والصادة عن سبيل الله . والنكاح تحصين للمسلم عن اتيان الفـواحش ، حتى قال الرسول أنه نصف الدين وقد سبق وتحدثنا في الحث على الزواج أنه في سبيل الابتعاد عن المحـارم وتخلية القلب من الهـواجس والاقبال عـلى عبادة الله بقلب نقي طـاهـر ، والنكاح كاف لصرف سطوة الشهوة . والنكاح وإن كان فيه لذة فإنها لذة ناقصة لسرعة انصرامها ، وإذا فكر الانسان بهذا فإنه لا بد من أن ينصرف لعبادة الله ليفوز يوم الآخرة باللذة الدائمة ، وتحت كل ذلك لطائف حكمة الله ودقائق قدرته الأزلية . وهكذا يكون الزواج عند الغـزالي وسيلة لدفـع غائلة الشهـوة وهذا مهم جـداً للدين لأن الشهوة إذا غلبت ولم تقاومها قوة التقوى جرَّت الى اقتحام الفواحش . ولذلك قيل أنه لا يتم نسك الناسك إلا بالنكاح . وقال قتادة في معنى قوله تعالى : ﴿ ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ﴾ سورة البقرة ، آية 286 . هو الغُلْمَة(41) . وعن عكرمة ومجاهد أنهما قالا في معنى قوله تعالى ﴿ وخلق الانسان ضعيفاً ﴾ سورة النساء ، آية 28 ، أنه لا يصبر عن النساء . ويضيف الغزالي بقوله أن شهوة النساء هي بلية غالبة إذا هاجت لا يقاومها عقل ولا دين ، وهي مع أنها صالحة لأن تكون باعثة على الحياتين كما سبق فهي أقـوى آلة الشيـطان على بني آدم(42) . وينقل الغزالي عن الرسول قوله أنّـه إذا أقبلت المرأة أقبلت بصورة شيـطان . وهو يرى أنه إذا كانت الشهوة كبيرة بحيث لا تحصّـنها امرأة واحدة فيُستحب لصاحبها الزيادة عـلى الواحـدة الى الأربع . وإذا لم يـطمئن قلبه بهن فيستحب لـه الاستبدال . وواضح في هذا المعنى أن الرجال الموجّـه لهم مثل هذا الخطاب هم من الرجال المقبلين على لذاتهم الحسية واعتبارها قيمة ذات نمط عال في فكرهم ومشاعرهم . والأمثلة عـلى ذلك عديدة ، فالمعروف عن الصحابة أجمعين أنهم كانوا رجال زواج من النمط الأول . فالامام علي بن أبي طالب نكح بعد وفاة فاطمة عليها السلام بسبع ليـال . ويحكى عن الحسن أنه كان منكاحاً حتى نكح زيادة على مائتي امرأة . وتزوج المغيرة بن شعبة بثمانين امرأة(44) .

ثالثاً ـ تزويج النفس وإيناسها بالمجالسة والنظر والملاعبة ، وتفـريغ القلب عن تدبير المنزل

يرى الغزالي أن النكاح بما فيه من ترويح للنفس وإيناس لها تقوية له على العبادة .

---

(41) يقال غَلِمَ غَلَماً وغُلْمَةً إذا كان منقاداً للشهوة .

(42) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 27

(43) نفس المصدر .

(44) نفس المصدر .

والاستئناس بالنساء يزيل الكرب ويروح القلب ، لذلك قال الله تعالى : ﴿ ليسكن اليها ﴾ سورة الأعراف ، الآية 189 ، وقال علي : روحوا القلوب ساعة فإنها إذا كرهت عميت . وعن رسول الله أنه قال : « على العاقل أن يكون له ثلاث ساعات : ساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يخلو فيها بمطعمه ومشربه ، فإن هذه الساعة عوناً على تلك الساعات(45) .

وواقع الحال أن مجالسة النساء والإستئناس بهن كانت في كثير من الأحيان المتنفس الوحيد الذي يلجأ إليه المسلم للترويح عن النفس في واقع انعدام أسباب اللهو من جهة والتشريع بتحريم كافة أسباب اللهو الأخرى لما في ذلك من صد عن ذكر الله . لذلك فُضلت الحسناء على الدميمة حتى أنه اشترط في كثير من الأحيان أن ينظر الرجل الى المرأة التي يبغي زواجها لئلا يفاجأ بدمامتها وقُبحها ، وعن عائشة أنها قالت : خطب رسول الله ﷺ امرأة من كلب ، فبعثني انظر اليها ؛ فقال لي : كيف رأيت ؟ فقلت : ما رأيت طائلاً ؛ فقال : « لقد رأيت خالاً بخدها أقشعر كل شعرة منك على حدة » فقالت ما دونك ستر(46) . أما تفريغ القلب عن تدبير المنزل والتكفل بشغل الطبخ والكنس والفرش وتهيئة أسباب المعيشة . فهذا يدخل أيضاً في باب الاستقواء على مشاغل الدنيا والانصراف الى العلم والعمل والتفرغ للآخرة .

2 ـ الترهيب عن النكاح عند الغزالي

آفات النكاح عند الغزالي ثلاث :

أولاً : العجز عن طلب الحلال أو ما نسميه في أيامنا العجز عن القيام بمتطلبات الحياة الزوجية ، ويلمح الغزالي الى أن أحوال عصره اختلفت عن أحوال المسلمين الأوائل فيشير الى « إضطراب المعايش في هذه الأوقات »(47) ، وهكذا يصبح النكاح سبباً في التوسع للطلب وإطعام الأولاد من الحرام ، بعد أن كان من الواجب أن يكون إعانة للعبادة . وإذا اضطربت معيشة الزوج وسعى وراء الحرام فهذا عند الغزالي هلاكه وهلاك أهله ، وخاصة إذا اتبع هوى زوجته وباع آخرته بدنياه . لذلك حضّ العرب والمسلمون على الزواج من المرأة التي تجتهد في حفظ مالها ومال زوجها . نُقل عن الأصمعي قوله : النساء ثلاث : فهيّنةٌ لَيّنة عفيفة مسلمة تعين أهلها على العيش ولا

---

(45) الحديث رواه ابن حيان من حديث أبي ذر في حديث طويل : إن ذلك في صحف ابراهيم .
(46) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج 4 ، ص 19
(47) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 31

تعين العيش على أهلها ، وأخرى وعاء للولد ، وأخـرى « غُلٌ قمِـلٌ »[48] يضعه الله في عنق من يشاء ويفكُّـه عمن يشاء[49] . فكأنه وضع الأولى بإزاء الثالثة ، الأولى هينة لينة تعين الرجل على عيشه والثانية كالغل الذي لا تخلص منه . أما الثالثة فهي مجـرد وعاء للولد . وعن عروة بن الزبير أنه قال : لعن الله فـلانة ، ألِفت بنـي فلان بيضـاً طوالاً فقلبتهم سوداً قصاراً . كأنه يقول بأنها غيّـرت أحوالهم الى أحوال السوء .

ثانياً : الآفة الثانية هي القصور عن القيام بحقهن والصبر على أخلاقهن واحتمال الأذى منهن وهـذه دون الأولى في العموم لأن القـدرة على هـذا أيسـر من القـدرة عـلى الأولى[50] . وروي أن الهارب من عياله بمنزلة الهارب الآبق لا تقبل له صلاة ولا صيام حتى يرجع اليهم ، وذلك لقوله تعالى : ﴿ قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ﴾ سورة التحريم ، الآية 6 . أي على الإنسان أن يقي أهله النار كما يقي نفسه ، فإذا تزوج وكان غير قادر على القيام بحق زوجه وأولاده فهو يبتليهم بالسوء . لذلك اعتذر ابراهيم بن أدهم عن الـزواج بقـولـه : لا أغـر امـرأة ولا حـاجـة لي فيهن . أي القيـام بحقهن وتحصينهن وإمتاعهن . كذلـك اعتذر بشـر (بن الحارث) وقـال : يمنعني من الزواج قـوله تعـالى ﴿ ولهن مثل الذي عليهن ﴾ .

ورؤي سفيان ابن عيينة على باب السلطان فقيل له : ما هذا موقفك ! فقـال : وهل رأيت ذا عيال أفلح ؟[51] .

ثالثاً : أما الآفة الثالثة فهي أن يكون الأهل والـولد شـاغلاً لـه عن الله تعالى . وجاذباً لطلب الدنيا ، ومعلوم أن الدنيا ليست بشيء أمام الآخـرة عند الغـزالي ، فإذا انشغل المرء بمعيشة الأولاد وجمع المال وإدخاره لهم وطلب التفاخر والتكاثر بهم فهو لا بد سينشغل عن الله . إلا أن هذا ليس محظوراً ، بل إن التنعم بالمباح لا بأس به لكن الآفة هي في « الإغراق في ملاعبـة النساء ومؤانستهن والإمعـان في التمتع بهن »[52] . وسبق

---

(48) غل قمل ، مثل يضرب للمرأة السيئة الخلق كما ورد في مجمع الأمثال للميداني ، وقد ورد في لسان العرب مادة « غل » : « قولهم في المرأة السيئة الخلق : « غل قمل » أصله أن العرب إذا أسروا أسيراً غلوه بغلٍ من قدو وعليه شعر فربما قمل في عنقه إذا قبّ ويبس فتجتمع عليه محنتان : « الغل والقمـل » ، ضربـه مثلاً للمـرأة السيئة الخلق الكثيرة المهر ألا يجد بعلها منها مخلصاً . والعرب تكني عن المرأة بالغل . وفي الحديث : « وإن من النساء غلاًّ قملاً يقذفه الله في عنق من يشاء ثم لا يخرجه الا هو » .

(49) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج 4 ، ص

(50) الأحياء ، ج 2 ، ص 32

(51) الاحياء ، ج 2 ، ص 32

(52) نفس المصدر .

وأشرنا الى أن المجتمع الذي يتوجه إليه الغزالي بالخطاب هو مجتمع تعتبر فيه الملذات الحسية ذات قيمة عالية ، والإستئناس بالنساء من أعلى أنماط اللذة الحسية عند العربي ، والتاريخ يشهد باقبال العامة والخاصة على الزواج بالحرائر ومعاشرة السراري ، وإذا ملكت المرأة قلب العربي فهي تذهب بعقله ودينه ولا شك*، وأبلغ شاهد على ذلك ما فعله الحارث بن خالد المخزومي عندما ولاه عبد الملك بن مروان مكة فحجّ بالناس وحجت عائشة بنت طلحة عامئذٍ ، وكان يهواها فأرسلت إليه : أخّر الصلاة حتى أفرُغ من طوافي ، فأمر المؤذنين فأخروا الصلاة حتى فرغت من طوافها ، ثم أقيمت الصلاة فصلى بالناس . وأنكر أهل الموسم ذلك من فعله وأعظموه ، فعزله (عبد الملك) وكتب اليه يؤنّبه فيما فعل ؛ فقال : ما أهون والله غضبه إذا رضيت ! والله لو لم تفرغ من طوافها الى الليل لأخرت الصلاة الى اللّيل ، فلما قضت حجّها أرسل إليها : يا ابنة عمي ألمي بنا أو عدينا مجلساً نتحدث فيه ، فقالت في غد أفعل ذلك ، ثم رحلت من ليلتها(53) . وهذا الهوى ليس آفة من آفات الزواج فحسب ، إنه هوى التعلق بالدنيا والسعي وراء لذاتها .

ويناقش الغزالي قضية الاقبال على الزواج والاعراض عنه في سبيل التخلي لعبادة الله فيميل الى القول بالزواج لأنه يمكن الجمع بينه وبين عبادة الله . والنكاح ليس مانعاً من التخلي للعبادة . ولأن العبادة من غِير استراحة غير ممكنة(54) . ولأن في كسب الحلال والقيام بالأهل والسعي في تحصيل الولد والصبر على أخلاق النساء أنواعاً من العبادات لا يقصر فضلها عن نوافل العبادات ، ونقل عن مجاهد عن يحيى بن جعدة قولاً لرسول الله أنّه « ما أفاد رجل بعد الاسلام خيراً من امرأة ذات دين ، تسُرُّه إذا نظر إليها ، وتطيعه إذا أمرها ، وتحفظه في نفسها وماله إذا غاب عنها » . كذلك فقد نقل عن عروة بن الزبير قال : ما رفع أحد نفسه بعد الإيمان بالله بمثل منكَح صِدق »(55) .

أما القول بترك عيسى عليه السلام النكاح مع فضله ، وإن كان التخلي لعبادة الله أفضل من الاشتغال بالنساء والأولاد والأهل ؟ فلم أستكثر النبي محمد ﷺ من الأزواج ؟ ويجيب الغزالي على هذا التساؤل بأن النبي محمد مع علو همته أخذ بالقوة ، وجمع بين فضل العبادة والنكاح ولقد كان مع تسع من النسوة متخلياً لعبادة الله . وكان رسول الله ﷺ لعلو درجته لا يمنعه أمر هذا العالم عن حضور القلب مع الله تعالى ، فكان

---

(53) الأصبهاني ، الأغاني ، ج 3 ، ص 317-318

(54) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 33

(55) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج 4 ، ص 3-4

ينزل عليه الوحي وهو في فراش امرأته[56] . أما عيسى عليه السلام فإنه أخذ بالحزم لا بالقوة ، واحتاط لنفسه ، ولعل حالته كانت حالة يؤثر فيها الاشتغال بالأهل ، أو يتعذر معها طلب الحلال مما يتيسر فيها الجمع بين النكاح والتخلي للعبادة فآثر التخلي للعبادة ، وهم (أي الأنبياء) أعلم بأسرار أحوالهم وأحكام أعصارهم في طيب المكاسب وأخلاق النساء[57] . وقد أصاب الغزالي في تفرقته بين مضمون رسالة النبي محمد وعيسى عليهما السلام ، ذلك أن رسالة السيد المسيح هي بمضمونها تعاليم سماوية سامية أكثر منها شريعة ذات أحكام وسنن ، وقد تجسدت هذه التعاليم بشخص السيد المسيح باعتباره مخلصاً للبشرية من خطاياها ، لذلك علم تلامذته وأتباعه أن يكونوا قدوة للعالمين بالنفاذ الى جوهر الأمور . يقول السيد المسيح « قد سمعتم أنه قيل للأولين لا تقتل فإن من قتل يستوجب الدينونة ، أما أنا فأقول لكم من غضب على أخيه يستوجب (الدينونة) وقوله أيضاً : « قد قيل من طلق امرأته فليدفع إليها كتاب طلاق ، أما أنا فأقول لكم من طلّق امرأته إلا لعلة زنى فقد جعلها زانية ومن تزوج مطلقة فقد زنى . قد سمعتم أنه قيل العين بالعين والسن بالسن ، أما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشرير بل من لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الآخر[59] .

وإذا كانت ظروف الدعوة الإسلامية فرضت على الرسول وأتباعه الهجرة والحروب والصلح والمفاوضات فإن رسالة المسيح كانت تتطلب انعتاقاً خالصاً من الحياة الدنيوية والتضحية بالنفس في سبيل خلاص الانسان وإتمام كلمة الله الأبدية ، لذلك قال السيد المسيح : « أتيت لأفرّق الانسان عن أبيه والابنة عن أمها والكنة عن حماتها ، واعداد الانسان أهل بيته ، من أحبّ أباً أو أماً أكثر مني فلن يستحقني ، ومن أحب ابناً أو بنتاً أكثر مني فلن يستحقني ، ومن لا يحمل صليبه ويتبعني فلن يستحقني »[60] . والغزالي محق عندما يقول بأن الأنبياء أعلم بأسرار أحوالهم ، لذلك رأى السيد المسيح أن يتخلى للدعوة فلا ينشغل بأمر من أمور الدنيا والأهل : « فقال له واحد إن أمك وإخوتك واقفون خارجاً يريدون أن يكلّموك ، فأجاب وقال للذي قال له من أمي ومن اخوتي ، ثم أومأ بيده الى تلاميذه وقال هؤلاء هم أمي وأخوتي ، لأن كل من يعمل مشيئة أبي

---

(56) الاحياء ، ج 2 ، ص 34 ، والحديث « كان ينزل عليه الوحي وهو في فراش امرأته » أخرجه البخاري من حديث أنس « يا أم سلمة لا تؤذيني في عائشة فإنه والله ما نزل عليّ الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها» .

(57) نفس المصدر .

(58) الكتاب المقدس ، العهد الجديد ، انجيل القديس متى ، الفصل الخامس ، الآية 31 -32

(59) نفس المصدر . الآيات 31 -32 -38 -39

(60) نفس المصدر ، الفصل العاشر : الآيات 35 -38

الذي في السماوات هو أخي وأختي وأمي(61) .

ومعروفٌ أن التبتل والتنسك محمود في المسيحية . بينما ذهب البعض الى القول بأنه منهيٌ عنه في الاسلام . وتتفق نظرة الامام الغزالي مع دعوة القديس بولس بالنسبة للزواج ، فالخوف من الوقوع في الزنى والفحش هو الذي يوجب القول بالزواج ، إلا أن القديس بولس يُغلّب فضيلة العبادة على الإستئناس بالنساء ، ويدعو من يطيق صبراً على فراقهنّ الى الاقتداء به فهو يقول في رسالة له : « أما من جهة ما كتبتم به إليّ فحسنٌ للرجل أن لا يَمَسّ امرأة . ولكن لسبب الزنى فلتكن لكل واحد امرأته وليكن لكل واحدة رجلها(62) . ويرى القديس بولس أن هذا القول هو على سبيل الاباحة لا على سبيل الأمر ، أما ما يفضله القديس بولس فهو التبتل ، لكن ليس الناس كلهم سواء فهو يقول : « فإني أود لو يكون جميع الناس مثلي لكن كل أحد له من الله موهبة تخصّه فبعضهم هكذا وبعضهم هكذا(63) . وهذا ما أشار إليه الغزالي من أن الأنبياء (ومن هم في مرتبتهم) أعلم بأسرار أحوالهم ، والغزالي كالقديس بولس يرى أن الزواج هو المحصن من التحرف والزنى ، فالقديس بولس يرى للبشر إن لم يتعففوا أن يتزوجوا . ولا يوصي القديس بولس بالبتولية صراحة بل يقول بأن ليس عنده فيها وصية ، لكنه يظن أن هذا (البتولية) حسن لأجل الضرورة الحاضرة أنه حسن للانسان أن يكون هكذا(64) .

ولا مجال للبحث هنا في قضية الطلاق التي تسامح بها الاسلام تسامحاً لا حد له وتشدّدت بها الدعوة المسيحية تشدداً صارماً وإن كنا سنعود للبحث في هذه القضية لاحقاً ، إلا أن ما يمكن استنتاجه هنا أن نظرة الغزالي تقترب كثيراً من الدعوة المسيحية بالنسبة لآفات الزواج ومعاشرة النساء والاشتغال بالولد والأهل . فالمعروف أن الغزالي في مرحلة من مراحل حياته العلمية والدينية ومعاناته للصراعات التي احتدمت في نفسه بين حب الدنيا والتخلي للآخرة لجأ الى الهرب من الدنيا ومفاتنها ، وبينما كانت شهوات الدنيا تتجاذبه بسلاسلها الى المقام ومنادي الايمان ينادي : « الرحيل ! الرحيل ! » وظل يتردد قريباً من ستة أشهر ، أولها رجب سنة 488 هـ / 1095) . ومر بأزمة عنيفة وصفها بقوله : « وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار الى الإضطرار . إذ أقفل الله على لساني حتى اعتقِل عن التدريس . . . فكان لا ينطق بكلمة واحدة ، ولا أستطيعها البتة ،حتى

---

(61) نفس المصدر ، الفصل الثاني عشر ، الآيات 47 -50

(62) الكتاب المقدس ، العهد الجديد ، رسائل القديس بولس ، الفصل السابع ، الآيات 6-7-1 -2

(63)

(64) نفس المصدر . الآيات 10 -25 -26

أورثت هذه العقلة في اللسان حزناً في القلب ، بطلت معه قوة الهضم ومراءة الطعام والشراب . . . ثم لما أحسست بعجزي ، وسقط بالكلّية اختياري ، التجأت الى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له . فأجابني . . . وسهل على قلبي الإعراض عن الجاه والمال والأولاد والاصحاب ، وأظهرت عزم الخروج الى مكة وأنا أدبّر في نفسي سفر الشام[65] .

وهكذا يكون الغزالي نفسه قد تاق الى حياة التنسك والعزلة والاعراض عن الجاه والأولاد وبالفعل فقد غادر بغداد سنة 488 هـ ، ودخل الشام وأقام حوالي السنتين معتكفاً للرياضة والمجاهدة ، وانتقل بعد ذلك الى بيت المقدس ، يدخل كل يوم الصخرة ويُغلق بابها على نفسه .

3 ـ آداب المعاشرة

ينظر الغزالي في واجبات الزوج والزوجة ، ويبدأ بالزوج فيرى أن عليه مراعاة الاعتدال والأدب في إثني عشر أمراً : الوليمة ـ المعاشرة ـ الدعابة ـ السياسة ـ الغيرة ـ النفقة ـ التعليم ـ القسم ـ التأديب في النشوز ـ الوقاع ـ الولادة ـ والمفارقة بالطلاق[66] .

أ ـ **الوليمة** : من آداب المعاشرة عند الغزالي الوليمة ، وهي وإن لم تكن واجبة إلا أنها مُستحبّة ، وهي من سنة الرسول لقوله لعبد الرحمن بن عوف: أَوْلِم ولو بشاة[67] . وأولَم ﷺ على صفية بتمر وسويق . والوليمة لها فضل إظهار النكاح بالإضافة لفضل الإطعام كالدف والصوت ونقل عن الرسول قوله : « أعلنوا هذا النكاح واجعلوه في المساجد واضربوا عليه بالدفوف »[68] .

وإذا كان رسول الله ﷺ أَوْلَمَ بتمرٍ وسويق فالخليفة المأمون أعد وليمة بمناسبة زواجه بخديجة ابنة الحسن بن سهل التي تسمى بوران أنفق فيها إنفاقاً يصل الى حد العجب فقد « أعد بدار الطبخ من الحطب لليلة الوليمة نقل مائة وأربعين بغلاً مدة عام كامل ثلاث مرات في اليوم . وفني الحطب لليلتين ، وأوقدوا الجريد يصبون عليه الزيت . وأوعز الى النواتية باحضار السفن لاجازة الخواصّ من الناس بدجلة من بغداد الى قصور الملك بمدينة المأمون لحضور الوليمة[69] . وهذا من غريب تقلب الأحوال والانتقال من

---

(65) الغزالي ، المنقذ من الضلال ، تحقيق أحمد غلوش ، القاهرة 1952 ، ط 2 ، ص 36-37

(66) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 39

(67) هذا الحديث رواه أنس بن مالك ومتفق عليه .

(68) هذا الحديث رواه القرمذي من حديث عائشة .

(69) ابن خلدون ، المقدمة ، دار الكتاب اللبناني ، ط 30 ، بيروت 1967 م ، ص 306 ، ويقول المسعودي عن

البداوة والبساطة الى الحضارة والترف كما يرى بحق ابن خلدون .

ب ـ **المعاشرة** : وقوامها عند الغزالي حسن الخلق معهن واحتمال الأذى منهن ترحماً عليهن لقصور عقلهن(70) . وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿ وعاشروهنّ بالمعروف ﴾ سورة النساء ، الآية 19 . وقال في تعظيم حقهن : ﴿ وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً ﴾ . سورة النساء ، الآية 21 . وآخر ما أوصى به رسول الله ثلاث كان يتكلم بهم حتى تلجلج لسانه وخفي كلامه : « جعل يقول الصلاة الصلاة ، وما ملكت أيمانكم لا تكلفوهم ما لا يطيقون . الله الله في النساء فإنهن عوان في أيديكم ـ يعني اسراء ـ أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله »(70) .

وقد أوصى الرسول في أكثر من حديث بالنساء ، وحث على الصبر عليهن وكف الأذى عنهن ، وأثر عنه احتمال الأذى منهن والحلم عليهن تصديقاً لما حث عليه بالقول ، ويقول الغزالي أنه ـ مع علو مقامه وسمو مرتبته ـ كن يراجعنه في الكلام وتهجره الواحدة منهن يوماً الى الليل ، وعندما راجعت امرأة عمر في الكلام قال لها : أتُراجعيني يا لكعاء ؛ فقالت : إن أزواج رسول الله ﷺ يراجعنه وهو خير منك ؛ فقال عمر : خابت حفصة وخسرت إن راجعته ؛ ثم قال لحفصة : لا تغتري بابنة ابن أبي قحافة (عائشة) فإنها حب رسول الله ، وخوَّفها من المراجعة(71) . كذلك يقول الغزالي بأن إحداهن دفعت رسول الله في صدره فزبرتها أمها. فقال عليه السلام : « دعيها فإنهن يصنعن أكثر من ذلك ، وجرى بينه وبين عائشة كلام حتى أدخلا بينهما أبا بكر رضي الله عنه حكماً واستشهده فقال لها رسول الله : «تكلّمين أو أتكلم » . فقالت بل تكلم أنت ولا تقل إلا حقاً ، فلطمها أبو بكر حتى دمى فوها وقال : يا عدية نفسها ، أوَ يقول غير الحق ! فاستجارت برسول الله وقعدت خلف ظهره ، فقال له النبي : « لم ندعك لهذا ولا أردنا منك هذا »(72) . وقالت له مرة في كلام غضبت عنده : أنت الذي تزعم أنك

الانفاق في هذا الإملاك (الزواج) أن الحسن بن سهل (والد بوران) نثر من الأموال ، ما لم ينثره ولم يفعله ملك قط في جاهلية ولا في اسلام . وذلك أنه نثر على الهاشميين والقواد والكتاب والوجوه بنادق مسك فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوارٍ وصفات دواب وغير ذلك . فكانت البندقية إذا وقعت في يد الرجل فتحها فقرأ ما فيها فيجد على قدر إقباله وسعوده فيها . . . ثم نثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم ونوافجَ المسك وبيض العنبر . . . أما المأمون فقد أمر (أي للحسن بن سهل) بحمل خراج فارس وكور الأهواز اليه سنة فقالت في ذلك الشعراء فأكثرت . (المسعودي ، مروج الذهب ، ج 3 ، ص 443) .

(70) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 40 . وهذا الحديث سبق وأشرنا اليه والمعروف أن النبي أوصى بالنساء في حجة الوداع .

(71) نفس المصدر .

(72) نفس المصدر ، وحديث جرى بينه وبين عائشة كلام . . . أخرجه الطبراني والخطيب في التاريخ من حديث عائشة بسند ضعيف .

نبي الله . فتبسم رسول الله واحتمل ذلك حلماً وكرماً(73) .

وليس بغريب أن تكون القاعدة في معاملة النساء : التسلط والشدة ، ذلك أن المجتمع هو كما سبق وذكرنا هو مجتمع الذكورة السائدة . لذلك رفضت أم أبان بنت عتبة ابن ربيعة الزواج من عمر بعد أن مات عنها يزيد بن أبي سفيان وقالت : لا يدخل إلا عابساً ولا يخرج إلا عابساً ، يغلق أبوابه ويقل خيره(74) . كذلك عندما خطب عمر بن الخطاب أم كلثوم بنت أبي بكر فأرسل الى عائشة فقالت : الأمر إليك ، فلما ذكرت ذلك عائشة لأم كلثوم ، قالت : لا حاجة لي فيه ! فقالت عائشة : أترغبين عن أمير المؤمنين ؟ قالت : نعم إنه خشن العيش ، شديد على النساء !(75) . وقد احتال المغيرة بن شعبة في حديث طويل في صرفه عنها مصارحاً إياه بأن فيه غلظة وأن الفتاة رقيقة لينة فإن خالفته وسطا بها كان في ذلك مخلفاً لأبي بكر في ولده، فانصرف عنها وتزوج أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب من فاطمة بنت رسول الله(76) .

وللمغيرة بن شعبة هذا قصة في التسلط لا حد لها ، ذلك أنه طلق زوجته فارعة الثقفية لأنه رآها تتخلل(77) حين انفتلت من صلاة الغداة . فقال لها : لئن كنت تتخلّلين من طعامك اليوم إنك لجشعة ، وإن كنت تتخلّلين من طعام البارحة إنك لشبعة ، كنت فبنت ، فقالت والله ما اغتبطنا إذ كنّا ، ولا أسفنا إذ بِنّا ، وما هو لشيء مما ذكرت ، ولكني استكت فتخللت للسواك(78) ؛ فخرج المغيرة نادماً على ما كان منه ، فلقِيه يوسف ابن أبي عقيل فقال له : إني نزلت عن سيدة نساء ثقيف ، فتزوجها فإنها ستنجب ؛ فتزوجها فولدت له الحجاج(79) . وهذه أمثلة بسيطة عن أمور التسلط والأذى التي كانت تتعرض لها النساء بالرغم من أمر الله والرسول بالرأفة والرحمة بالنساء .

ج - المداعبة : يوصي الغزالي باحتمال الأذى بالمداعبة والمزاح والملاعبة ، ويتخذ من رسول الله قدوة في ذلك ، ذلك أن الرسول كان ينزل الى درجات عقولهن في الأعمال والأخلاق(80) . وروي عنه أنه كان يسابق عائشة فسبقته يوماً ، وسبقها في بعض الأيام ،

---

(73) هذا الحديث أخرجه أبو يعلي في مسنده وأبو الشيخ في كتاب الأمثال من حديث عائشة .

(74) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج 4 ، ص 17

(75) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج 27 ص 83 -84

(76) نفس المصدر .

(77) خلّلَ الاسنان : نزع ما بينها من طعام .

(78) ساك سوكاً وسوّك الشيء : دلكه ؛ ومنه سوّك الاسنان بالعود ، أي دلكها . ويقال استكاك استياكاً : تدلك بالمسواك . والسواك جمع سوك وهو العود الذي تنظف به الأسنان .

(79) المصدر السابق ، ص 112

(80) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 41

فقال عليه السلام : هذه بتلك(81) . وردت عائشة أنها سمعت أصوات أناس من الحبشة وغيرهم وهم يلعبون في يوم عاشوراء ، فقال لها الرسول ﷺ : أتحبين أن تري لعبهم . قالت : نعم ، وجعلوا يلعبون وانظر ، وجعل رسول الله ﷺ بين البابين ، فوضع كفه على الباب ومد يده ووضعت ذقني على يده ، وجعلوا يلعبون وانظر ، وجعل رسول الله ﷺ يقول : حسبك ، وأقول اسكت مرتين أو ثلاثاً ، ثم قال : يا عائشة حسبك ، فقلت نعم . فأشار اليهم فانصرفوا(82) . ورغم ما أثر عن الرسول من إباحته لملاعبة النساء ومداعبتهن فقد ظلت أصوات المحافظين المتزمتين تدعوا الى التحجير على المرأة ، فقد ذكر الأصمعي أنه قيل لعقيل بن عُلَّفة وكان غيوراً : من خلّفت في أهلك ؟ فقال : الحافظين ، العري والجوع . يعني أنه يجيعهنّ فلا يمزحن، ويعريهن فلا يمرحن(83) . وفي هذا المجال قال كُثيِّر :

وكنت إذا ما جئت أجلَلْنَ مجلسي	وأبدين مني هيبة لا تجهما
يحاذرن مني غيرة قد علمنها	قديماً فما يضحكن إلا تبسُّما
تراهن إلا أن يؤدين نظرة	بمؤخر عين أو يُقلِّبن مِعصما
كواظم لا ينطقن إلا محورة(84)	رجيعة قول بعد أن تُتفهّما(85)
وكنّ إذا ما قلن شيئاً يَسُرّه	أسر الرضا في نفسه وتحرّما(85)

وهذا يدعو الى عدم إظهار الرضا للنساء لئلا يتمادين بما لا يتفق وهيبة الرجل ، فهن لا يجرأن على الضحك ولا ينظرن بملء العين في وجه الرجل ولا ينطقن إلا إذا كان نطقهم جواباً ، وإذا قالت المرأة شيئاً سرّ الرجل فعليه أن يكتم الرضا في نفسه ، ومع هذا كله فقد بقي للنساء سلطان على الرجال بحكم الغريزة الطبيعية وما تمثله المرأة للرجل بالرغم من كل التشريعات الاجتماعية التي أرهقت كاهلها ، حتى أن الحجاج (وما عرف عنه من غلظة وسفك دماء) عندما سئل إن كان يمازح أهله قال غاضباً : ما تروني إلا شيطاناً ! والله لربما قبلت أخمص إحداهن(86) .

د ـ السياسة : والسياسة عند الغزالي هي ارتداد عن الموقف السابق ، فهو بعد أن

---

(81) هذا الحديث رواه أبو داود والنسائي في الكبرى وابن ماجة من حديث عائشة .

(82) الحديث متفق عليه دون ذكر يوم عاشوراء ، وإنما قال : « يوم عيد ، ودون قولها : اسكت . وفى رواية للنسائي في الكبرى : قلت لا تعجل مرتين . وفيه فقال : يا حميراء ، وسنده صحيح .

(83) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج 4 ، ص 78.

(84) محورة أي جواباً . وفي الأغاني ، ج 12 ، ص 185 بعد أن يُتفهما .

(85) نفس المصدر والأغاني لأبي الفرج الأصبهاني ، ج 12 ، ص 185

(86) نفس المصدر ، ص 80

مدح الرجل الذي يداعب ويمازح أهله ويطيب قلوب نسائه يعود هنا الى تذكر موقف السيادة المطلقة للرجل على المرأة فيحض الرجل على عدم التبسط في الدعابة وحسن الخلق والتزام الحذر في اتباع أهواء النساء لئلا تسقط هيبته(87) ، وهيبة الرجل مقدسة عند الغزالي ، لذلك على الرجل في كل الأحوال أن يبقى « رجلاً » ، لا تنتقص من هيبته امرأة ، لذلك عليه أن يحرص على الهيبة والانقباض والامتعاض لئلا تغترّ المرأة بنفسها وتفتح أمامها المنكرات . حتى أنه يُستحسن مخالفتهن ، وكأن المخالفة تأكيد سلبي للرجولة حتى قال عمر : خالفوا النساء فإن في خلافهن البركة(88) . ومن أقسى ما قيل في حقهن : شاوروهن وخالفوهن . وكأنهن لا يدركن الحقيقة والصواب لقصور في عقلهن . وفي معظم الأحوال على الرجل أن لا يطيع شرار النساء ، وأن يكون على حذر من خيارهن . ويميل الغزالي الى القسوة على المرأة بقوله «إن كيدهن عظيم وشرهن فاش ، والغالب عليهن سوء الخلق وركاكة العقل »(89) . وهو يرى كي يخفف من غلواء شرورهن أن يلجأ الرجل الى الاعتدال في معاملتهن بالموافقة والمخالفة وأن يمزج قسوته لهن بنوع لطف ممزوج بالسياسة ، لأن النساء فيهن شر وفيهن ضعف ، فالسياسة والخشونة علاج الشر ، والمطايبة والرحمة علاج الضعف . والطبيب الحاذق هو الذي يقدر العلاج بقدر الداء ، فلينظر الرجل أولاً الى أخلاق المرأة بالتجربة ثم ليعاملها بما يصلحها كما يقتضيه حالها(90) .

وإن كان الغزالي يدعو الرجال الى السياسة والدهاء ، فهو إنما يلجأ إلى طب قديم حذقته النساء وبرعت فيه . فالمرأة هي التي تعرف كيف تعالج قسوة الرجل وخشونته بالسياسة والدهاء ، وكانت نساء العرب يعلمن بناتهن اختبار الأزواج . فعن أبي الحسن أن امرأة قالت لإبنتها عند هِدائها : اقلعي زُجّ رمحه(91) ، فإن أقرّ فاقلعي سنانه ، فإن أقر فاكسري العظام بسيفه ، فإن أقرّ فاقطعي اللحم على ترسه ، فإن أقرّ فضعي الإكاف(92) على ظهره فإنما هو حمار(93) . وهذا الأسلوب من أساليب الاختيار لمعرفة طباع الرجال والتغلب عليهن لتنقلب آية السيطرة من الذكر للأنثى . والى مثل هذا كان يقصد الزبرقان بن بدر إذا زوج ابنة له فيقول لها : كوني له أمة يكن لك عبداً(93) . وقال أبو

(87) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 41

(88) نفس المصدر . ص 42

(89) و(90) نفس المصدر .

(91) الزُجّ : جمعه زجاج وأزجة وزججة : الحديدة التي في أسفل الرمح ويقابله السنان . وفي المثل : « جعل الزجّ قدّام السنان ، أي فضّل الأدنى على الأعلى » .

(92) الاكاف : البرذعة .

(93) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج 4 ، ص 77

الأسود (الدؤلي) لابنته : إياك والغيرة فإنها مفتاح الطلاق ، وعليك بالزينة ، وأزين الزينة الكحل ، وعليك بالطيب ؛ وأطيب الطيب إسباغ الوضوء ، وكوني كما قلت لأمك في بعض الأحايين :

خذي العفو مني تستديمي مودتي	ولا تنطقي في سورتي حين أغضب
فإني وجدت الحب في الصدر والأذى	إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب(94)

وكتب الأدب والتاريخ حافلة بوصايا الآباء لبناتهم عند فراقهن الى بيوت أزواجهم ، وكلها تحث على حسن التصرف والمعاملة والحيطة والحذر والدهاء كي يستقيم أمرها مع زوجها ، ومن أمثلة دهاء النساء مع أزواجهن ما أقدمت عليه نائلة بنت الفرافصة بن الأحوص بن عمرو الكلبية عندما حملها أبوها الى الخليفة عثمان بن عفان وقال لها : يا بنية انك تقدمين على نساء من نساء قريش هن أقدر على الطيب منك ، فاحفظي عني خصلتين : فتحلي وتطيّبي بالماء حتى يكون ريحك ريح شَنّ أصابه مطر . فلما حُملت كرهت الغربة وحزنت لفراق أهلها ، ومع ذلك كله عندما قدمت على عثمان وقعد على سريره ووضع قلنسيته فبدا الصلع فقال : يابنة الفرافصة ، لا يهولنك ما ترين من صلعي فإن وراءه ما تحبين ، فسكتت فقال : إما أن تقومي إلي وإما أن أقوم إليك . فقالت : أما ما ذكرت من الصلع فإني من نساء أحبُّ بعولتهن اليهن السادة الصلع ؛ وأما قولك إما أن تقومي إلي وإما أن أقوم إليك فوالله ما تجشمت من جنبات السماوة أبعد ما بيني وبينك ؛ بل أقوم إليك . فقامت فجلست الى جنبه فمسح رأسها ودعا لها بالبركة . ثم قال لها : اطرحي عنك رداءك فطرحته ، ثم قال لها : اطرحي خمارك فطرحته ، ثم قال لها : انزعي درعك فنزعته ، ثم قال : حلّي إزارك ، فقالت : ذاك اليك . فحل إزارها . فكانت من أحظى نسائه(96) .

وتبدو في هذه الرواية حكمة والد نائلة بوصيته لها ودهائها وحسن سياستها في معاملة زوجها ومخاطبته من أول ليلة ، وهكذا تكون السياسة التي تحدث عنها الغزالي كدواء لمعالجة النساء ، هي في متناول أيديهن أكثر منها في أيدي الرجال .

هـ ـ الغيرة : يعود الغزالي في تحدثه عن الغيرة الى هاجسه الدائم وهو الحذر من

---

(94) نفس المصدر . وفي الأغاني ، ج 20 ، ص 393 . ينسب الأصبهاني في هذا الشعر والحديث أيضاً لأسماء بن خارجة الفزاري عندما زوّج بنته هنداً من الحجاج بن يوسف ، فلما كانت ليلة أراد البناء بها قال أسماء : يا بنيّة ، إن الأمهات يؤدبن البنات ، وإنّ أمّك هلكت وأنت صغيرة ، فعليك بأطيب الطيب الماء ، وأحسن الحُسن الكحل ، وإياك وكثرة المعاتبة ، فإنها قطيعة للود ، وإياك والغيرة فإنها مفتاح الطلاق .

(95) الشَنّة : القربة ، الخلَق الصغيرة .

(96) الأصبهاني ، الأغاني ، ج 15 ، ص 158-159 ، من طبعة مكتبة الحياة . بيروت 1956 .

التغافل عن شؤ ون النساء التي تُخشى غوائلها . ومع ذلك فالغزالي يدعو الى الاعتدال في الغيرة . وعدم المبالغة في إساءة الظن والتعنت وتجسّس البواطن(97) . وينسب الى الرسول نهيه عن ذلك . وإن صح الحديث الذي نسب للرسول عن نهيه مباغتة النساء فإنه يدلّل على سمو تفكيره ﷺ وعلو همته ويقدح في الأحاديث الكثيرة التي تحط من قيمة المرأة ونسبت اليه ، ففي الخبر أنه لما قدم رسول الله ﷺ من سفره قال قبل دخول المدينة : « لا تطرقوا النساء ليلاً » . فخالفه رجلان فسبقا ، فرأى كل واحد في منزله ما يكره(98) . والغيرة التي نها عنها رسول الله هي الغيرة من غير ريبة ، وهذا من سوء الظن وإن بعض الظن إثم . أما الغيرة التي في محلها فهي محمودة . لقوله عليه السلام : « أتعجبون من غيرة سعد أنا والله أغير منه والله أغير مني »(99) .

ويذكر أن عمر بن الخطاب كان من أشد الرجال غيرة ولعل لهذا السبب نسبت إليه آراء في المرأة تحط من قيمتها ودعوات تدعو الى التحجير عليها ، ولم تكن الغيرة دائماً محمودة ونسبها البعض الى البخل وانعدام المروءة(100) . وبالإجمال تبقى القاعدة في الاسلام أن الطريق المغني عن الغيرة أن لا يدخل على المرأة الرجال وهي لا تخرج الى الأسواق . فقد قال رسول الله ﷺ لابنته فاطمة عليها السلام : أي شيء خير للمرأة ؟ قالت : أن لا ترى رجلاً ولا يراها رجل فضمها اليه وقال : « ذرية بعضها من بعض » .

وكان أصحاب رسول الله يسدون الكوى والثقب في الحيطان لئلا تطلع النسوان الى الرجال . ورأى معاذ امرأته تطلع في الكوة فضربها ، وكان عمر بن الخطاب يقول : بأن النساء عورة فاستروها بالبيوت(101) . وبالاجمال فقد مدحت العرب المرأة الملازمة لخبائها وذلك لشدة الغيرة عليهن ومن مأثور أقوالهم أن يقول الرجل لخاطب : ابغني امرأة لا تؤنس جاراً ولا توهن داراً ولا تثقب ناراً(102) . يريد بذلك أنها لا تدخل على الجيران ولا يدخل عليها الجيران ، ولا تغري بينهم بالشر . أو نحو ذلك ما قال الشاعر :

من الأوانس مثل الشمس لم يرها ... في ساحة الدار لا بعل ولا جار

---

(97) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 42

(98) روى هذا الحديث أحمد بن حنبل من حديث ابن عمر بسند جيد .

(99) هذا الحديث متفق عليه من حديث المغيرة بن شعبة . راجع الغزالي ، الأحياء ، ج 2 ، ص 43

(100) كان المأمون يقول : الغيرة بهيمية . وقال أيضاً : هي ضرب من البخل ، عيون الأخبار لابن قتيبة ج 4 ص 79

(101) هذا الحديث رواه البزار والدارقطني من الأفراد من حديث علي .

(102) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج 7 ، ص 101

وإن كان الرجال يمدحون المرأة الملازمة بيتها اتقاء للغيرة فإن المرأة مالت الى اعتبار الغيرة نقصاً في الرجال فقد قالت هند بنت النعمان بن بشير(103) زوجة روح بن زنباع لزوجها : عجباً منك ! كيف يسودك قومك وفيك ثلاث خلال : أنت من جذام . وأنت جبان . وأنت غيور ؟ فقال لها : أما جذام فإني في أرومتها، وحسب الرجل أن يكون في أرومة قومه ؛ وأما الجبن فإني مالي إلا نفس واحدة ، فأنا أحوطها ؛ فلو كانت لي نفس أخرى جدت بها ؛ وأما الغيرة فأمر لا أريد أن أشارك فيه ، وحقيق بالغيرة من كانت عنده حمقاءُ مثلك ، مخافة أن تأتيه بولد من غيره فتقذفه في حِجره ! فقالت :

وهل هند الا مهرة عربية سليلة أفراس تجلّلها بغلُ
فإن أنجبت مُهراً عريقاً فبالحرى وان يك أقراف فما أنجب الفحل(104)

أما عن تسامح النبي في خروج النساء فهو إذنه لهن في حضور المسجد ، لكن الغزالي يرى بأن المنع هو الصواب إلا للعجائز. لماذا كان جائزاً أيام الرسول وزمان الصحابة وأصبح حتى في عصر الغزالي منكراً ؟ يقول الغزالي أن ذلك الزمان تبدل والدليل على ذلك ما قالته عائشة : لو علم النبي ما أحدثت النساء بعده لمنعهن من الخروج . وعندما قال ابن عمر قال رسول الله ﷺ : « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله » فقال بعض ولده : بلى والله لنمنعهنّ، فضربه وغضب عليه وقال : تسمعني أقول قول رسول الله ﷺ : « لا تمنعوا » فتقول : بلى . ويرى الغزالي أنه إنما استجرأ على المخالفة لعلمه بتغير الزمان(105) . كذلك قالت عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل (وكانت من أجمل نساء عصرها) عن تغير الزمان ، « فعندما تزوجها الزبير بعد عمر بن الخطاب وقد خلا(106) من سنها ، فكانت تخرج بالليل الى المسجد ولها عجيزة ضخمة ، فقال لها الزبير لا تخرجي ، فقالت لا أزال أخرج أو تمنَعني ، وكان يكره أن يمنعها ، لقول النبي ﷺ « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله » ؛ فقعد لها الزبير متنكراً في ظلمة الليل ، فلما مرت به قرص عجيزتها ؛ فكانت لا تخرج بعد ذلك ؛ فقال لها : مالك لا تخرجين ؟ فقالت :

---

(103) هو النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة من الخزرج وأمه عمرة بنت رواحة وكانت له صحبة بالنبي ﷺ ، وأبوه بشير بن سعد أول من قام يوم السقيفة من الأنصار الى أبي بكر (رضي الله عنه) فبايعه ، الأغاني ، ج 16 ، ص 28

(104) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج 7 ، ص 108 . إلا أن الأصبهاني في كتابه الأغاني يقول بأن بنت النعمان بن بشير التي تزوجها روح بن زنباع اسمها حميدة وكانت شاعرة ذات لسان وعارضة وشر ، فكانت تهجو أزواجها . وقد روى خالد بن كلثوم هذين البيتين لها ، وغيره يرويها لمالك بن أسماء لما تزوج الحجاج أخته هنداً . الأغاني ، ج 16 ـ ص 53 -54

(105) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 44

(106) أي بعدما كبرت ومضى معظم عمرها .

كنت أخرج والناس ناس ، وقد فسَد الناس فبيتي أوسع لي[107] .

وقد أذن الرسول للنساء بالخروج في الأعياد . ويجب أن يكون الخروج دائماً برضا أزواجهن ، لكن الغزالي يقول بأن الخروج الآن (أي في عصره القرن الخامس الهجري) مباح للمرأة شرط أن تغضّ بصرها فلا تنظر وجوه الرجال ، ليس لأنه وجه الرجل في حقها عورة كوجه المرأة في حقه (لأن وجه المرأة عورة بالنسبة للرجال) بل هو كوجه الصبي الأمرد في حق الرجل فيحرم النظر عند خوف الفتنة . والرجال على مر الزمان مكشوفي الوجوه والنساء يخرجن منتقبات .

ولسنا في حاجة للقول اليوم أن الخروج أصبح مباحاً وأخذت المرأة دورها أكثر فأكثر في الحياة الاجتماعية ، وقد لعبت الأفكار التنويرية الاصلاحية دوراً كبيراً في رفع الحجب عن المرأة مطالبة بمساواتها بالرجل وبالاعتراف بوجودها الفاعل من ضمن التركيبة الاجتماعية الحية ، ويشير آدم متز الى أن ظاهرة استقرار النساء في البيوت لم تكن على الدوام بدواع شرعية ، وهذا ما يؤكد ما سبق وأشرنا إليه ، وهو أن التقاليد والعادات الاجتماعية والأحوال الاقتصادية كانت تتداخل مع الأحكام الشرعية فتزيد في وطأتها أو تخفضها حسب اختلاف الأحوال والأزمان ، ويرى متز أن استقرار النساء في البيوت تحول في وقت من الأوقات من أدب شرعي إلى عادة بين الأشراف والكبراء ، وإن هذا لم يكن فقط في المجتمع الاسلامي ، فتحت تأثير الاسبان (الذين تأثروا بالمجتمع الاسلامي) كانت لا ترى امرأة قط في شوارع إيطاليا حوالى منتصف القرن السابع عشر الميلادي[108] .

وإلى مثل ذلك يذهب المقريزي في تحليله لظاهرة الحرية الكبيرة التي احتفظت بها نساء مصر رغم ثقل النظريات الشرعية الداعية للحد من حريتهن ، فهو يقول أن رجال القبط تركوا حرية كبيرة لنسائهم وعلة ذلك أنه لما غرق فرعون وقومُه لم يبق من الرجال إلا العبيد والأجراء ؛ ولم يصبر النساء على الرجال ، فطفقت المرأة تعتق عبدها وتتزوجه ، وتتزوج الأخرى أجيرها ، وشرطن على الرجال ألا يفعلوا شيئاً إلا بإذنهن ، فأجابوهن الى ذلك ، فكان أمر النساء ينفذ على الرجال ، قال يزيد بن أبي حبيب إن نساء القبط على ذلك الى اليوم ، اتباعاً لمن مضى منهم ، لا يبيع أحد منهم ولا يشتري إلا قال : استأمر زوجتي[109] . وقد احتفظ النساء بمصر بعد الاسلام بشيء من ذلك وقد

---

(107) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج 4 ، ص 115

(108) آدم متز ، الحضارة الاسلامية . ج 2 ، ص 176

(109) المقريزي ، كتاب الخطط ، طبعة بولاق . 1270 هـ . ج 1 ، ص 39

نعتهن المقدسي بسبب ذلك بالفجور وأنه يكون للمرأة زوجان[110] . ويقول عن أهل شيراز « وحدثت عن نسائهم بشيء قبيح »[111] . ويبدو أنه في نهاية القرن الثاني الهجري ومطلع القرن الثالث ظهرت أصوات تطالب للنساء بالخروج وتولي المهام الكبيرة التي كانت لا تزال مقدسة وحكراً على الرجال ، فيقول في ذلك ابن بسام الشاعر[112] .

ما للنساء وللكتابة والعمالة والخطابة
هذا لنا ولهن منّا أن يبتن على جنابة

ومعلوم أنه رغم هذه الحملات من التشكيك في قدرة المرأة على تولي المهام الكبيرة فقد خرجت نساء الى الحياة العامة ، فمنهن عالمات بالدين ، يُقبلُ الناس على دروسهن كستيتة بنت القاضي أبي عبد الله الحسين بن اسماعيل الضبي المحاملي (ت 377 هـ) وتكنى أم الواحد ، كانت فاضلة عالمة ، ومن أحفظ الناس للفقه على المذهب الشافعي ، وكانت تفتي مع العلماء ، وحدّثت وكُتب عنها الحديث ، ومثل أم الفتح بنت القاضي أبي بكر أحمد بن كامل بن خلف بن شجرة (ت 390 هـ) وأخذ عنها كثير من العلماء ، وكانت موصوفة بالديانة والعقل والفضل[113] .

و ـ **الاعتدال في النفقة** : يوصي الغزالي في هذا الباب بأن لا يُقتّر على النساء في الإنفاق ، ولا أن يُسرف عليهن . بل الاقتصاد أولى[114] . وقد قال الله تعالى : ﴿ كلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾ سورة الأعراف ، الآية 31 . كذلك قال الله تعالى : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط ﴾ سورة الاسراء ، الآية 29 . وقال رسول الله ﷺ : « دينار أنفقته في سبيل الله ، ودينار أنفقته في رقبة ، ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلك : أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك[115] . وقيل أنه كان لعلي رضي الله عنه أربع نسوة ، فكان يشتري لكل واحدة في كل أربعة أيام لحماً بدرهم . وينبغي للرجل أن يأمر امرأته بالتصدق ببقايا الطعام وما يفسد لو تُرِك . فهذا أقل درجات الخير ، ولها أن تفعل ذلك بحكم الحال من غير صريح إذن من الزوج ، ولا ينبغي له أن يستأثر عن أهله بمأكول طيب فلا يطعمهم منه . فإن ذلك مما يوغر الصدور

---

(110) المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ،ط. ليدن 1877 ص 200
(111) نفس المصدر
(112) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ط. القاهرة 1340 هـ / 1922 م ج 1 ، ص 64
(113) آدم متز ، الحضارة الاسلامية ، ج 2 ، ص 178 عن مخطوط المنتظم لابن الجوزي ص 126 أ ، 146 أ . والمخطوط رقم 9436 بالمكتبة الأهلية ببرلين .
(114) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 44
(115) هذا الحديث أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة .

ويبعد عن المعاشرة بالمعروف[116] . وعلى الرجل إذا أكل أن يقعد العيال كلهم على مائدته . ويؤكد الغزالي في هذا الباب مراعاة الانفاق من الحلال ، وعليه أن لا يدخل مداخل السوء من أجل أهله . فذلك جناية عليها وقد سبق وتحدثنا عن هذا الأمر في آفات النكاح . وقد مر معنا في أكثر من موضع أن المرأة إنما تفضل الرجل السخي على المقتر والكريم على البخيل ، لذلك قال علي بن أبي طالب لأم أبان بنت عتبة بن ربيعة عندما رفضت الزواج من عدد من الصحابة ورضيت بطلحة فقال لها : أما أنك تزوجت أجملنا مرآة وأجودنا كفاً وأكثرنا خيراً على أهله[117]) .

ز ـ **التعليم** : من يقرأ أن الغزالي حض على تعليم المرأة من قبل زوجها يخيَّل اليه أن الغزالي إنما ندب الزوج الى تعليم زوجته القراءة والكتابة لإزالة غشاوة الجهالة عن عينيها ، لكن المرء يصدم فعلاً عندما يجد بأن الغزالي إنما دعا الزوج الى تعليم زوجته علم الحيض وأحكامه مع تعليمها أحكام الصلاة[118] . هذا كل ما يدعو إليه الغزالي في موضوع تعليم المرأة ، طبعاً لم يكن موضوع التعليم مطروحاً ومفهوماً كما نفهمه اليوم ، وما وصلت اليه المرأة فعلاً حتى أصبح التعليم حقاً وواجباً لها وعليها . لكن من الغريب أن يقصر الغزالي تعليم المرأة على مسألة أو مسألتين هامشيتين ، فكان من الواجب أن يدعو الى تعليم المرأة أصول القراءة والكتابة كي تستطيع فعلاً أن ترقى الى مستوى من العلم والأخلاق وحتى الدين ، لأنه من الصعب جداً أن تستطيع المرأة الجاهلة أن تقي نفسها النار كما يدعو الى ذلك الغزالي ، بل إن الغزالي ذهب الى أبعد من تحريم تعليم المرأة بقوله أنه ليس لها الخروج لسؤال العلماء (سؤالهم أحكام الحيض) إن كان الرجل قائماً بتعليمها . أما إذا قصر علم الرجل عن تعليمها فعليه أن ينوب عنها في السؤال ويخبرها بجواب المفتي وعند ذلك تنتفي حاجتها الى الخروج[119] . ويضيف بأنه ليس لها الخروج « الى مجلس ذكر ولا الى **تعلم فضل** إلا برضاه[120] » . وهذا غاية في التضييق والتحجير على المرأة .

ح ـ **العدل والتأديب في النشوز** : يطرح موضوع العدل على الرجل إذا كان له أكثر من امرأة ، عندئذٍ يصبح لزاماً عليه أن يعدل بينهن ، وبما أن القاعدة في عصر الغزالي وما قبله هي الجمع بين النسوة ، فقد استأثر هذا الموضوع بجانب هام من أفكار

---

(116) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 44
(117) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج 4 ، ص 17
(118) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 44
(119) نفس المصدر .
(120) نفس المصدر .

الغزالي حول المرأة ، كذلك كانت له هذه الأهمية في أدبيات الاسلام . وفي موضوع العدل نجد أموراً طريفة فعلاً وقد طوتها الأيام كأن يوجب على الرجل إن خرج الى سفر وأراد استصحاب واحدة أن يقرع بينهن(121) . هكذا كان يفعل رسول الله . وإن ظلم امرأة بليلة قضى لها لأن القضاء واجب عليه ، وعند ذلك يصبح على الرجل أن يعرف أحكام القسم وهذا يطول ذكره . وفي حديث منسوب للرسول أن على الرجل أن لا يميل لواحدة أكثر من أخرى ـ لأنه إن فعل ـ جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل(122) . وهذا غريب في نظري لأن الأخبار الكثيرة عن ميله ﷺ الى عائشة كثيرة ، والميل في العواطف والمشاعر لا طاقة للبشر في تملكها . وقد مر معنا أن الرسول قال لنسائه لا تؤذوني في عائشة فما نزل علي وحي في فراش امرأة إلا في فراشها ، وكانت عائشة أحب نسائه اليه وهذا معروف وثابت ، حتى أنه عندما مرض مرضه الأخير وكان يطاف به محمولاً في كل يوم وكل ليلة ، فيبيت عند كل واحدة منهن ويقول : أين أنا غداً ، ففطنت لذلك امرأة منهن وقالت : إنما يسأل عن يوم عائشة ، فقلن يا رسول الله قد أذنّا لك أن تكون في بيت عائشة فإنه يشق عليك أن تحمل في كل ليلة ؛ فقال : وقد رضيتُنّ بذلك ؟ فقلن : نعم ، قال : فحولوني الى بيت عائشة(123) .

وما يثبت ميله وحبه لعائشة أنه قصد أن يطلق أحد نسائه (سودة بنت زمعة) لما كبرت فوهبت ليلتها لعائشة وسألته أن يقرّها على الزوجية . فتركها وكان لا يقسم لها ويقسم لعائشة ليلتين ولسائر أزواجه ليلة ليلة(124) .

وغني عن القول في هذا الباب أن العدل ميؤوس منه فيما يختص بالعواطف نحو النساء ، ومشاكل الضرائر لا تنتهي ، وقد أشار القرآن الكريم الى ذلك بإباحته الزواج بأكثر من واحدة لكنه قيّد الأمر بقوله : ﴿ وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴾ سورة النساء الآية 3 ، ومن تمعّن في هذه الآية لاكتفى بواحدة لأنه من الصعب جداً أن يقسم بينهن

---

(121) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 45 . وحديث القرعة بين أزواجه إذا أراد سفراً متفق عليه من حديث عائشة .

(122) هذا الحديث أخرجه أصحاب السنن وابن حبان من حديث أبي هريرة إلا أن الترمذي يروي الحديث بقوله : من كانت له امرأتان ولم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه مائل .

(123) حديث « كان يطاف به محمولاً » رواه ابن سعد في الطبقات من رواية محمد بن علي بن الحسين بقوله : « لما ثَقُل قال : أين أنا غداً ؟ قالوا : عند فلانة » . قال : فأين أنا بعد غد ؟ قالوا عند فلانة فعرف أزواجه أنه يريد عائشة . . . الحديث » . وللبخاري من حديث عائشة : كان يسأل في مرضه الذي مات فيه : أين أنا غداً ؟ يريد يوم عائشة ، فأذن له أزواجه أن يكون حيث شاء . وفي الصحيحين : لما ثقل استأذن أزواجه أن يمرض في بيته فأذن له .

(124) هذا الحديث رواه أبو داود من حديث عائشة ، كذلك رواه الطبراني والبيهقي . راجع احياء علوم الدين للغزالي ج 2 ، ص 45

كل شيء بالعدل والانصاف . ومهما اجتهد الرجل في إرضاء أزواجه فمن الصعب أن ينول مرامه ، فقد قيل لرجل من العرب كان يجمع بين الضرائر : كيف تقدر على جمعهن ؟ قال : كان لنا شباب يصابرهن علينا ، ثم كان لنا مال يصبّرهن لنا ، ثم بقي لنا خُلُق حسن ، فنحن نتعاشر به ونتعايش[125] ، وهذا من دقيق كلام العرب ، فهو يقول بعد ذهاب الشباب والمال بأنه اضطر إلى مداواتهن بالخلق الحسن كي يستمر التعايش . ويبقى الأمر في هذا المجال أن العدل بين النسوة واجب والظلم نهي عنه ومحرم وذلك بدليل قوله تعالى ﴿ وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴾ .

أما بالنسبة للنشوز (الخصام بين المرأة والرجل) . فالعدل مفقود عند الغزالي في هذا الباب . وهذا يعود بالطبع الى الاختلال العام الذي يحكم علاقة الرجل بالمرأة . فالعدل مندوب إليه بين النسوة ، أما بين الرجل والمرأة فالأمر مختلف ، لأن الرجال قوّامون على النساء . فإذا وقع خلاف ما بينهما ولم يقدر الرجل على إصلاح المرأة فلا بد من حكمين : أحدهما من أهله والآخر من أهلها لينظرا بينهما ويصلحا أمرهما . وذلك لقوله تعالى ﴿ إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما ﴾ سورة النساء الآية 35 ، أما إذا كان النشوز من المرأة خاصة ، وبما أن الرجال قوّامون على النساء ، فله أن يؤدبها ويحملها على الطاعة قهراً . ولكن ينبغي أن يتدرج في تأديبها : وهو أن يقدم أولاً الوعظ والتحذير والتخويف . فإن لم ينجح ولّاها ظهره في المضجع أو انفرد عنها بالفراش وهجرها وهو في البيت معها من ليلة الى ثلاث ليال . فإن لم ينجح ذلك فيها ضربها ضرباً غير مبرح ، بحيث يؤلمها ولا يكسر لها عظماً ولا يدمي لها جسم . ولا يضرب وجهها لأن ذلك مَنْهِيٌّ عنه[126] . وقد هجر رسول الله ﷺ أزواجه شهراً بعدما أرسل هدية الى زوجته زينب فردتها عليه . فقالت له التي هو في بيتها : لقد أقمأتك إذ ردَّت عليك هديتك[127] .

والواقع أن التأديب بحق المرأة وخاصة الضرب كان شائعاً في المجتمع العربي الاسلامي وذلك لسيادة « الذكورة » على الأنوثة كما أسلفنا ، وقد فخر بذلك القاضي شريح بن الحارث الكندي (ت سنة 80 هـ) وكان قد تزوج بزينب بنت حدير من نساء بني تميم وكانت من خيرة نساء العرب ، وما غضب عليها قط وكان له جار يقال له ميسرة بن عرير وكان لا يزال يضرب امرأته فقال القاضي شريح :

---

(125) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج 4 ، ص 81

(126) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 46

(127) حديث هجرة النبي لنسائه شهراً ذكره ابن الجوزي في الوفاء بغير إسناد . وفي الصحيحين من حديث عمر : كان أقسم أن لا يدخل عليهن شهراً من شدة موجدته عليهن . وفي رواية من حديث جابر : ثم اعتزلهن شهراً .

رأيت رجالاً يضربون نساءهم فشلّت يميني يوم أضرب زينبا
أأضربها في غير جُرم أتت به إليّ ، فما عذري إذا كنت مذنبا(128)

أما بالنسبة لهجرة النساء في المضجع فالأمر على ما يبدو نظري أكثر مما هو عملي ، لأن المشهور والشائع أن النساء هنّ اللاتي يعاقبن الرجال بهذه العقوبة ، وخاصة الحرائر منهن . ومن أشهر هذه النوادر ما كان بين عبد الملك بن مروان وزوجته عاتكة بنت يزيد بن معاوية ـ وأمها أم كلثوم بنت عبد الله بن عامر ـ فقد غضبت عليه ، فطلب رضاها بكل شيء ، فأبت عليه وكانت أحبَّ الناس اليه ، فشكا ذلك الى خاصته فقال له عمرو بن بلال : مالي عليك إن أرضيتُها ؟ قال : حكمك ، فخرج وجلس ببابها يبكي . . . فأذنت له وبينهما ستر فقال : قد عرفت حالي مع أمراء المؤمنين معاوية ويزيد ومروان وعبد الملك ؟ ولم يكن لي غير ابنين فعدا أحدهما على الآخر فقتله ، فقال أمير المؤمنين : أنا قاتل المعتدي ، قلت له : أنا وليُّ الدم وقد عفوت ، فأبى عليّ وقال : ما أحب أن أعوِّد رعيتي هذا ، وهو قاتله بالغداة ، فأنشدك الله إلا ما طلبته منه ، فقالت : لا أكلِّمه ، قال : ما أظنك تكسبين شيئاً هو أفضل من احياء نفس ، ولم يزل بها خواصها وخدمها وحاشيتها حتى قالت : عليّ بثيابي ، فلبست ، وكان بينها وبين عبد الملك باب ، وكانت قد ردمته ، فأمرت بفتحه ، ثم دخلت فأقبل الخصيُّ يشتد فقال : يا أمير المؤمنين ، هذه عاتكة ، قال : ويلك !! ورأيتها ؟ قال : نعم ، إذ طلعت وعبد الملك على سريره ، فسلّمت ، فسكت ، فقالت : أما والله لولا مكان عمرو بن بلال ما أتيتك ، آلله أن عدا أحد أبنيه على الآخر فقتله وهو وليّ الدم وقد عفا عنه أعزمت لتقتله ! قال : إي والله وهو راغم ، فأخذت بيده فأعرض عنها ، فأخذت برجله فقبّلتها ، فقال : هو لك ، وتراضيا بعد أن نكحها ثلاثاً . .(129) وقد طلب عمرو بن بلال ألف دينار ومزرعة بما فيها من الآلات والرقيق فأعطيت له ، وعندما بلغ عاتكة الخبر قالت : ويلي على القوّاد إنما خدعني(130) .

وقد أثبتنا هذه الرواية الطويلة لبيان ما كانت تمتع به حرائر الرجال المحظيات عندهم وما كان لهن من سلطان ، والمقصود في ذلك أن للمرأة سلطاناً على الرجل إن هي منعته نفسها وهجرته في المضجع لذلك قلنا بأن ما عرف في التاريخ واشتهر هو تأديب النساء للرجال بهجرهم ومنحهم أنفسهن ، وكان الجماع عند الرجل هو رسوله الى رضا المرأة ، ويحكي الأصمعي في هذا المجال أن إمرأة غاضبت زوجَها ، فجال عليها

---

(128) الأصبهاني ، الأغاني ، ج 17 ، ص 222-223

(129) المسعودي ، مروج الذهب ، ج 3 ، ص 118-119

(130) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج 4 ، كتاب النساء ، ص 97

يجامعها ؛ فقالت : لعنك الله ! كلما وقع بيني وبينك شر جئتني بشفيع لا أقدر على رده[130] . كذلك كانت لبعض الأعراب امرأة تُشارُّه[131] وقد كان أسنّ وامتنع من النكاح ، فقال له رجل : ما يُصلَحُ بينكما أبداً ؟ فقال : لا ، إنه قد مات الذي كان يُصلح بيننا (يعني ذكره)[132] .

ولعل أمر الخصام بين الرجل وزوجه أعقد وأوسع من أن يضبطه ضابط أو تحده سُنَّة أو شريعة لأن القلوب إن أحبت تغاضت عن السيئات وإن كرهت أبرزت المعايب ، وأخلاق الرجال وأمزجتهم ليست على حال واحدة والمرأة إذا ملكت قلب الرجل ملكت عقله ، وإذا ملّها قلبه فهو لا شك ينتحل الأعذار لمخاصمتها ، ومن طريف ما حكاه ابن قتيبة في هذا المجال أن أميراً من أمراء العراق مال الى امرأة رجل اختصما إليه وكانت المرأة حسنة المُنْتَقب قبيحة المسْفِر وكان لها لسان ، فقال الأمير : يعمد أحدكم الى المرأة الكريمة فيتزوجها ثم ليسيء إليها ، فأهوى الزوج فألقى النقاب عن وجهها ، فقال العامل : عليكِ اللعنة ، كلام مظلوم ووجه ظالم[133] . فكان جمال المرأة ودمامتها هما الناطقان بحقها ، فالجمال يغفر لها والقبح والدمامة يُبرزان مساوئها .

ط ـ الوقاع أو آداب الجماع : يذكر الغزالي في هذا الباب أدعية يستحب ذكرها أثناء الجماع لا داع لذكرها[134] . وسنقصر الحديث على ما يمكن اعتباره صالحاً ومفيداً لكل عصر وأوان ، فهو يوصي الرجل بغض الصوت والمرأة بالسكينة[135] . وكان العرب يكرهون للمرأة احداث صوت أو جلبة ، فقد رُوي أن امرأة كوفية دخلت على عائشة بنت طلحة فسألت عنها ، فقيل هي مع زوجها في القيطون ؛ فسمعت زفيراً ونخيراً لم يسمع قط مثله ، ثم خرجت وجبينها يتفصّد عرقاً ، فقلت لها : ما ظننت أن حرة تفعل مثل هذا ! فقالت : إن الخيل العتاق تشرب بالصفير[136] كذلك فقد أوصى بعدم التجرد . والتقدم بالتلطف بالكلام والتقبيل بقوله ﷺ : « لا يقعنّ أحدكم على امرأته كما تقع البهيمة ، وليكن بينهما رسول » ، قيل وما الرسول يا رسول الله ؟ قال : القبلة والكلام[137] . كذلك عليه إذا قضى وطره أن يتمهل على أهله حتى تقضي هي أيضاً

(131) المشارّة : المخاصمة ، يقال : فلان يشارّ فلاناً ويمارّه أي يعاديه ، ويروى بالتخفيف .
(132) المصدر السابق ، ص 50
(133) المصدر السابق ، ص 32
(134) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 46
(135) نفس المصدر .
(136) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج 7 ، ص 133 . والحديث بأن الرسول كان يغض صوته ويقول للمرأة « عليك بالسكينة » ، رواه الخطيب من حديث أم سلمة بسند ضعيف .
(137) هذا الحديث رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس .

نهمتها(138) . لأن القعود عنها قبل ذلك إيذاء لها . ويرى الغزالي أن على الرجل أن يجامع امرأته في كل أربع ليال مرة فهو أعدل ، إذ أن عدد النساء أربعة فجاز التأخير الى هذا الحد(139) ، إلا أن ذلك ليس قاعدة ثابتة بل ينبغي عليه أن يزيد أو ينقص بحسب حاجتها في التحصين . لأن تحصين المرأة واجب عليه . ويحرّم الغزالي أن يأتي الرجل المرأة في غير المأتى ، وأما قوله تعالى ﴿ فأْتوا حرثكم أنى شئتم ﴾ سورة البقرة آية 223 ، أي وقت شئتم . كذلك فإن غشيان المرأة الحائض حرام بالإضافة الى ضرره . ويروي الغزالي حديثاً مسنداً لعائشة أن باستطاعة الرجل أن ينام جُنباً(140) .

ويناقش الغزالي مسألة العزل واختلاف علماء في إباحتها أو كراهتها ، وقد ذهبوا في ذلك الى أربع مذاهب : فمن مبيح مطلقاً في كل حال ، ومن محرِّم بكل حال ، ومن قائل يحلّ برضاها ولا يحل دون رضاها ، وكأن هذا القائل يحرم الإيذاء دون العزل ، ومن قائل يباح في المملوكة دون الحرة . وبعد مناقشة هذه الآراء يصل الغزالي الى القول بأن الصحيح هو الإباحة(141) . وإن كان ذلك مكروهاً فالكراهية تطلق لنهي التحريم ولنهي التنزيه ولترك الفضيلة ، كما يقال : يكره للقاعد في المسجد أن يقعد فارغاً لا يشتغل بذكر أو صلاة ، ويكره للحاضر في مكّة مقيماً بها أن لا يحج كل سنة . وهو مباح لاختلافه عن الاجهاض والوأد (المحرمات) لأن ذلك جناية على موجود حاصل . ويذهب الغزالي ، بجرأة واضحة الى تأويل الأحاديث المنسوبة للنبي والتي تلمح الى النهي عن العزل فهو يقول في قول النبي : من ترك النكاح مخافة العيال فليس منا ثلاثاً(142) . بأن قوله ﷺ « ليس منا » أي ليس موافقاً لنا على سنتنا وطريقتنا وسنتنا فعل الأفضل . وبذلك يكون وفق هذا التفسير ترك العزل أفضل من العزل إلا أن هذا لا يستوجب استطراداً التحريم . وعن قوله ﷺ : « ذلك الوأد الخفي »(143) وقرأ ﴿ وإذا الموؤدة سئلت ﴾ سورة التكوير ، آية 8 . قلنا أن في الصحيح أخبار صحيحة في الإباحة(144) ، وأما قوله « الوأد الخفي » كقوله « الشرك الخفي » ، وذلك يوجب كراهة لا

---

(138) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 46

(139) نفس المصدر

(140) هذا الحديث أنه كان ينام جنباً لم يمسّ ماء رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة . وقال يزيد بن هارون : انه وهم ، ونقل البيهقي عن الحافظ الطعن فيه .

(141) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 47

(142) هذا الحديث رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس ، والبغوي في معجمه ، وأبو داود في المراسيل .

(143) هذا الحديث أخرجه مسلم من حديث جذامة بنت وهب .

(144) أحاديث إباحة العزل رواها مسلم من حديث ابي سعيد : انهم سألوه ﷺ عن العزل فقال : «لا عليكم أن لا تفعلوه » . ورواه النسائي من حديث أبي صرمة ، وللشيخين من حديث جابر : كنا نعزل على عهد رسول الله ﷺ . وزاد مسلم : فبلغ ذلك النبي فلم ينهنا .

تحريماً . أما ما ذكر عن ابن عباس : العزل هو الوأد الأصغر ، فإن الممنوع وجوده هو الموؤدة الصغرى . قلنا : هذا قياس منه لدفع الوجود على قطعه وهو قياس ضعيف . لذلك أنكره علي رضي الله عنه لما سمعه وقال : لا تكون موؤدة إلا بعد سبع ، أي بعد الأخرى سبعة أطوار . وتلا الآية الواردة في أطوار الخلقة وهي قوله تعالى ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ﴾ إلى قوله ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ سورة المؤمنون الآية 14 . أي نفخنا فيه الروح . ويرى الغزالي أن التفاوت ظاهر بين منصب علي وابن عباس في الغوص على المعاني ودرك العلوم .

ي ـ آداب الولادة :

في هذا الباب يبرز الغزالي بعض الجوانب الانسانية التي حث عليها الاسلام كأن لا يكثر المرء فرحه بالذكر وحزنه بالانثى(145) ، ومعلوم أن القرآن الكريم نهى عن ذلك .

وفي نطاق مناهضة الأفكار السائدة التي كانت تعتبر ولادة الانثى نذير شؤم ومصدر غيظ وحنق كثرت الأقوال التي تعد بالجزاء الحسن من يحتضن ابنته ويربيها ويعاملها معاملة حسنة . واعتبرت رعاية الانثى فضيلة يثاب عليها المرء وذلك لقوله ﷺ : « من كان له ابنة فأدّبها فأحسن تأديبها وغذّاها فأحسن غذاءها وأسبغ عليها من النعمة التي أسبغ الله عليه كانت له ميمنة وميسرة من النار أي الجنة(146) . ولا مجال لذكر هذه الأحاديث لكثرتها وتشابهها لكنها كما قلنا تجمع على الندب الى رعاية الأناث خير رعاية لما في ذلك من فضل وثواب وعافية .

ويوصي الغزالي بالختان ـ وهذه سنة إسلامية لا خلاف حولها ، وقد وردت أخبار عن وصية رسول الله بأن يكون الختان في اليوم السابع فقد ختن ﷺ الحسن والحسين وعقّ عنهما(147) .

وقد أصبح الختان مناسبة هامة للاحتفال والولائم عند أولي الأمر والميسورين فقد ذُكر أن الحجّاج أولم في اختتان بعض ولده فاستحضر بعض الدهاقين(148) يسأله عن ولائم الفرس ، وقال : أخبرني بأعظم صنيع شهدته ، فقال له : نعم أيها الأمير ، شهدتُ بعض مرازبة كسرى ، وقد صنع لأهل فارس صنيعاً أحضر فيه صِحاف الذهب على أخونة الفضة ، أربعاً على كل واحدٍ ، وتحمله أربع وصائف ، ويجلس عليه أربعة من

---

(145) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 49

(146) هذا الحديث أخرجه الطبراني في الكبير ، والخرائطي في مكارم الأخلاق .

(147) نفس المصدر السابق . والعقيقة هي الشاة التي تُذبح عن المولود يوم أسبوعه عند حلق شعره .

(148) جمع دهقان : بضم الدال وكسرها : معرب يطلق على رئيس القرية والتاجر وصاحب العقارات .

الناس ، فإذا طَعموا أُتبعوا أربعتُهم المائدة بصحافها ووصائفها . فقال الحجاج : يا غلام انحر الجزُرَ وأطعم الناس . وعلم أنه لا يستقِلٌ بهذه الأبهة . وكذلك كان(149) .

كذلك من واجب الرجل أن يسمي مولوده اسماً حسناً ، ويرى الغزالي ـ جرياً على العادة الاسلامية واستحساناً ـ أن أحب الأسماء هي التي تبدأ بعبد ، كعبد الله وعبد الرحمن ، وذلك لقوله ﷺ : « إذا سمّيتم فعبِّدوا »(150) . كذلك يرى الغزالي أن السقط يجب أن يسمى ، كذلك للمرء أن يُبدّل اسمه إن كان اسماً مكرهاً ، فقد أبدل رسول الله ﷺ اسم العاص بعبد الله(151) . كذلك كان اسم زينب برة ، فقال عليه السلام : تزكي نفسها فسماها زينب(152) .

وأوصى الرسول أيضاً في الولادة بالعقيقة عن الذكر بشاتين وعن الأنثى بشاة . كذلك من السنة أن يتصدق المرء بوزن شعر المولود ذهباً أو فضة . فقد ورد في الخبر أنه أمر فاطمة (ابنة الرسول) يوم سابع حسين (ابنها) أن تحلق شعره وتتصدق بزنة شعره فضة(153) .

ك ـ الطلاق :

في أحكام الطلاق ـ حسب الشريعة الاسلامية ، وكما يراها الغزالي إجحاف واضح بحق المرأة ، صحيح أيضاً أن الأعراف والتقاليد تدخلت في كثير من الأحيان للحد من هذا السيف القاطع المسلط فوق رقاب النساء ، إلا أنه بقي عنوان سيطرة الرجل على المرأة ، لأن الطلاق بشكل عام مباح ، صحيح أنه أبغض الحلال ، أو أبغض المباحات ، إلا أن ذلك لم يخفف من وطأته ، فهو ما دام حلالاً ومباحاً فلا بأس في ذلك . ولم ينص الاسلام على حكم واحد يحيل المباح حراماً ، فبقي الطلاق مباحاً بالاطلاق وقد استعمل في غالب الأحيان بالباطل ، لأنك لا تستطيع أن تقول للمرء أنك تؤذي المرأة بطلاقك إياها ، لأنه إما أن يتعلل بجناية من جانبها أو بضرورة من جانبه . وصحيح أن الله تعالى قال : ﴿ فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً ﴾ سورة النساء ، الآية 34 . أي أنكم لا تطلبوا حيلة للفراق ، ومع ذلك فإن الغزالي يرى طلاق المرأة إن كرهها أب الزوج . فقد قال ابن عمر بن الخطاب : كان تحتي امرأة أحبها وكان أبي يكرهها ويأمرني بطلاقها ، فراجعت رسول الله ﷺ ، فقال « يا ابن عمر طلّق

---

(149) ابن خلدون ، المقدمة ، ص 307

(150) هذا الحديث رواه الطبراني من حديث عبد الملك بن أبي زهير عن أبيه معاذ ، والبيهقي من حديث عائشة .

(151) هذا الحديث رواه البيهقي من حديث عبد الله بن الحارث ابن جزء الزبيدي .

(152) هذا الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة

(153) أخرجه الحاكم من حديث عليّ ، ورواه أحمد من حديث أبي رافع .

امرأتك »[154] . وهذا يدل على أن حق الوالد مقدّم . وإذا كان من حق الوالد إكراه ولده على الطلاق . فكم بالحري بالرجل نفسه أن يطلق امرأته إن كرهها أو مال عنها .

والتاريخ الاسلامي يشهد أن الطلاق كان من أيسر الأمور عند المسلم ، وخير شاهد على ذلك ما روي عن الحسن بن علي بن أبي طالب ، فقد كان مطلاقاً ومنكاحاً ، ووجّه بعض أصحابه ذات يوم لطلاق امرأتين من نسائه وقال : قل لهما اعتدا ، وأمره أن يدفع الى كل واحدة عشرة آلاف درهم ، ففعل ، فلما رجع اليه قال : ماذا فعلتا ؟ قال أما إحداهما فنكّست رأسها وتنكّست ، وأما الأخرى فبكت وانتحبت وسمعتها تقول : متاع قليل من حبيب مفارق ، فأطرق الحسن وترحم لها وقال : لو كنت مراجعاً إمرأة بعد ما فارقتها لراجعتها[155] ، كذلك فقد دخل الحسن ذات يوم على عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فقيه المدينة ورئيسها ولم يكن له بالمدينة نظير وبه ضَربت المثل عائشة رضي الله عنها حيث قالت : لو لم أسر مسيري ذلك لكان أحبّ الي من أن يكون لي ستة عشر ذكراً من رسول الله ﷺ مثل عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ؛ فدخل عليه الحسن في بيته ، فعظّمه عبد الرحمن وأجلسه في مجلسه وقال : ألا أرسلت إلي فكنت أجيئك ، فقال : الحاجة لنا . قال وما هي ؟ قال جئتك خاطباً ابنتك ، فأطرق عبد الرحمن ثم رفع رأسه وقال : والله ما على وجه الأرض أحد يمشي عليها أعز عليّ منك ، ولكنك تعلم أن ابنتي بضعة مني يسوءني ما ساءها ويسرني ما سرّها ، وأنت مطلاق ، فأخاف أن تطلقها ، وإن فعلت خشيت أن يتغير قلبي في محبتك وأكره أن يتغير قلبي عليك ، فأنت بضعة من رسول الله ﷺ ، فإن شرطت أن لا تطلقها زوّجتك ، فسكت الحسن وقام وخرج وقال بعض أهل بيته · سمعته وهو يمشي ويقول ، ما أراد عبد الرحمن إلا أن يجعل إبنته طوقاً في عنقي[156] . وكان الامام علي رضي الله عنه يضجر من كثرة تطليقه فكان يعتذر على الخبر ويقول في خطبته : إن حسناً مطلاقاً فلا تُنكحوه ، حتى قام رجل من همدان فقال : والله يا أمير المؤمنين لنُنْكحه ما شاء ، فإن أحب أمسك وإن شاء ترك ، فسر ذلك علياً وقال :

لو كنت بواباً على باب جنة لقلت لهمدان ادخلي بسلام[157]

ويستدل الغزالي من سيرة الحسن بن علي وقول أبيه أن الطلاق مباح في كل حال .

---

(154) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 51 . وحديث الأمر بالطلاق هذا رواه أصحاب السنن .
(155) الغزالي الاحياء ، ج 2 ، ص 51-52
(156) نفس المصدر .
(157) نفس المصدر .

وقد وعد الله تعالى الغنى في الفراق والنكاح جميعاً فقال : ﴿ وانكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ﴾ سورة النور الآية 32 . وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وإن يتفرقا يغن الله كلاً من سعته) سورة النساء الآية 130 .

وإذا لم يكن الطلاق دائماً إيذاء للمرأة ، لأن بعض حالات الطلاق كانت تعتبر لصالح المرأة بل ومن حقوق المرأة . لأن الاسلام أباح للمرأة طلب الطلاق لأسباب مشروعة ظاهرة ، فهو بهذا المنظار تشريعاً لصالح المرأة . وإذا تذكرنا بأن تشريعات القرآن التي تنص على فرائض للمرأة في الميراث والحقوق المضمونة . وهذه(158) الأحكام كما تقول جيرمين تيون كانت تمثل حين نزول القرآن أكثر التشريعات انتصاراً للمرأة(158) . فمع ذلك بقي وضع المرأة التَبعي للرجل ، لأن الطلاق استعمل بسهولة مفرطة كما سبق وأشرنا الى ذلك مع التحفظ دائماً على وضع المرأة كما نعرفه اليوم وما كان عليه في السابق ، فنحن اليوم نرى أن الأعراف والتقاليد حدّت من سيف الطلاق ، ولم يعد الرجل سيد الموقف في كل آن ، والطلاق اليوم لا ينظر إليه فقط من زاوية الحلال والحرام وحسب بل هو أمر ذو بعد اجتماعي لا يمكن استعماله بالسهولة التي كان يستعمل بها .

ومن أحسن ما روته العرب عن الطلاق وحب الوطن في رواية واحدة ما رواه الأصمعي قال : كان بالمدينة قاض يقال له : فلان بن(159) المطلب بن حنطب المخزومي قد أدركته (وأم المطلب : أخت مروان بن الحكم) خاصمت اليه امرأة زوجها ، وكانت قالت : أجعتني وأسأت إليّ ، والله ما تستطيع فئران بيتك أن يمشين من الجهد وما يقمن إلا على الوطن ! فقال : أنت طالق إن كنّ ما يقمن إلا على الوطن ، فخبرته بما قالت وقال ؛ فقال ابن المطلب يطلب له المعاذير : وربِّك إن الابل لتكون بالمكان الجديب الخسيس المرعى فتقيم به لحب الوطن ، فقال الزوج حين رآه يحتال لئلا يفرق بينهما : كأنما أشكلت عليك ، هي طالق عشرين(160) .

صحيح أن في الرواية معان سامية دقيقة عن حب الوطن ومع ذلك فهي تظهر سهولة الطلاق من قبل الرجل . وكان خالد بن صفوان (مر ذكره) يقول ما بتُّ ليلة أحب إليّ من ليلة طلّقت فيها نسائي ، فارجع والستور قد هتكت ، ومتاع البيت قد

---

(158) لويس غارديه ، أهل الاسلام ، ترجمة صلاح الدين برمدار دمشق 1981 . ص 105

(159) هو عبد العزيز بن المطلب بن عبد الله بن حنطب المخزومي كما ورد في تاريخ الطبري في ذكر حوادث سنة أربع وأربعين ومائة . (تاريخ الطبري ، طبعة أوروبا ، القسم الثالث ، ص 159) .

(160) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج 4 ، ص 124

نقل[161] . وحكي عن الفرزدق أنه شكى امرأته ذات يوم فقال له شيخ من بني مضر كان أسن منه : أفلا تكسَعُها بالُمحرجات ! (يعني الطلاق) ؛ فقال : قاتلك الله ! ما أعلمك من شيخ[162] .

وعن سهولة الطلاق وسيادة الرجل على المرأة بهذا الحق المباح ما تندّر به الأصمعي في بعض حديثه لهرون الرشيد « أن رجلاً من العرب طلّق في يوم خمس نسوة ، قال (الرشيد) : انما يجوز ملك الرجل على أربع نسوة ؛ فكيف طلق خمساً ؟ قال : كان لرجل أربع نسوة ، فدخل عليهنّ يوماً فوجدهن متلاحيات متنازعات ، وكان شنطيراً[163] ، فقال : الى متى هذا التنازع ؟ ما إخال هذا الأمر إلا من قبلك ـ يقول ذلك لامرأة منهن ـ إذهبي فأنت طالق ! فقالت له صاحبتها : عجلت عليها بالطلاق ، ولو أدبتها بغير ذلك لكنت حقيقاً ! فقال لها : وأنت أيضاً طالق ! فقالت له الثالثة : قبحك الله ، فوالله لقد كانتا إليك مُحسنتين ، وعليك مُفضلتين ! فقال وأنت أيتها المعدِّدةُ أياديَهما طالق أيضاً ! فقالت له الرابعة ، وكانت هلالية وفيها أناة شديدة : ضاق صدرك عن أن تؤدب نساءك إلا بالطلاق ! فقال لها : وأنت طالق أيضاً ! وكان ذلك بمسمع جارة له ، فأشرفت عليه وقد سمعت كلامه ، فقالت : والله ما شهدت العرب عليك وعلى قومك بالضعف إلا لما بَلَوْهُ منكم ووجدوه فيكم ، أبيت إلا طلاق نسائك في ساعة واحدة ! فقال : وأنت أيضاً أيتها المؤنِّبة المتكلفة طالق ، إن أجاز زوجكِ ! فأجابه من داخل بيته : قد أجزت قد أجزت[164] .

ولم يقتصر أسباب الطلاق على منازعات الزواج وأخلاق الرجال والنساء وما أحلته الشريعة بل تعدت ذلك في بعض الأحيان الى الأمور السياسية ، وكما كانت السياسة تدخل في بعض الأحيان كدافع للزواج ، كانت تلعب دوراً ما في الطلاق فقد روي « أن الحجاج أمهر ابنة عبد الله بن جعفر تسعين ألف دينار فبلغ ذلك خالد بن يزيد بن معاوية ، فأمهلَ عبد الملك (بن مروان) ، حتى إذا أطبق الليل دق عليه الباب ؛ فأذن له عبد الملك ، ودخل عليه فقال له : ما هذا الطروق أبا يزيد ؟ قال : أمرٌ والله لم يُنتظر له الصبح . . . . كيف تركت الحجاج وهو سهم من سهامك يتزوج الى بني هاشم ، وقد علمت ما يقال فيهم في آخر الزمان ؟ وكتب (عبد الملك) الى الحجاج

---

(161) نفس المصدر ، ص 127

(162) نفس المصدر .

(163) الشنطير : الفحاش

(164) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج 7 ، ص 112

بأمره بطلاقها وألا يُراجعَه في ذلك . فطلّـقها . فأتاه الناس يعزونه[165] .

يبقى أن نلاحظ أن هذا الإفراط في الطلاق له ظروفه الاجتماعية ولا شك ، فكما ن الزواج كان ميسّـراً لذوي الجاه والمال ، كذلك الطلاق فإنه لا يقدر عليه بمثـل هذه لسهولة التي ألمحنا اليها إلا كل ميسور . لأن دفع الصداق (حق المرأة عند الطلاق) غير ميسر لكافة الطبقات شأنه شأن مهر الزواج فقد حكى العتبي « أن رجلاً جاء بامرأة كأنها برج فضة ، إلى عبد الرحمن بن أم الحكم وهـو على الكـوفة ، فقـال : إن امرأتي هـذه شجّـتني ! فقال لها : أنت فعلتِ به ؟ قالت : نعم ، غير متعمّـدة لذلك ، كنت أعالج طيباً ، فوقـع الفهر من يـدي على رأسـه ؛ وليس عندي عقـل ، ولا تقوى يـدي على القصاص ! فقال عبد الرحمن للرجل : يا هذا ، علام تحبسها وقد فعلت بك ما أرى ؟ قال : أصدقتها أربعة آلاف درهم ، ولا تطيب نفسي بفراقها ! قال : فإن أعطيتها لك أتفارقها ؟ قـال : نعـم . قال : فهي لـك . قال هي طـالق إذاً ! فقال عبـد الرحمن : احبسي علينا نفسكِ »[165ب] . أي أنه إنما فعل ذلك يريد الزواج منها .

تبقى في نهاية الكلام عن الطلاق أنه كان وما زال سيفاً مسلطاً على رقاب النساء رغم تراجع استعماله طبقاً لاختلاف الأحـوال الاجتماعيـة والاقتصاديـة وتشدد رجـال الدين والمجتمع في اللجوء إليه ، وتعظيم أمره والتأكيد على أنه ـ وإن كان حلالاً ـ إلا أنه مبغض مكره عند الله . وهو كقول الرسول أبغض الحلال عند الله . ومهما قيل في تبريره إلا أنه يبقى على مر العصور إيذاء صريحاً للمرأة ولعله لذلك تشدد عيسى عليه السلام في أمره الى حد جعله صنو الزنا بقوله : « قد قيـل من طلّـق امرأتـه فليدفـع اليها كتـاب طلاق . أما أنا فأقول لكم من طلق امرأته إلاّ لعلّـة زنىً فقد جعلهـا زانية ومن تـزوّج مطلّـقة فقد زنى »[166] . وهذا تحريم واضح والحكمة وراءه التماسك العائلي والاجتماعي وعدم إيذاء المرأة ودفعها الى الزواج المتكرر ، وفي هذا حد من تسلط الـرجل وسيـادته المطلقة ، أما الشريعة الاسلامية فقد رأت أيضاً أن من الحكمة عدم إيذاء المرأة بحبسها في البيت ونفس الرجل تملها وتكرهها وما يستتبع ذلك من إيذاء وقهر وتعذيب وضرب ، لذلك قال الله تعالى في النساء : ﴿إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾ سورة البقرة ، الآية 229 .

4 ـ واجبات الزوجة وحقوق الزوج عليها .

لئلا نقع في التكرار فإن واجبات الزوجة مر ذكرها في الحديث عن واجبات الزوج

(165) نفس المصدر ، ص 115

(166) الكتاب المقدس ، العهد الجديد ، انجيل القديس متى ، الفصل الخامس ، الآيات 31-32

لتداخل الأمرين ، إلا أن المختصر في واجبات الزوجة ، أو الأمر الشافي على حد تعبير الغزالي أن النكاح نوع رق ، فهي (أي الزوجة) رقيقة له (للزوج)(167) . وبما أنه نوع رق فطاعة الزوج عليها مطلقة في كل ما طلب منها في نفسها مما لا معصية فيه . حتى وصل الأمر الى حد إضافة طاعة الزوج الى مباني الاسلام ، فقد ورد عن النبي ﷺ أن المرأة إذا صلت خمسها وصامت شهرها وحفظت فرجها وأطاعت زوجها دخلت جنة ربها(168) . وعن رسول الله أيضاً عن عائشة أن فتاة جاءت للنبي تقول : يا رسول الله إني فتاة أُخطب فأكره التزويج ، فما حق الزوج على المرأة ؟ قال : لو كان من فرقه الى قدمه صديد فَلَحَسَتْه ما أدت شكره(169) . وتبعاً لأولية الذكر على الأنثى فإن الأحاديث التي تعظم حق الزوج لا حد لها وهي غاية في تعظيم هذا الحق ومعظم هذه الأحاديث منسوبة للرسول كقوله إن من حق الزوج على الزوجة إن راودها عن نفسها وهي على ظهر بعير ألاّ تمنعه ، ولا تعطي شيئاً من بيته إلا بإذنه ، ومن حقه عليها أن لا تصوم تطوعاً ، فإن فعلت جاعت وعطشت ولم يتقبل منها ، ولا تخرج من بيته إلا بإذنه فإن فعلت لعنتها الملائكة ، وقوله : لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها ، وعليها أن تلزم قعر بيتها ، وصلاتها في البيت أفضل من صلاتها في المسجد ، والمرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان(170) ، عليها إذن أن تقعد في بيتها لازمة لمغزلها ، لا يكثر صعودها وإطلاعها ، قليلة الكلام لجيرانها ، ويتشدد الغزالي في أمر خروجها من البيت ويفضل لها إن اضطرت للخروج أن تخرج متخفية في هيئة رثة . تطلب المواضع الخالية ، تتحرز أن يسمع صوتها غريب ، ومن آداب الزوجة أن لا تتفاخر على زوجها بجمالها ولا تزدري زوجها لقبحه ، وعليها أن تلازم الانقباض في غيبة زوجها والرجوع الى اللذة والانبساط في حضوره ، وعليها أن لا تحد على ميت أكثر من ثلاثة أيام إلا على زوجها فعليها أن تحد أربعة أشهر وعشرة أيام . وعليها أن تقوم بكل خدمة في الدار تقدر عليها . وفي كل الأحوال عليها أن لا تؤذي زوجها في شيء أبداً .

5 ـ خلاصة وحكم

سبق وأشرنا في مقدمة هذا الفصل الى أن الامام الغزالي ندب الى النكاح لإدامة النسل ومنع الفاحشة وحسن التوجه نحو الخالق ، وألمحنا إلى أنه كان مدفوعاً دائماً بالحرص على سيادة الرجل على جميع شؤونه بما في ذلك استئناسه بالنساء ، وقد ألحّ في

---

(167) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 52

(168) هذا الحديث أخرجه ابن حبان من حديث أبي هريرة .

(169) هذا الحديث أخرجه الحاكم وصحح إسناده من حديث أبي هريرة .

(170) راجع الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 53

أكثر من موضع الى واجب الحيطة والحذر من النساء لأن مداعبة النساء ومعاشرتهن آفة من آفات الدنيا ولعلها أشدها . ورأينا أنه يحبذ للعازب القادر على ترك التزويج والانصراف الى الله تعالى عزوبته هذه والاستغناء عن الاشتغال بالنساء والعيال والأولاد وإطعامهم وإعالتهم .

وإذا كان لا بد من الزواج فليكن من امرأة فقيرة مؤمنة تعينه على دينه ولا تعين الدنيا عليه ، ولاحظنا أيضاً أن الغزالي حرص في معالجته لآداب الزواج على احترام المرأة من جانب خشية الله تعالى كي لا تُظلم . ومن ناحية ثانية عرض بعض الحقائق الاجتماعية السائدة التي تحط من قيمتها وقدرها مستنداً في ذلك الى أحاديث متواترة يصعب الأخذ بصحة معظمها .

والملاحظ أن الإمام الغزالي لم يبين بالتفصيل مخاطر نظام الخصيان الذي كان سائداً ، واكتفى بالإشارة اليه مرة أو مرتين في كتابه الهام « إحياء علوم الدين » معتبراً ذلك من أشد الكبائر(171) . كذلك لم يتطرق الى نظام السراري الذي كان سائداً في عصره وقبله وما أدخله هذا النظام من انقلاب خطير في حياة المسلمين الاجتماعية وأثره على الدين ، وظل الغزالي متوجهاً بالكلية نحو النساء الحرائر اللواتي عليهن أن يقرن في بيوتهن ، ولا يكلمن الرجال إلا من وراء حجاب ، ولا يخرجن الى الأسواق الا متخفيات بثياب رثة ، بينما كانت الاماء تتبرج وتتزين وتتأدب فضلاً عن اتقانها فن الغناء والرقص والمسامرة حتى أن خلفاء القرن الرابع الهجري كلهم أمهاتهم جوار صقلبيات ، وقد بين الجاحظ العلة التي من أجلها صار أكثر الإماء أحظى عند الرجال من أكثر المُهيرات بأن الرجل قبل أن يملك الأمة قد تأمّل كل شيء فيها وعرفه ، ما خلا خطوة الخلوة ، فأقبل على ابتياعها بعد وقوعها في نفسه(172) .

كذلك لم يشر الغزالي الى رأيه في الزواج من الأرامل وان كان قد أشار مرة بشكل عابر الى تفضيل الزواج من البكر(173) ، والمعروف أن الزواج من الأرامل مباح حسب الشريعة الاسلامية لكن العرف كان يسخطه ، وهذا يعزز ما ذهبنا اليه من أن أمور الآداب العامة توجهها أخلاق وعادات الأمم وتؤثر فيها أكثر ما تؤثر الشرائع وقد أشار الغزالي كما مر معنا مرتين الى هذه المسألة ، فالنبي سمح للنساء بارتياد المساجد بينما في

---

(171) راجع الاحياء للغزالي ، ج 3 ، ص 98

(172) راجع الحضارة الاسلامية لآدم متز ، ج 2 ، ص 180 ، وقول الجاحظ مأخوذ من كتابه : المصون مخطوط رقم 3138 . بالمتحف البريطاني بلندن ، ص 161

(173) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 35

أواخر القرن الخامس الهجري أصبح ذلك منكراً ، والنبي أمر النساء بعدم الخروج من خبائهن والغزالي يشير الى أن السائد (في عصره) هو خروج المرأة مع مراعاة الحشمة والأدب ، والمعروف أن السائد حتى اليوم السخط على زواج الأرملة ، ويستحسن المتشددون للمرأة الأرمل أن تترك التزويج بعد فقد زوجها فقد روي عن أن رجلاً امتحن كاتباً (في عهد الخليفة المعتصم في أوائل القرن الثالث الهجري) فسأله عن صديق تزوجت أمه هل تكتب إليه تهنئة أم تعزية ؟ فقال : هو إلى التعزية أقرب ، فقيل له كيف تعزيه ؟ فقال : لا أجد الى ذلك سبيلاً ، وأخيراً قال : يكتب له : « إن الأقدار تجري بخلاف محابّ المخلوقين ، وستر في عافية خير من شماتة في أهلها ؛ والله يختار للعباد ، فخارَ لك الله في قبضها إليه ، فإن القبور أكرم الأكفاء »(174) . كذلك كتب الخوارزمي (المتوفي عام 393 هـ ـ 1003 م) الى ابن مسكويه المؤرخ ، بعد أن تزوجت أمه : قد كنت أسأل الله أن يبارك لك في حياتها ، والآن أسأله أن يُعجّل بوفاتها ؛ فإن القبر أكرم صهر ، وإن الموت أستر ستر ، ولا تذهب نفسك حسرات على ما سبقك عليه الدهر . . . والحمد لله الذي كان العقوق من جهتها ، ووقوع الجفاء من جنبتها ، فإنك بَرَرْتها صغيراً ، وبلغت مرادها كبيراً ؛ فاجتمع لك بِران ، ووقع لك على الله أجران »(175) .

ولعل السبب في عدم تطرق الغزالي لهذه المسائل الاجتماعية هو انصرافه الكلي الى إحياء السنة النبوية والندب الى العودة الى أصول الدين الاسلامي وما اختزنه في بداية انطلاقته من طاقات روحية وأخلاق سامية ، لذلك لم يكن من المستغرب أن يلاحظ الغزالي أن السبب الرئيسي لما ساد عصره والقرنين الثالث والرابع للهجرة من فحش في القول والعمل يعود الى انفصال النساء عن الرجال في الحياة الاجتماعية ، لذلك ظلت المرأة ذلك اللغز المحيّر المسجونة في الخباء ، لذلك بالغ العربي في تحصينها وبالغ من ناحية أخرى في عدوانيته تجاهها ، وتبرز الأفعال العدوانية الموجهة للمرأة في مختلف مظاهر الحياة ، في ولادتها وتربيتها وزواجها وطلاقها ، في طريقة مخاطبتها وفي الأدبيات المأثورة دلائل ساطعة ، فإذا تزوجت رجلاً قيل : كانت فلانة تحت فلان ، وإذا طلقها قال : نزلتُ عنها ، وقد مر معنا ما قاله عبد الرحمن بن الحارث بن هشام للحسن بن علي عندما جاءه خاطباً ابنته بقوله : والله ما على وجه الأرض أحد يمشي عليها أعزّ عليّ منك . إلى غير ذلك من المحرمات التي فرضت عليها تعسفاً . إن هذا النظام الذي فصل المرأة عن المجتمع أخرج البدوي من عفافه وطهارته القديمين ، وسيطرت على

---

(174) البيهقي ، المحاسن والمساوىء ، الطبعة الأوروبية ، ص 449

(175) رسائل الخوارزمي ، طبعة القسطنطينية ، ص 173

الشعر والنثر والقول ألفاظ بذيئة مستمدة من المجون المتصل بالمسائل الجنسية ، وقد زاد الفحش حتى وصل الى الطبقات العليا من الحكام والوزراء والقواد ، حتى حُكي عن الوزير سليمان بن الحسن حوالي عام 319 هـ ـ 931 م أنه « أظهر من سخف الكلام وضرب الأمثلة المضحكة وإظهار اللفظ القبيح بين يدي الخليفة ما يجلّ الوزراء عنه ، فاستنقصه الخلق ، وهجاه الشعراء ، واستعظموا الوزارة لمثله »(176) . كذلك في أواخر القرن الرابع الهجري نجد أن الوزير الصاحب بن عباد يستعمل في شعره أفحش الأوصاف(177) ، وهذه الأوصاف غالباً ما تتصل بالحياة الجنسية السرية وتبرز عدوانيتها تجاه المرأة وما تمثل ، حتى وصل الأمر الى المجون الحقيقي عند شاعر كإبن الحجاج(178) .

ويبقى أخيراً أنه على الرغم من التناقض في النظرة للمرأة : التقديس المغالي والاهانة المفرطة ، فقد أبرز الغزالي ما يمكن اعتباره تخفيفاً من قسوة النظم الاجتماعية والشرائع التي كبّلت المرأة ودعا الى حسن معاملتها والرأفة بها ومداراتها ومنع الأذى عنها .

---

(176) عريب بن سعيد القرطبي ، صلة تاريخ الطبري : طبعة دي غوي ، ليدن 1897 ، ص 161
(177) الثعالبي ، يتيمة الدهر ، ج 3 ، ص 264 وما بعدها .
(178) نفس المصدر ، ج 3 ، ص 30 وما بعدها .

الفصل الثالث

آداب الإلفة والأخوة والصحبة

تمهيد :

سنـرى في هذا الفصـل بحثاً نفسـانياً عميقـاً لهذا الأدب (أدب الأخـوة والألفة والصحبة) ، وإن كان الغزالي يشترط كعادته أن تكون هذه الأخلاق الرفيعة موجهة في سبيل الله ورضوانه، إلا أننا نلاحظ بالإجمال أن بحثه كان بحثاً يعتمد « علم الأخلاق » إذا جاز القول و« علم النفس » ، ويقلل ما أمكنه ذلك الاعتماد على الأحاديث النبوية وسنة السلف ويعتمد أكثر فأكثر على التحليل النفساني ويورد استشهادات شعرية وينقل عن الانجيل والسيد المسيح أقوالاً في الأخوة والصحبة ، ويبيّـن معاني الأخوة وأسبـابها وأشرفها وأبقاها ، ويدعو الى التحاب والصحبة في سبيل الله ، كذلك يدعو الى البغض في الله (أي بغض العاصين الممقوتين عند الله) ويبين مراتب بغضهم وعداوتهم والتدرج في زجرهم والتضييق عليهم . ويحدد الغزالي الصفات التي يجب أن تتـوافر فيمن تُختـار صحبته ، ويدعو الى الابتعاد عن مصاحبة الحمقى والفاسقين والأشرار ويندب الى اختيار العقلاء المتدينين العلماء .

ويفصل الغزالي في هذا الفصل حقوق الأخوة والصحبة ، ذلك أن للصاحب حقاً على أخيه في المال والنفس وفي اللسان والقلب والاخلاص والوفـاء والعفو عن الـزلات والهفـوات وترك التكلف والتكليف . ويـذكـر في هـذا البـاب جملة من آداب المجالسة والعشرة مع أصناف الخلق ويستند في ذلك كما يقول إلى كلام بعض الحكماء .

ويختتم الغزالي هذا الفصل بباب يحدد فيه حقوق المسلم على أخيه المسلم (إن كان صاحباً أو لم يكن) وفي هذا الفصل تظهر الأخلاق السامية التي على المسلم أن يتحلى بها وهي تكاد أن تكون مغرقة في مثاليتها كما هي محكمة الاتساق ، وعلى المسلم أن يتحلى بها جميعاً ، ونكاد أن نقول بأنه من النادر أن يجمع هذه الخصال مؤمن مهما علت مرتبته وسمت روحه ، وهذا يذكر بقول قاله مجوسي في أيام أبي يزيد البسطامي عندما قيل له : «أسلِمْ» فقال لهم : إن كان استعمال الاسلام كما يستعمل أبو يزيد فلست أطيقه أنا وإن كان كما يستعملون ، قلت لا أشتهيه »[1] . وستظهر مدى صحة هذا القول عند تفصيل الحديث عن حقوق المسلم على أخيه المسلم . (وهذا جانب بسيط جداً من الاسلام) . كذلك يتحدث الغزالي عن حقوق الجوار وحقوق الأقارب والرحِم وحقوق الوالدين والولد ، وحقوق المملوك . وهذه النقطة الأخيرة هامة جداً لأنها تبين ما أعطاه الاسلام في ذلك الوقت لفئة من البشر شاءت لها الظروف الاجتماعية والتاريخية أن تكون مسترقة لفئة أخرى ، ومعروف أن الاسلام ساوى بين بني البشر ، إلا أن نظام الرق ظل معمولاً به برغم من حث الاسلام على تحرير رقاب الأرقاء ، والدعوة الى معاملتهم بالمعروف وعدم تكليفهم فوق طاقتهم .

1 ـ فضيلة الألفة والأخوة

يرى الغزالي أن الألفة والأخوة من الفضائل وهما ثمرة من ثمرات حسن الخُلُق كما أن التفرق ثمرة سوء الخلق[2] . وهذا عائد إلى نفسيات البشر فحسن الخلق يوجب التحاب والتآلف والتوافق وسوء الخُلُق يثمر التباغض والتحاسد والتدابر . ومن كان حسن الخلق فقد نعم بفضيلة ربانية وقد مدح الله سبحانه النبي محمد بقوله : (وإنك لعلى خلق عظيم) . سورة القلم ، آية 6 ، وقد قرن النبي في حديث له تقوى الله بحسن الخلق في قوله « أكثر ما يُدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق[3] . وقال أسامة بن شريك : قلنا يا رسول الله ما خير ما أعطي الانسان ؟ فقال : « خلق حسن » . وقال أيضاً « بعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق »[4] ، والأحاديث النبوية وآثار الصحابة والتابعين في الحث على الخلق الحسن والإلفة وانقطاع الوحشة والوصل والعفو والعطاء ، تطول ولا مجال للاستفاضة بذكرها وهي غالباً ما تكون مقرونة بذم التفرقة والزجر عنها وفي القرآن أن من أعظم نعم الله على المسلمين تأليف قلوبهم بقوله تعالى :

(1) عبد الرحمن بدوي ، شطحات الصوفية ، وكالة المطبوعات ، الكويت 1978 م، ص 123

(2) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 143

(3) هذا الحديث أخرجه الترمذي والحاكم من حديث أبي هريرة .

(4) حديث أسامة بن شريك أخرجه ابن ماجه بإسناد صحيح .

﴿ ولو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألّـفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ﴾ سورة آل عمران ، الآية 103 ، وقال ﴿ وأصبحتم بنعمته إخواناً ﴾ سورة آل عمران آية 103 ، أي بالإلفة ثم زجر عن التفرقة بقوله تعالى ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ﴾ سورة آل عمران آية 103 .

وشروط هذه المحبة والإلفة عند الغزالي أن تكون في محبة الله ، أي منزهة عن أعراض الدنيا وهو يرى ما يراه الرسول بأن أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله(5) . ويروي الغزالي أحاديث منسوبة للسيد المسيح فيقول بأن الله تعالى أوصى إليه : لو أنك عبدتني بعبادة أهل السماوات والأرض وحب في الله ليس وبغض في الله ليس ما أغنى عنك ذلك شيء(6) . ويقول أن السيد المسيح عليه السلام قال : تحببوا الى الله ببغض أهل المعاصي وتقربوا الى الله بالتباعد منهم والتمسوا رضا الله بسخطهم ، قالوا : يا روح الله فمن نجالس ؟ قال : جالسوا من تذكركم الله رؤ يته ومن يزيد في عملكم كلامه ومن يرغبكم في الآخرة عمله(7) . ومهما بدت في تعاليم المسيح دعوات للانسسان كي يحب عدوه ويحسن الى من أبغضه ويصلي له فإن الدعوة الحقيقية للسيد المسيح هي دعوته الى الحب في الله والبغض في الله ، وقد دعا الى ذلك بنبرة قوية ملؤها الإيمان ، قاطعة كحد السيف « من ينكرني قدام الناس أنكره أنا قدام أبي الذي في السموات ، لا تظنوا أني جئت لألقي على الأرض سلاماً ، لم آت لألقي سلاماً لكن سيفاً ، أتيت لأفرّق الانسان عن أبيه والابنة عن أمها والكنّة عن حماتها ، واعداء الانسان أهل بيته ، من أحبّ أباً أو أماً أكثر مني فلن يستحقني ، ومن أحبّ ابناً أو بنتاً أكثر مني فلن يستحقني . ومن لا يحمل صليبه ويتبعني فلن يستحقني(8) . هذه هي دعوة السيد المسيح الصريحة للمحبة في الله . من لا يحمل صليبه ويتبعني فلن يستحقني ، والى مثل ذلك حديث النبي محمداً أن رجلاً زار أخاً له في الله ، فأرصد الله له ملكاً فقال : أين تريد ؟ قال : أريد أن أزور أخي فلاناً ، فقال : لحاجة لك عنده ؟ قال : لا . لقرابة بينك وبينه ؟ قال: لا ، فبنعمة له عندك ؟ قال : لا . قال : فيم ؟ قال : أحبه في الله ، قال : فإن الله أرسلني إليك يخبرك بأنه يحبك لحبك إياه وقد أوجب لك الجنة(9) .

ويرى الغزالي أن الصحبة والمحبة تنقسم الى أقسام عدة كالصحبة بسبب الجوار أو بسبب الاجتماع في المكتب أو في المدرسة أو في السوق أو في الأسفار . وقد يحب الانسان

---

(5) هذا الحديث رواه أحمد من حديث البراء بن عازب والخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث ابن مسعود .

(6 و7) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 145

(8) الكتاب المقدس ، العهد الجديد ، انجيل القديس متى الآيات 33 -39

(9) هذا الحديث أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة .

أخيه الانسان لذاته أو لمنفعة أو وسيلة كمن يحب أستاذه أو شيخه الذي يلقنه العلم وهذا معروف ومألوف وليس منهياً عنه ، لكن درجة حب الله وفي الله هي أعلى الدرجـات ، لأن حب الله خالصاً يكون لا لأجر أو منفعة أو مال أو علم أو أي أمر وراء ذات المحبوب وهذه الدرجات سامية دقيقة غامضة . ومن أحب الله هذا الحب فلا بد أن يحب كل ما يتصل بمقامه . كذلـك من أحب إنسانـاً حباً شـديداً أحب محب ذلـك الإنسان وأحب محبوبه وأحب من يخدمه وأحب من يثني عليه محبوبه وأحب من يتسارع في رضا محبوبه حتى قال بقية بن الوليد : إن المؤمن إذا أحب المؤمن أحب كلبه(10) ، وقد قال مجنون بني عامر :

أمـر عـلـى الـديـار ديـار لـيـلى ... أقـبـل ذا الجـدار وذا الجـدار
ومـا حـب الـديـار شـغـفـن قـلـبـي ... ولـكـن حـب مـن سـكـن الـديـارا

2 ـ البغض في الله

من أحب في الله عند الغزالي لا بد أن يُبغض في الله لأن الانسان إن أحب إنساناً مـطيعاً لله محبـاً له لا بـد له أن يبغضـه إن عصى الله لأن ذلك ممقـوت عنده سبحـانـه وتعـالى(11) . ويرى الغـزالي أن هذا الحب والبغض متـلازمان لا ينفصـل أحـدهمـا عن الآخر ، أو بمعنى آخر تحكمهما علاقة جدلية لأن من أحبّ بسبب ما فبـالضرورة يَبغضُ لضده . والحب والبغض داء دفين في القلب كما يقول الغـزالي(12) ، وهو يتـرشح عنـد الغلبة ويترشح بظهور أفعال المحبين والمبغضين في المقاربةوالمباعدة وفي المخالفة والموافقة فـإذا ظهـر في الفعـل سمي مـوالاة ومعــاداة، والمعـاداة والمـوالاة واضحـة في حق من ظهرت طاعاته أو فسقه وفجوره وأخلاقه السيئة ، وإنما المشكل اذا اختلطت الطاعـات بالمعاصي فكيف تجتمع المحبة بالبُغض وهما متناقضان ؟ ومثال ذلك زوجة حسناء فاجرة أولد ذكرٍ خدوم لكنه فاسـق ، ويرى الغزالي في هذا المجال إعطاء كل صفة حـظها من البغض والحب والإعراض والإقبال والصحبة والقطيعة وسائر الأفعال الصادرة(13) .

أما القول بأن المسلم طاعته لازمة لاسلامه ، فالغزالي لا يرى ذلك ، بل إنه يُحب لاسلامه ويبغض لمعصيته . أما كيف يمكن إظهار البغض ، فذلك في درجات متفاوتة :

---

(10) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 150
(11) نفس المصدر ، ص 151
(12) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 151
(13) نفس المصدر .

أ ـ في القول بكف اللسان عن مكالمته ومحادثته مرة وبالإستخفاف والتغليظ في القول أخرى .
ب ـ في الفعل بقطع السعي في إعانته مرة وبالسعي في إساءته مرة وإفساد مآربه أخرى(14) .

أما المتشددون الذين يرون في إظهار البغض والهجر والأعراض وقطع الرفق والاعانة أقل الدرجات فالغزالي يرد عليهم بقول تظهر فيه الحكمة ومراعاة الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والدينية وحتى السياسية ، فهو يرى أن عمل كل واحد على ما يقتضيه حاله ووقته ، ويورد مثالاً على ذلك أن الذين شربوا الخمر وتعاطوا الفواحش في زمان الرسول والصحابة ما كانوا يُهجرون بالكلية ، فمنهم من كان يغلظ له القول ويظهر الاعراض والبغض له ، ومنهم من كان ينظر إليه بعين الرحمة ولا يؤثر المقاطعة والتباعد(15) . فهذه دقائق دينية تختلف باختلاف السالكين في طريق الآخرة .

أما بالنسبة للكافر فالغزالي يرى قتله إن كان محارباً أو الارقاق له وليس بعد هذين إهانة ، أما الذمي فلا يجوز إيذاؤه إلا بالإعراض عنه والتحقير له بالإضطرار الى أضيق الطرق ، وبترك مفاتحته بالسلام ، فإذا قال : السلام عليك ، فالواجب الرد عليه بـ : عليك . والأولى الكف عن مخالطته ومعاملته ومواكلته ، والانبساط معه والاسترسال اليه كما يسترسل الى الأصدقاء فهو مكروه كراهة شديدة ، ويذهب الغزالي الى القول بتحريم ذلك تصديقاً لقول الله تعالى : ﴿ ولا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم ﴾ سورة المجادلة آية 22 . ولقول الرسول « المسلم والمشرك لا تتراءى ناراهما »(16) . وقول الله عزّ وجلّ : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء ﴾ سورة الممتحنة آية 1 .

والملاحظ هنا أن الغزالي تشدد في أمر مخالطة أهل الذمة حتى وصل به الأمر الى حد القول بالتحريم ، ذلك أن أهل الذمة على الرغم من وجود التشريعات الكثيرة التي ضيّقت عليهم حرياتهم وواستهم في بعض الأحيان بالارقاء(17) ، إلا أنهم مع ذلك

(14) نفس المصدر .
(15) نفس المصدر .
(16) هذا الحديث رواه أبو داوود والترمذي من حديث جرير « أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين » قالوا : يا رسول الله لِمَ ؟ قال : لا تراءى ناراهما . ورواه النسائي مرسلاً وقال البخاري : الصحيح أنه مرسل .
(17) يقول آدم متز أن « اكبر ما كان يحرم منه أهل الذمة ويؤثر في نفوسهم تأثيراً عميقاً أنه لم يكن يسمح لهم بالتقدم للشهادة أمام القضاء ، كأنهم عبيد ، وذهب بعض الفقهاء إلى أنه لا يُقبل شهادتهم على أهل دينهم . (الحضارة الاسلامية ، ج 1 ، ص 95) .

خالطوا المسلمين وتقلدوا المناصب الرفيعة وعملوا بالكتابة ونادموا الوزراء والسلاطين ، ويعجب آدم متز أنه بالرغم من هذا الوضع الذي لم يكن طبيعياً لا نجد المؤرخين ، حتى المسيحيين منهم ، يذكرون إلا قليلاً من المشاغبات بين المسلمين وأهل الذمة في القرن الرابع الهجري . ويبدو أن النواهي عن مخالطتهم لم تكن ذات جدوى في كثير من الأحيان ، وهذا عائد الى أن أكثرهم كانوا من الكتّاب والعلماء والمترجمين والنقلة والأطباء ، وكان بينهم أيضاً شعراء وندمان ممن تلذّ وتفيد مخالطتهم ، ولعل أول نهي عن استعمالهم في أمور المسلمين كان نهي عمر بن الخطاب لأبي موسى عندما قال له : « ادع لي كاتبك ليقرأ لنا صُحُفاً جاءت من الشام . فقال أبو موسى : إنه لا يدخل المسجد . قال عمر : أبِه جَنابة ؟ قال : لا ، ولكنه نصراني . قال : فرفع يده فضرب فخذه حتى كاد يكسرّها ثم قال : مالك ! قاتلك الله ! أما سمعت قول الله عزّ وجلّ ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ﴾ ! ألا اتخذت رجلاً حنيفاً ! فقال أبو موسى : له دينه ولي كتابته . فقال عمر : « لا أكرمهم إذ أهانهم الله ولا أعزّهم إذ أذلّهم الله ولا أُدنيهم إذا أقصاهم الله »[19] . كذلك ذُكر أمام عمر غلام كاتب حافظ من أهل الحيرة وكان نصرانياً ، فقيل له : لو اتخذته كاتباً . فقال : لقد اتخذت إذاً بطانة من دون المؤمنين[20] . إلا أن الأمر لم يكن كما اشتهاه عمر بن الخطاب فوصل أهل الذمة الى أعلى المناصب في الدولة الاسلامية حتى قلد ديوان جيش المسلمين لرجل نصراني مرتين في أثناء القرن الثالث ، فوُجِّهَ اللومُ للوزير لأنه « جعل أنصار الدين وحماة البيضة يقبّلون يديه ويمتثلون أمره »[21] . كذلك اضطُرّ الخليفة المتوكل الى إصدار أمر بعدم الاستعانة بأهل الذمة في الدواوين وأعمال السلطان التي تجري أحكامهم فيها على المسلمين[22] . كذلك فعل الخليفة المقتدر . لكن أمره كان ضعيف الأثر الى درجة مضحكة كما يقول متز[23] . فقد كان وزيره أبو الحسن علي بن الفرات يدعو أربعة من النصارى الى طعامه كل يوم ، وكانوا في جملة الكتاب التسعة الذين اختص بهم[24] . وقائمة الكتاب والحكام من غير المسلمين طويلة لا مجال لذكرها ، ومن غريب الأمر أن المأمون ولّى على مدينة بورة بمصر عاملاً مسيحياً ، فكان إذا جاء يوم الجمعة لبس السواد وتقلد بالسيف والمنطقة ،

---

(18) آدم متز ، الحضارة الاسلامية ، ج 1 ، ص 109
(19) عيون الأخبار ، ج 1 ، ص 20
(20) نفس المصدر .
(21) الصابي ، كتاب الوزراء . بيروت 1904 م . ص 95
(22) تاريخ الطبري ، ج 3 ، ص 1389 ,139
(23) راجع آدم متز الحضارة الاسلامية ، ج 1 ، ص 107
(24) الصابي ، كتاب الوزراء ، ص 240

وركب برذوناً وقدّامه أصحابُه ، فإذا وافى باب المسجد وقف ودخل خليفته ، وكان مسلماً يصلي بالناس ويخطب للخليفة ، ثم يخرج إليه[25] . كذلك فقد أظهر خلفاء الفاطميين الأولون تسامحاً تجاه أهل الذمة ، فقد كان لهم أطباء من اليهود . كذلك في عهد العزيز بالله زاد بلاط الخليفة في إكرام النصارى ، وكان للعزيز اصهار مسيحيون وقد قال الشاعر الحسن بن بشر الدمشقي معرضاً بهذه الحالة :

تنصّرْ ، فالتنصر دين حق — عليه زماننا هذا يدلُّ
وقل بثلاثة عزّوا وجلّوا — وعطّل ما سواهم فهو عطل
فيعقوب الوزير أب وهذا — العزيز ابن وروح القدس فضل

ولما شكا الفضل إلى العزيز أمر هذا الشاعر وطلب معاقبته امتعض منه ، إلا أنه قال : أعف عنه ، فعفا عنه[26] .

وبعيداً عن الدواوين والبلاطات فقد كان المسلمون يتقربون من مشاهير أهل الذمة ، فقد كان الأخطل شاعر بني أمية ، وقدم يوماً الى الكوفة ، وكان سعيد بن بيان التغلبي سيد بني تغلب وكانت تحته برّة[27]، وكانت من أجمل النساء ـ قد دعاه واحتفل ونجدّ بيوته واستجاد طعامه وشرابه ، فلما شرب الأخطل جعل ينظر إلى وجه برّة وجمالها ، والى وجه سعيد وقبحه ؛ فقال له سعيد : يا أبا مالك ، أنت رجل تدخل على الخلفاء والملوك فأين ترى هيئتنا من هيئتهم ؟ فقال الأخطل : ما لبيتك عيب غيرك ؛ فقال سعيد : أنا والله أحمق منك يا نصراني حين أدخلك منزلي ، وطرده . فخرج الأخطل وهو يقول :

وكيف يداويني الطبيب من الجوى — وبرّة عند الأعور ابن بيان
فهلّا زجرت الطير إذ جاء خاطباً — بِضِيقة بين النجم والدَّبَران[28]

وعلى العموم تبقى للمخالطة أسباب ودواع لا يحصرها حصر ولا تحدها شرائع ، وكانت أواصر الاختلاط تقوى وتضعف حسب متعرجات الحياة الاجتماعية والسياسية والدينية .

وليست معاداة الذمي أشد العداوات في الله عند الغزالي ، بل إن المسلم المبتدع

---

(25) راجع آدم متز ، الحضارة الاسلامية ، ج 1 ، 108 -109
(26) ابن الأثير ، ج 9 ، ص 82
(27) هي برة بنت أبي هانىء التغلبي .
(28) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج 4 ، ص 34 -35 . وضيقه كما ورد في لسان العرب (مادة ضيق) : منزلة للقمر بلزق الثريا مما يلي الدبران وهو مكان نحس على ما تزعم العرب ، ثم استشهد بهذا البيت .

الذي يدعو الى بدعته ، وهذه البدعة يكفر بها فأمره أشد من الذمي[29] . والأمر في الانكار عليه أشد منه على الكافر لأن شر الكافر غير متعدٍ . فإن المسلمين اعتقدوا كفره فلا يلتفتون الى قوله إذ لا يدّعي لنفسه الاسلام واعتقاد الحق . أما المبتدع فهو يدعو الى البدعة ويزعم أن ما يدعو إليه حق وهذا سبب لغواية الخلق وبذلك يكون شرّه متعدٍّ بخلاف شر الذمي الذي لا يتعدى ذاته ، ومعلوم أن الغزالي من أتباع الامام الشافعي (ت 254 هـ / 820 م) والبدعة عند الشافعي كفر وضلالة لأن القرآن أحاط بكل شيء ، ما كان وما يكون ، وعلم كل شيء ما كان وما يكون . وقد فرض الله في كتابه اتباع سنة نبيه ، لذلك يرى الشافعي أنه « ليس لأحد أبداً أن يقول في شيء حل ولا حرم إلا من جهة العلم ، وجهة العلم الخبر في الكتاب والسنة ، أو الإجماع أو القياس »[30] .

ويرى أدونيس أن تنظير الشافعي للثقافة الاسلامية والعربية قائم على اعتبار القرآن والسنة أصلها الكامل والثابت ، وأن كل فهم لما يحدث بعد هذا الأصل يجب أن ينبثق منه انبثاق الفرع . .[31] والمعرفة الأولى (القرآن والسنة) وهي بتوجه الى الجماعة لا الى الفرد. وهذا يعني أن المعرفة اللاحقة لا تصح إلا إذا كانت جماعية[31ب] . لذلك يعتبر كل من أبعد خارج أطر الجماعة أو ما اتفقت عليه الجماعة خارجاً (من هنا لفظ الخوارج) أو مرتداً أو ملحداً أو زندقياً .

لذلك يرى الشافعي للمشتغل بأمور الدين والسياسة أن يتبع مشيئة الله الأزلية باتباع القرآن والسنة والقياس والاجماع في الفقه ، وقد حدد الغزالي بعد ذلك تعريفاً للفقيه تجاوز فيه الإمام الشافعي عندما رأى أن للفقيه « أن يكون عالماً بقانون السياسة وطريق التوسط بين الخلق إذا تنازعوا بحكم الشهوات . فكان الفقيه معلم السلطان ومرشده الى طريق سياسة الخلق وضبطهم لينتظم باستقامتهم أمورهم في الدنيا »[32] . وهكذا تكون المعرفة حسب المذهب الشافعي مكتملة منذ صدور الوحي ، فلا حاجة الى معرفة جديدة . بل إن المعرفة هي فن الفهم لما سبق ، لذلك يعتبر المبتدع وفق هذا المذهب أخطر من الكافر الذي لا يدعي الاسلام . وإذا كان الشافعي قد أقرّ في عصره كل ما هو راهن وأفتى بعدم جواز الخروج على الخليفة وتفضيل الحاضر واعتباره أفضل ما يمكن وكل ما يؤدي الى هدم هذا الواقع أمر يناقض القانون الطبيعي والقانون الإلهي في

---

(29) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 154

(30) الرسالة ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، مطبعة البابي الحلبي ، القاهرة . 1940 م ، ص 39

(31) أدونيس ، الثابت والمتحول ، دار العودة ، بيروت 1977 ، الكتاب الثاني ، ص 26 وما بعدها .

(32) محمد أبو زهرة ، تاريخ المذاهب الاسلامية ، دار الفكر العربي ، دون تاريخ ، ج 2 ، ص 252

آن . لذلك أيضاً يعتبر الخارج على رأي الجماعة (أي المبتدع) كافراً وكفره أشد من كفر الذمي . إذن المبتدع يستحق البغض في الله ويُقبح السكوت عنه وزجره وتنفير الناس عنه وتقبيح بدعته واجب على المسلم . أما المبتدع **العامي** أي الذي لا يقدر على الدعوة ولا يُخاف الاقتداء به فأمره أهون والأولى أن لا يقابح بالتغليظ والاهانة(33) ، بل يُتلطف به في النصح فإن قلوب العوام سريعة التقلب ، فإن لم ينفع النصح فالأولى الاعراض عنه ، كما أن الاعراض والاهانة والتقبيح لمرتكبي الكبائر كالظلم والغصب وشهادة الزور والغيبة والنميمة ، كذلك الاعراض عن الفاسقين كشاربي الخمر وتاركي الواجبات .

3 ـ شروط الصحبة

للصحبة فوائد دينية ودنيوية ، أما الدنيوية فهي كالانتفاع بالمال أو الجاه أو مجرد الإستئناس بالمشاهدة والمجاورة ، وهذه طبعاً ليست من أغراض الغزالي ولا يجب الالتفات اليها ، أما الفوائد الدينية ففيها أغراض مختلفة وعلى رأسها الاستفادة من العلم والعمل وكل ما يؤدي الى التوجه الكلي لعبادة الله . أما شروط الصاحب فتتلخص بخمس خصال : أن يكون **عاقلاً** و**حسن الخلق وغير فاسق ولا مبتدع ولا حريص على الدنيا**(34) .

ويرى الغزالي أن العقل هو رأس المال وهو الأصل ولا خير في صحبة الأحمق لأن عاقبتها الوحشة والقطيعة وإن طالت . والأحمق قد يضرك وهو يريد نفعك وإعانتك من حيث لا يدري . وقد بالغ البعض في الندب الى مقاطعة الأحمق حتى عد ذلك قرباناً إلى الله ، وعن الثوري أنه قال : النظر إلى وجه الأحمق خطيئة مكتوبة . وتظهر أفعال الأحمق غالباً دون أن يقصد إتيانها ، فمن الأخبار أن رجلاً عادَ مريضاً فنعى رجالاً اعتلّوا مثل عِلّته ، فقال له : إذا دخلت على مريض فلا تنعَ إليه الموتى ، وإذا خرجت من عندنا فلا تعد إلينا(35) . لذلك قيل في ذلك أن عيادة النّوكى(36) أشد على المريض من وجعه(37) .

والصديق الأحمق متقلب المزاج سريع العطب ، يوقعك في حيرة من أمرك لا تدري وجهاً سليماً لمعاملته لذلك كتب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر رسالة لأحد أصدقائه يشكو فيها تقلبه من حال لحال بقوله : « أما بعدُ ، فقد عاقني الشك فيك عن عزيمة الرأي في أمرك ؛ ابتدأتني بلطف من غير خبرة ، ثم أعقبتني جفاء من غير

(33) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 154
(34) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 155
(35) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج 3 ، ص 44
(36) النوكي : جمع أنوك وهو الأحمق .
(37) نفس المصدر .

ذنب ؛ فأطمعني أوّلُك في إخائك ، وآيسني آخرك من وفائك ؛ فلا أنا في غير الرجاء مُجمع لك اطِّراحا ، ولا أنا في غد وانتظاره منك على ثقة ؛ فسبحان من لو شاء كشف بإيضاح الرأي في أمرك عن عزيمة الرأي فيك ، فأقمنا على إئتلاف ، أو افترقنا على اختلاف(38) . وفي مجانبة الجهال قال أبو قبيل : أسرت ببلاد الروم فأصبت على ركن من أركانها :

ولا تصحب أخا الجهل   وإياك وإياه
فكم من جاهل أردى   حليماً حين آخاه
يقاس المرء بالمرء   إذا ما هو ماشاه
وللشيء على الشيء   مقاييس وأشباه
وللقلب على القلب   دليل حين يلقاه (39)

ومثل ذلك يقول عديّ بن زيد :

عن المرء لا تسأل وأبصر قرينه   فإن القرين بالمقارن مقتدي(40)

وإذا كمل عقل الصاحب فلا بد له من حسن الخلق « إذ ربّ عاقل يدرك الأشياء على ما هي عليه ، ولكن إذا غلبه غضب أو شهوة أو بخل أو جبن أطاع هواه وخالف ما هو المعلوم عنده لعجزه عن قهر صفاته وتقويم أخلاقه »(41) . ومن كان كذلك فلا خير في صحبته لأنك لن تأمن من أخوته أبداً وفي ذلك يقول عبد الرحمن بن حسان :

لا خير في الودّ ممن لا تزال له   مستشعراً أبداً من خيفة وجلاَ
إذا تضبّب لم تبرح تسيء به   ظناً وتسأل عما قال أو فعلاَ(42)

أما الفاسق فلا خير في صحبته أيضاً « لأن من يخاف الله لا يصرّ على كبيرة ومن لا يخاف الله لا تؤمن غائلته ولا يوثق بصداقته بل يتغير بتغير الأعراض »(43) .

---

(38) نفس المصدر . ص 76

(39) نفس المصدر ، ص 79

(40) ورد هذا البيت في حماسة البحتري (ص 307 طبعة أوروبا) بلفظ : « وسل عن قرينه » وكتب بهامشه : « خ : وأبصر قرينه » إشارة الى نسخة أخرى . وورد هذا البيت في ديوان طرفة بن العبد (ص 153 طبع مدينة شالون سنة 1900 م) ضمن الأبيات المنسوبة اليه . والراجح أنه لعدي بن زيد من داليته المشهورة ، وهي من مجمهرات أشعار العرب التي ذكرها أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي في كتابه : « جمهرة أشعار العرب » (ص 102 طبعة بولاق) . وذكر هذا البيت ابن قتيبة ونسبة الى عديّ بن زيد (عيون الأخبار ، ج 3 ، ص 97) .

(41) الغزالي ، الأحياء ، ج 2 ، ص 156

(42) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج 3 ، ص 77

(43) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 156

وقد نهى القرآن الكريم عن مخالطة من اتبع هـواه (أي الفاسق) وذلـك بقولـه تعالى : ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتّـبع هواه ﴾ سـورة الكهف ، آية 28 ، كذلك قال تعالى : ﴿ فأعرض عمن تولى عن ذكرنـا ولم يُرد إلا الحيـاة الدنيـا ﴾ سورة النجم آية 29 ، ومفهوم ذلك زجر عن اتباع الفاسق . وقـد قال سعيـد بن المسيّـب : عليك باخوان الصدق تعش في أكنـافهم فإنهم زينـة في الرخـاء وعدة في البـلاء . . . . واعتـزل عدوك واحـذر صديقـك إلا الأمين من القـوم ولا أمين إلا من خشي الله فـلا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره ولا تطلعه على سرك واستشر في أمرك الذين يخشون الله تعالى(44) . أما المبتـدع فقد سبق الحـديث عن أمر مخـالطتـه وردعه . وقـد جمع علقمـة العطاردي خصال الصاحب الجيد في وصيته لابنه حين حضرته الوفاة بقوله : « يا بني إذا عرضت لك الى صحبة الرجال حاجة فاصحب من إذا خدمته صانك وإن صحبته زانك وإن قعدت بك مؤنة مانك ، إصحب من إذا مددت يدك بخير مدّها وإن رأى حسنـة عدّها وإن رأى سيئة سدّها ، إصحب من إذا سألته أعطاك وإن سكتّ ابتداك وإن نزلت بك نازلة واساك ، إصحب من إذا قلت صدّق قولك وإن حاولتما أمراً أمّرك وإن تنازعتما آثرك » . وعندما قال المأمون فأين هذا ؟ قيل له : أتدري لم أوصاه بذلك ؟ قال: لا . قال : لأنه أراد أن لا يصحب أحداً(45) .

ويرى الغزالي أخيراً أن على المرء إن لم يجد رفيقاً يؤاخيه فالوحـدة أولى به ، لأن الوحدة خير من جليس السوء كما أن الجليس الصالح خير من الوحدة ، والحـريص على الدنيا صحبته سم قاتل لأن الطباع مجبولة على التشبـه والاقتداء . لـذلك تُكـره صحبة طلاب الدنيا ويستحب صحبة الراغبين في الآخرة . وقد أوصى لقمان ابنه بقوله : « يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فإن القلوب لتحيـا بالحكمـة كما تحيـا الأرض الميتة بوابل المطر »(46) .

4 ـ حقوق الأخوة الصحيحة

يعظم الغزالي رابطة الأخوة حتى يجعلها عقداً كعقد النكاح بين الزوجين ، لذلك اقتضى عقد الأخوة حقوقاً واجبة كما اقتضى عقد النكاح حقوقاً يجب الوفاء بها ، وحقـوق الأخوة يجملهـا الغزالي بـالقول أن « لأخيـك عليك حق في **المـال والنفس** وفي **اللسان** والقلب بالعفو والدعاء وبالإخلاص والوفاء وبالتخفيف وترك التكلف والتكليف وذلك يجمعه ثمانية حقوق (47) .

(44) و(45) نفس المصدر .

(46) نفس المصدر ، ص 157

(47) نفس المصدر .

أ ـ الحق الأول ـ في المال :

في الحديث النبوي أن « مثل الأخوين مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى » . وإنما شبههما باليدين لا باليد والرجل لأنهما يتعاونان على غرض واحد ، وهكذا الأخوان عند الغزالي إذا ترافقا في مقصد واحد منهما من وجه كالشخص الواحد ، وهذا يقتضي المساهمة في السراء والضراء والمشاركة في المال(48) . وقد عظم السيد المسيح عليه السلام في تعاليمه حق الأخوة تعظيماً شديداً حتى أنه جعل غضب الأخ على أخيه أمراً يستوجب الدينونة ، ومن قال له يا أحمق فهو يستوجب نار جهنم(49) . ولئن أكرم المرء أخيه بالمال فهو لا بد يدّخر صحبته لأيام الشدة ، وفي ذلك يقول ابن الأعرابي :

لعمرك ما مالُ الفتى بذخيرة ولكن إخوان الثقات الذخائر(50)

وكان أيوب السختياني يقول : إذا بلغني موت أخ لي فكأنما سقط عضو مني(51) . ويرى الغزالي أن حق الأخ في المال أن تنزله منزلة نفسك وترضى بمشاركته إياك في مالك ونزوله منزلتك ، أما الرتبة العليا التي لا يبلغها إلا الصديقون فمن ثمارها الايثار بالنفس(52) ، والتضحية بالغالي والنفيس حتى أنه روي في حديث طويل أن جماعة من الصوفية سُعِي بهم لدى بعض الخلفاء فأمر بضرب رقابهم وفيهم أبو الحسين النوري فبادر السياف ليكون هو أول مقتول ، فقيل له في ذلك فقال : أحببت أن أؤثر إخواني بالحياة في هذه اللحظة ، فكان ذلك سبب نجاتهم جميعاً . وقال الامام علي بن الحسين (زين العابدين) لرجل : هل يدخل أحدكم يده في كم أخيه وكيسه فيأخذ منه ما يريد بغير إذنه ؟ قال : لا . قال : فلستم باخوان(53) . وحكايات الإيثار تطول وإن كانت لا تخلو من المبالغة إلا أن من أدرك فعلاً أسرار لذات الصحبة والأخوة لا يعجب من حكايات تبرز فرح الإخوان عندما يتفضلون بما يملكون على أخوانهم .

ب ـ الإعانة بالنفس في قضاء الحاجات

الإعانة بالنفس في قضاء الحاجة من حقوق الصحبة والأخوة ويرى الغزالي في هذا الحق أنه درجات أدناها القيام بالحاجة عند السؤال والقدرة ، ويشترط الغزالي في ذلك القيام بالحاجة مع « البشاشة والإستبشار وإظهار الفرح »(54) . وقد قيل لبعضهم إذا

---

(48) نفس المصدر .

(49) راجع انجيل القديس متى ، الآية 33

(50) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج 3 ، ص 2

(51) نفس المصدر .

(52) الغزالي ، الاحياء ، ج 3 ، ص 4

(53) و (54) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص ص 158 ، 159

استقضيت أخاك حاجة فلم يقضها فذكره ثانية فلعله أن يكون قد نسي فإن لم يقضها فكبر عليه واقرأ هذه الآية : ﴿ والموتى يبعثهم الله ﴾ سورة الأنعام الآية 63 ، وقضى ابن شبرمة حاجة لبعض إخوانه كبيرة فجاء بهدية فقال : مَا هذا ؟ قال : لما أسديته إلي ؟ فقال : خذ مالك عافاك الله ، إذا سألت أخاك حاجة فلم يجهد نفسه في قضائها فتوضأ للصلاة وكبّر عليه أربع تكبيرات وعدّه في الموتى[55] . وكان في السلف من يتفقد عيال أخيه وأولاده بعد موته أربعين سنة يقوم بحاجتهم ويتردد كل يوم اليهم ويمونهم من ماله . ويذكّر الغزالي « محيي علوم الدين » المسلمين دائماً بأخلاق وعادات السلف محاولاً حث الناس على العمل بما كانت عليه سنة النبي وصحابته والسلف من الصالحين ، وهو يرى أنه ينبغي أن تكون حاجة أخيك مثل حاجتك أو أهم من حاجتك ، وأن تتفقد أخيك في أوقات حاجته ولا تتغافل عنه ، وإذا كانت إجابة الحاجة عند السؤال من أدنى الواجبات فحقوق الأخوة تقتضي إغناء أخيك عن السؤال ، وأن تقوم بحاجته **وكأنك لا تدري أنك قمت بها** ،[56] ولا ترى لنفسك حقاً بسبب قيامك بها ولا ينبغي أن تقتصر على قضائها بل عليك أن تجتهد بالإكرام في الزيادة والإيثار وحتى التقديم على الأقارب والولد . هذه هي الأخلاق التي يجب على المرء أن يتمنطق بها حيال إخوانه ، وقد حكى ابن قتيبة عن عمرو بن بحر (الجاحظ) عن ابراهيم السندي قال : قلت في أيام ولايتي الكوفة لرجل من وجوهها ، كان لا يجف لِبْدُه[57] ولا تسكن حركته في طلب حوائج الرجال وإدخال المرافق على الضعفاء وكان رجلاً مفوّهاً . خبرني عن الشيء الذي هوّن عليك النَّصَبَ[58] وقواك على التعب ما هو؟ قال : قد والله سمعت تغريد الطير بالأسحار ، في أفنان الأشجار ؛ وسمعت خفق أوتار العيدان ، وترجيع أصوات القيان الحسان ، ما طربت من صوت قط طربي من ثناء حسن بلسان حسب على رجل قد أحسن ، ومن شكر حرٍّ لمنعم حرٍّ ، ومن شفاعة محتسب لطالب شاكر . قال ابراهيم : فقلت : لله أبوك لقد حُشيت كرماً فزادك الله كرماً[59] .

وإن كان الغزالي يرى من حق الصحبة والأخوة قضاء الحاجة قبل أن يسألها صاحبها فإن عبد الملك بن مروان قال لعمرو بن عتبة عندما كلمه في أشياء كان يعطيها لآل أبي سفيان فقطعها عنهم لتباعد كان بينه وبين خالد بن يزيد بن معاوية : إنما يستحق

(55) نفس المصدر .
(56) نفس المصدر .
(57) اللِبْد : جمع لبود وألباد : البساط من صوف أو ما يُجعل على ظهر الفرس تحت السرج ، ويقال : فلان لا يجف لِبده : أي لا يزال مرتحلاً مسافراً . (المنجد في اللغة والاعلام ، مادة لبد) .
(58) النَّصَب : العناء ، ومعناه أن الانسان لا يزال منتصباً حتى يُعْيي . (نفس المصدر) .
(59) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج 8 ، ص 121

عطيتي من استعطاها ، فأما من ظن أنه يستغني بنفسه فسنَكِلُه إليها .

وعندما بلغ خالد بن يزيد ذلك قال : أوبالحرمان يتهددني ! يد الله فوق يده مانعة ، وعطاؤه دونه مبذول(60) .

وقضاء الحاجة بالاجمال من كرم النفس وعلو الهمة . والمعروف أن لا أحد يطلب حاجة من لئيم ، لأن نفسه لا تسمح له بقضائها ، وقد مر معنا كم ذمت العرب اللئيم البخيل المانع للخير ، أما التثقيل بالسؤال والإلحاح في الطلب فمكروهان مستقبحان ، وقد ذكر أبو اليقظان عن بني ربيعة في مجال التعريض بأنهم كانوا يوصون أولادهم بقولهم : « استعينوا على الناس في حوائجكم بالتثقيل عليهم ، فذاك أنجح لكم »(61) .

وبما أن العرب أهل صناعة في اللفظ والكتابة ولطيف الكلام ، فقد درجت العادة على تقديم طلب الحاجة بكلام منمق لطيف يجتهد في حسن إخراجه من الفصاحة والجزالة وحسن الاختيار ، ومن أمثلة ذلك أن نفراً من الأعراب قدموا على زياد فقام خطيبهم فقال : أصلح الله الأمير ، نحن وإن كانت نزعت بنا أنفسُنا إليك وأنضينا ركائبنا نحوك التماساً لفضل عطائك ، عالمون بأنه لا مانع لما أعطى الله ولا مُعْطي لما منع ، وإنما أنت أيها الأمير خازن ونحن رائدون ، فإن أذِن لك فأعطيت حَمِدْنا الله وشكرناك ، وإن لم يؤذن لك فمنعت حمدنا الله وعذرناك ، ثم جلس ؛ فقال زياد لجلسائه : تالله ما رأيت كلاماً أبلغ ولا أوجز ولا أنفع عاجلة منه ، ثم أمر لهم بما يصلحهم(62) .

يبقى في هذا الباب أن ألطف ما أشار اليه الغزالي هو مبادرة المرء الى قضاء حاجة أخيه قبل سؤاله إياه . لأن بذل ماء الوجه أثناء السؤال من أصعب الأمور على الرجال ، وقد تغير الحال وتبدل ، حتى أن أعرابياً سأل في مسألته فقال : لقد جعتُ حتى أكلتُ النوى المحرّق ، ولقد مشيت حتى انتعلت الدمّ وحتى سقط من رجلي بَخَصُ لحم وحتى تمنيت أن وجهي حذاءٌ لقدمي ، فهل من أخ يرحمنا ، وسأل أعرابي آخر قوماً ووصف حاله وحال بلاده وما هم عليه فقال له رجل من القوم : مِمّن الرجل ؟ فقال : اللهم غفراً ممن لا تضرّك جهالته ، ولا تنفعك معرفته ؛ ذلّ الاكتساب ، يمنع من عزّ الانتساب(63) . وهذا ما دفع بالبعض الى استقباح المعروف إن لم يكن ابتداء من غير

---

(60) نفس المصدر ، ص 131

(61) نفس المصدر ، ص 120

(62) نفس المصدر ، ص 126

(63) نفس المصدر ، ص 132

مساءلة، لأن هذا المعروف يصبح عوضاً من مساءلة الرجل إذا بذل وجهه كما قال سعيد بن العاص عن السائل : « قلبه خائف ، وفرائصه تُرعد ، وجبينه يرشح ، لا يدري أيرجع بنجح الطلب ، أم بسوء المنقلب ، قد انتُقع لونه وذهب دم وجهه . اللهم فإن كانت الدنيا لها عندي حظ فلا تجعل لي حظاً في الآخرة(64) ، وقد بلغ من تعظيم أمر المساءلة على السائل أن قال الإمام علي بن أبي طالب لأصحابه : من كانت له الي منكم حاجة فليرفعها في كتاب ، لأصون وجوهكم عن المساءلة (65) .

هذا ما دعا إليه الغزالي بعد عدة قرون بقوله أن على الأخ أن يقضي حاجة أخيه كأنه لا يدري أنه قضاها .

ج - حق الصحبة في اللسان بالسكوت مرة وبالنطق أخرى .

السكوت في حق الأخوة هو أن يسكت المرء عن ذكر عيوب أخيه في غيبته وحضرته ، بل من آداب الأخوة عند الغزالي السكوت عنه ، والسكوت عن التجسس والسؤال عن أحواله(66) ، ويتشدَّد الغزالي فيذهب الى أبعد من ذلك بوصية المرء ان لا يفاتح أخيه إذا رآه في طريق أو حاجة بذكر غرضه من مصدره ومورده ولا يسأله عنه فربما يثقل عليه ذكره أو يحتاج إلى أن يكذب فيه(67) ، كذلك عليه أن يسكت عن أسراره التي بثها إليه أخوه ولا يبثها الى غيره البتة ولا إلى أخص أصدقائه ولا يكشف شيئاً منها ولو بعد القطيعة والوحشة . ويعد الغزالي ذلك من لؤم الطبع وخُبث الباطن . كذلك عليه أن يسكت عن القدح في أحبابه وأهله وولده . كذلك أن يسكت عن حكاية قدح غيره فيه ، وهذه خصال قلما توفرت في أخٍ أو صاحب ، ومعروف أن اللسان منزلق الانسان ، وقد اعتبر السكوت فضيلة لأنه يُجنِّب المرء زلات اللسان ، وذكر بعضهم قال : « صحبت الربيع بن خَثيم سنتين فما كلمني إلا كلمتين ، قال لي مرة : أمك حية ؟ وقال لي مرة أخرى : كم في بني تميم من مسجد(68) ؟

وقد غلط الحجاج - مع علو مقامه وسداد رأيه - في هذا الأمر ، وذلك عندما أمره عبد الملك بن مروان بطلاق ابنة عبد الله بن جعفر بعد سعاية خالد بن يزيد بن معاوية(69) ، وأتاه الناس يعزونه وفيهم عمرو بن عتبة ، فجعل الحجاج يقع بخالد

---

(64) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج 1 ، ص 162
(65) نفس المصدر .
(66) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 160
(67) نفس المصدر .
(68) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج 3 ، ص 129
(69) راجع الفصل الثالث من هذا الكتاب .

ويتنقّصه ، ويقول : إنه صيّر الأمر إلى من هو أولى به منه ، وإنه لم يكن لذلك أهلاً ، فقال له عمرو بن عتبة : إن خالداً أدرك من قبله ، وأتعب من بعده ، وعلم علماً فسلم الأمر الى أهله . فلما سمعه الحجاج استحى ، فقال : يا بن عتبة ، إنا نسترضيكم بأن نعتب عليكم ، ونستعطفكم بأن ننال منكم ؛ وقد غلبتم على الحلم(70) . فوثقنا لكم به ، وعلمنا أنكم تحبون أن تحلموا فتعرضنا للذي تحبون . وهكذا فقد اضطر الحجاج للاعتذار لأنه ذكر خالد بن يزيد بالسوء بحضرة رجل من أعوانه وأصحابه . وإذا كان السكوت عن عيوب الصاحب واجب فالواجب أيضاً إبلاغه ما سمع من الثناء عليه ، وعليه أن لا يخفي ذلك لأن هذا الإخفاء من الحسد(71) .

وإذا كان أمر السكوت هيّن وبقليل من الاجتهاد يطبقه الانسان فإن النطق هو العقدة والمشكلة ، وأقدر الناس على ذكر المساوىء والعيوب عند الانسان هو أخيه الذي إئتمنه على أسراره وبطائنه ، فإذا تغيرت الأحوال وتبدلت القلوب أمعن في كشف هذه المساوىء لأنه يكون عند ذلك أقدر من غيره على الغيبة ، ومعروف أن الغيبة حرام في حق كل مسلم . ويرى الغزالي أن على الإنسان أن يزجره عنها أمران : أحدهما : أن يطالع المرء أحوال نفسه فإن وجد شيئاً واحداً مذموماً فليهون على نفسه ما يراه من أخيه(72) ، وإذا علم أنه عاجز عن قهر نفسه في تلك الخصلة الواحدة وعاجز عما هو مبتلي به فليعذر أخاه . لذلك عندما سُئل عمر بن عبد العزيز عن قتلة عثمان وخاذليه وناصريه فقال : تلك دماء كفّ الله يدي عنها ، فأنا لا أحب أن أغمس لساني فيها(73) . ولا غرو فقد كان السلف يحاسبون أنفسهم حساباً عسيراً ، لذلك بلغوا فضائل التواضع وابتعدوا عن الغرور ، ومن حاسب نفسه فلا بد عاذر غيره ، فقد قال عمر بن عبد العزيز لمحمد بن كعب القرظي : عظني . قال : لا أرضى نفسي لك ، إني لأصلي بين الفقير والغني فأميل على الفقير وأوسع للغني(74) .

والأمر الثاني الذي يمنع المرء من اغتياب أخيه أنه لو جهد في طلب منزه عن كل عيب اعتزل عن الخلق كافة ولن يجد من يصاحبه أصلاً « فما من أحد من الناس إلا وله محاسن ومساوىء، إذا غلبت المحاسن المساوىء فهو الغاية والمرتجى(75) . والمؤمن الكريم

---

(70) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج 7 ، ص 114 -115

(71) نفس المصدر .

(72) الغزالي ، الاحياء، ج2 ، ص 161

(73) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج 3 ، ص 117

(74) نفس المصدر ، ص 127

(75) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 161

هو الذي يحَضر في نفسه محاسن أخيه لينبعث من قلبه التوقير والود والاحترام ، أما المنافق اللئيم فإنه أبداً يلاحظ المساوىء والعيوب . وقد قال ابن المبارك : المؤمن يطلب المعاذير والمنافق يطلب العثرات ، وقال الفضيل : الفتوة العفو عن زلات الإخوان ولذلك قال عليه السلام « استعيذوا بالله من جار السوء الذي إن رأى خيراً ستره وإن رأى شراً أظهره[76] .

وبالإجمال يقتضي السكوت عن المكاره والنطق بالمحاب ، لأن السكوت فعل سلبي معناه كف الأذى ، والأخوة غايتها التودد والاستفادة ، لذلك يوصي الغزالي المؤمن بتفقد أخيه في أحواله بالسؤال عنه وعن كل عارض يصيبه ، وينبغي أن يظهر له بلسانه ما يحب له وما يكره . لأن معنى الأخوة المساهمة في السراء والضراء . قيل لخالد بن صفوان : أي إخوانك أحب إليك : قال : الذي يغفر زَللي ، ويقبل عِلَلي ، ويسدّ خللي[77] . والتحاب بين المؤمنين في الشرع مطلوب ومحبوب في الدين . لذلك قال عمر ابن الخطاب : ثلاث يصفين لك ودّ أخيك : أن تسلم عليه إذا لقيته أولاً ، وتوسع له في المجلس وتدعوه بأحب أسمائه اليه[78] ، كذلك يرى الغزالي أن الثناء على الصاحب محبوب لكن من غير كذب أو مماراة .

د ـ العفو عن الزلات والهفوات :

إن هذا الحق للأخ على أخيه يفترض كون المرء غير معصوم عن الخطأ . فهو بشر ولا بد له من ارتكاب معصية أو تقصير في حق الأخوة ، فأما ارتكاب المعصية في الدين فإن الغزالي يرى في ذلك « التلطف في نصحه بما يقوم أوده ويجمع شمله ويعيد الى الصلاح والورع حاله »[79] . فإن لم يقدر الأخ على ردعه وبقي مصراً على معصيته ، فقد اختلفت طرق الصحابة والتابعين في إدامة حق مودته أو مقاطعته . فذهب البعض الى القول بمقاطعته كأبي ذر الغفاري الذي قال : إذا انقلب أخوك عما كان عليه فأبغضه من حيث أحببته[80] . وهذا يدخل في مقتضى الحب في الله والبغض في الله . وهو من قبيل التشدد في أمور الدين رغم أن الشائع والمتعارف عليه عدم اليأس من نصح الصديق حتى يعود عن غيّه ، إلا أن ما كان يخشاه الغفاري هو متابعة الصاحب لهوى صاحبه ، وعند ذلك لا يسلم الاثنان كما قال عمر بن أبي ربيعة في ذلك :

(76) أخرج هذا الحديث البخاري في التاريخ من حديث أبي هريرة كذلك أخرجه النسائي من حديث أبي هريرة وأبي سعيد

(77) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 164

(78) ابن قتيبة، عيون الأخبار ، ح 7 ، ص 17

(79) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 167

(80) نفس المصدر .

وخِلٍّ كنت عين النصح منه | إذا نظرت ومستمع سميعا
أطاف بغِيّةٍ فنهيت عنها | وقلت له أرى أمراً شنيعا
أردت رشاده جهدي فلما | أبى وعصى أتيناها جميعاً[81]

أو كما قال بعض الكوفيين :

فإن يشرب أبو فروخ أشرب | وإن كانت معتّقة عُقارا
وإن يأكل أبو فروخ آكل | وإن كانت خنانيصاً صغاراً[82]

أما الصحابة الذين ذهبوا الى خلاف مقاطعة الصديق لمعصيته فهم يرغبون في تواصل مودته رعاية لحق الصحبة والطمع في توبته . وأبرز الداعين الى ذلك أبو الدرداء فقد كان يقول : إذا تغيّر أخوك وحال عما كان عليه فلا تدعه لأجل ذلك فإن أخوك يعوج مرة ويستقيم أخرى[83] . وقال ابراهيم النخعي : لا تقطع أخاك ولا تهجره عند الذنب بذنبه فإنه يرتكبه اليوم ويتركه غداً[84] . ويذهب الغزالي مذهب القائلين بإدامة المودة مع كون الأخ مقارناً للمعصية وذلك لعظم حق الأخوة عنده كما سبق وأشرنا إلى ذلك ، وهو يرى أن الأخوة عقد ينزل منزلة النسب والقرابة فإذا انعقدت تأكد الحق ووجب الوفاء بموجب العقد[85] . ومن الوفاء بهذا الحق أن لا يهمل أيام حاجته وفقره . وبما أن الدين هو الغاية والمرتجى عند الغزالي فإن العاصي هو فقير الدين ، وهذا الفقر بنظره أشد من فقر المال . لذلك يرى أن على الصاحب أن يرى صاحبه في حاجته هذه ويراقبه ويراعيه ولا يهمله بل يتلطف به ليعينه على الخلاص من الوقعة التي ألمت به . والأخوة عند النائبات وحوادث الزمان ، والمعصية من أشد النوائب .

والحكم الأخير عند الغزالي أن القريب لا يجوز أن يهجر بالمعصية ، والصديق كذلك لأن الصداقة لحمة كلحمة النسب والدليل على ذلك قول الله تعالى لنبيه ﷺ في عشيرته : ﴿ فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون ﴾ سورة الشعراء ، الآية 216 ، ولم يقل إني بريء منكم مراعاة لحق القرابة ولحمة النسب . إلا أن هذا لا يعني عند الغزالي التساهل في مخالطة الفساق ، فإن كان المرء فاسقاً فالأولى الابتعاد عنه منذ البداية وليس له عليك حق الصحبة والأخوة . أما إذا قامت الصحبة فالأولى عدم قطعها ، والصبر حتى يعود الصاحب الى رشده

---

(81) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج 7 ، ص 16 -17

(82) نفس المصدر ، والخنانيص جمع خنوص وهو ولد الخنزير

(83) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 167

(84) نفس المصدر .

(85) نفس المصدر .

وصلاحه . ويستدل الغزالي على ذلك بما فعله النبي في الذي شتم رجلاً أتى فاحشة إذ قال : « مه » وزبره وقال : لا تكونوا عوناً للشيطان على أخيكم(86) .

أما زلة الأخ في حق أخيه بما يوجب إيحاشه فلا خلاف في ذلك عند الصحابة والسلف أجمعين وكافة المصلحين والعقلاء أن الأولى العفو والاحتمال وقبول العذر قريباً كان أو بعيداً لأن ذلك واجب في حق الأخوة حتى أنه قيل : ينبغي أن تستنبط لزلة أخيك سبعين عذراً . وهذا من قبيل المبالغة الشديدة . لكن الشائع أن الكثيرين أوصوا بالتغاضي عن زلات الصديق لأنه من النادر جداً أن تجد أمرءاً كاملاً معصوماً . ومن المشهور في هذا قول النابغة :

ولست بمستبق أخاً لا تلُمُّهُ   على شَعثٍ أيُّ الرجال المهذّب(87)

وقيل لخالد بن صفوان : أيّ إخوانك أحب إليك ؟ قال : الذي يغفر زلَلي ويقبل عِلَلي ويسد خللي(88) .

ومن لطيف الشعر في ذلك ما قاله بشار بن برد :

إذا كنت في كل الأمور معاتباً   صديقك لم تَلْقَ الذي لا تعاتبه
فعش واحداً أو صِلْ أخاك فإنه   مقارفُ ذنبٍ مرة ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى   ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه(89)

هـ ـ الدعاء للأخ

وهذا يعتبر من الأمور الدينية الخالصة ، وقلما يلجأ إليه أحد ، لأن المرء قد ينسى نفسه فلا يدعو لها فكيف بالدعاء لاصدقائه وإخوانه ، إلا أن الغزالي يرى أن الدعوة واجبة وهي حق ثابت من حقوق الأخوة . وعليك أن تدعو لأخيك كما تدعو لنفسك ولا تفرق بين نفسك وبينه(90) . وكان أبو الدرداء يقول : إني لأدعو لسبعين من إخواني في سجودي أسميهم بأسمائهم . وكان محمد بن يوسف الأصفهاني يقول : وأين مثل الأخ الصالح ؟ أهلك يقتسمون ميراثك ويتنعمون بما خلفت ، وهو منفرد بحزنك مهتم مما قدّمت وما صرت إليه ، يدعو لك في ظلمة الليل وأنت تحت أطباق الثرى . ويركز الغزالي على أن الدعوة للميت فيها فائدة كبيرة له لأنه بحاجة الى دعوات الاستغفار ، ويستشهد على ذلك بقول رسول الله :

---

(86) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 168 ، والحديث رواه البخاري عن حديث أبي هريرة .
(87) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج 7 ، ص 16
(88) نفس المصدر ، ص 17
(89) الأصبهاني ، كتاب الأغاني ، ج 3 ، ص 197
(90) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 169

« مثل الميت في قبره مثل الغريق يتعلق بكل شيء ينتظر وعده من ولد أو والد أو أخ أو قريب »(91) .

و ـ الوفاء والاخلاص

يعرف الغزالي الوفاء بأنه الثبات على الحب ويشترط في معنى الوفاء إدامته الى الموت مع الصديق وبعد الموت مع أولاده وأصدقائه(92) . وبما أن الآخرة هي الهدف عند الغزالي فالحب والوفاء يرادان للآخرة ، فإن انقطع قبل الموت حبط العمل وضاع السعي ، وروي أن رسول الله أكرم عجوزاً دخلت عليه ، فقيل له في ذلك ، فقال : إنها كانت تأتينا أيام خديجة ، وإن كرم العهد من الدين(93) . ومن الوفاء للأخ مراعاة جميع أصدقائه وأقاربه والمتعلقين به . والمودة الدائمة عند الغزالي هي التي تكون في الله ، وما يكون لغرض يزول بزوال ذلك الغرض . ومن ثمرات المودة في الله أن لا تكون مع حسد في دين ودنيا وكيف يحسده ، وكل ما هو لأخيه فإليه ترجع فائدته .

وقد وصف الله تعالى المحبين في الله فقال : ﴿ ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ﴾ سورة الحشر ، آية 9 ، ومن الوفاء أن لا يتغير حال الأخ مع أخيه في التواضع مهما ارتفع شأنه واتسعت ولايته وعظم جاهه . فالحسن (البصري) قال عندما مات ذر بن أبي ذر الهمذاني : « يا ذر والله ما بنا اليك من فاقة ، وما بنا الى أحد سوى الله من حاجة . يا ذر . شغلني الحزن لك عن الحزن عليك . ثم قال : اللهم إنك وعدتني بالصبر على ذر صلواتك ورحمتك . اللهم وقد وهبت ما جعلت لي من أجر على ذر لذر فلا تعرّفه قبيحاً من عمله . اللهم وقد وهبت له إساءته إلي فهب لي إساءته الى نفسه : فإنك أجود وأكرم(94) » . وما اشتكى منه الأخوان على مر العصور هو الوفاء والاخلاص وإدامته ، وأكبر فجيعة بالأخ هي فجيعتك به عندما تكتشف هزال ورياء صداقته ، ولعل أكثر ما يحير الصديق الذي لا تعرف طويته كما قال شبيب بن شيبة عن خالد بن صفوان : « ذاك رجل ليس له صديق في السر ولا عدو في العلانية(95) ، وما نفع الصديق إن لم يكن صديقاً في السر والعلانية . وهذا هو الصديق المنافق ، أو بلفظ أعم المنافق هو الذي يظهر خلاف ما يبطن وأدهى من ذلك لا يقر له قرار . هل كان البدوي العربي صريحاً صادقاً لا منافقاً مخادعاً ،

---

(91) الحديث أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة ، وقال الذهبي في الميزان إنه خبر منكر جداً .

(92) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 170

(93) الحديث أخرجه الحاكم من حديث عائشة .

(94) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج 3 ، ص 128

(95) ابن قتيبة عيون الأخبار ، ج 7 ، ص 73 ، والعقد الفريد ، ج 1 ، ص 238

الـواقـع والتـاريـخ يشهـدان بـأن أخص خصـائص العـربي هـو ذلـك الشعـور بـالفـرديـة Individualisme . وقد ركز القرآن الكريم العديد من آياته على خطر المنـافقين والمراءين ، وشكـك في صحة إيمـان الأعراب : ﴿ قـالت الأعراب آمنـا ، قل لم تؤمنـوا ولكن قـولـوا أسلمنا ﴾ سورة الحجـرات ، الآية 14 . وهـذا عائـد كما يقـول الأب لامنس اليسوعي الى خلفيته التاريخية ، حيث لم يكن يؤمن بالخضـوع للسلطة(96) . وقد تمت عـلى حساب ذلـك فرديته ، والفردية تنمي الشعور المغالي بالذات . وهذا الشعور ينمي بـدوره عدم الاستقـرار والتسليم والتأرجح ، ومن شواهد ذلـك ما فعله عُيينـة بن حِصْن عندمـا أقبل المـدينة قبـل إسلامه ، « فلقيه ركب خارجون منها ، فقال : أخبروني عن هذا الرجل (يعني النبي ﷺ) فقالوا : الناس فيه ثلاثة رجال : رجل أسلم فهو معه يقاتل قريشاً وأفناء العرب(97) ، ورجل لم يُسلم فهو يقاتله ، ورجل يُظهر الاسلام إذا لقي أصحـابَه ويُـظهر لقـريش أنه معهم إذا لقيهم ؛ فقال ما يسمَّى هؤلاء ؟ قالوا : المنافقون ، قـال : فاشهـدوا أنِّي منهم ، فما فيمن وصفتم أحزم من هؤلاء(98) .

وبعيداً عن الصورة الزاهية التي رسمها المتحمسون لوصف المؤمنين بالأخوة الصادقة كما حثهم الله ورسوله ، فقد ظل النفاق والخداع سائداً ، وظلت الصورة القاتمة هي السائدة حتى ذهب الكثيرون الى الحذر من الصديق قبل العدو . فقد كتب ابـراهيم بن العباس الى محمد بن عبد الملك الزيات :

وكـنـت أخـي بـإخـاء الـزمـان ... فـلمـا نـبـا صـرت حـربـاً عـوانـا
وقـد كـنـت أشـكـو إلـيـك الـزمـان ... فـأصـبـحـت فـيـك أذم الـزمـانـا
وكـنـت أُعِـدُّك لـلـنـائـبـات ... فـهـأنـا أطـلـب مـنـك الأمـانـا(99)

وفي الأصحاب الذين لا يخلصوا الود فإذا احتاجهم صديقهم في أمر ما تبدلت أحوالهم يقول عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر :

رأيـت فُـضـيـلاً كـان شـيـئاً مُـلفـفـاً ... فـكشّـفـه الـتمـحـيـص حتى بـدا لِـيـا
فـأنـت أخـي مـا لم تـكـن لي حـاجـة ... فـإن عـرضـت أيقـنـت أن لا أخـا لـيـا
فـلا زاد مـا بـيـني وبـيـنـك بـعـدمـا ... بـلـوتـك في الحـاجـات إلا تمـاديـا
كـلانـا غـنـي عـن أخـيـه حـيـاتـه ... ونـحـن إذا مـتـنـا أشـد تـفـانـيـا(100)

---

(96) H. Lomens, L'Islam, Croyances et institutions, P. 13

(97) أفناء العرب : أخلاطهم النزاعون من ها هنا وها هنا ولا يُدرى أي القبائل هم .

(98) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج 7 ، ص 73

(99) نفس المصدر ، ص 74

(100) نفس المصدر ، ص 75-76

ولا يتسع المجال للافاضة بذكر شرار الإخوان . لذلك أوصى الكثيرون باحتمال الأذى من الصاحب ليسلم للمرء في حياته صاحب واحد ، وعليه دائماً أخذ جانب المراعاة له لئلا يخسره . إن من الصعب جداً أن تجد اليوم مع تعقد الحياة الاجتماعية إخواناً كالسلف الصالحين الذين اتخذهم الغزالي مثالاً كان يطمح في إحياء الدين بالسير على سننهم .

ز ـ التخفيف وترك التكلف والتكليف

سبق للغزالي أن تحدث عن هذا الموضوع في باب آداب الطعام ورأى أن الأولى عدم التكلف لئلا يتسبب المضيف بالأذى لنفسه ولضيفه ، وفي هذا الباب يتحدث عن ترك التكلف والتكليف بشكل عام . ويرى أن من واجبات الصديق تجاه صديقه أن لا يكلفه ما يشق عليه ، بل عليه أن يجتهد كي لا يحمله شيئاً من أعبائه ولا « يستمد منه من جاه ومال ولا يكلفه التواضع له والتفقد لأحواله والقيام بحقوقه ، بل لا يقصد بمحبته إلا الله تعالى تبركاً بدعائه واستئناساً بلقائه واستعانة به على دينه »(101) . وكالعادة يرى الغزالي أن هذه الدرجة الرفيعة من الصداقة والأخوة لا يبلغها إلا من تآخوا في سبيل الله ، وتركوا الدنيا وراء ظهورهم لذلك قال الجنيد : ما تواخى إثنان في الله فاستوحش أحدهما من صاحبه أو احتشم إلا لعلة في أحدهما . وقال علي : شر الأصدقاء من تكلّف لك ومن أحوجك الى مداراة والجأك الى اعتذاره(102) . وكان جعفر الصادق يقول : أثقل إخواني عليَّ من يتكلّف لي واتحفظ منه ، وأخفهم على قلبي من أكون معه كما أكون وحدي(103) .

وتغلب النزعة المثالية في سلوك الكثير من الصحابة والصوفية والصالحين وينزع الغزالي الى حث المؤمنين على الاقتداء بهم بينما ظاهر الأمور يدل على انصراف الناس الى حوائجهم بالتثقيل حتى يضيق الصديق ذرعاً إلا من وسع صدره مساوىء الخلان جميعاً ويذكر في هذا المجال أن بنت عبد الله بن مطيع قالت لزوجها يحيى بن طلحة : ما رأيت ألأم من أصحابك ، إذا أيسرت لزموك ، وإذا أعسرت تركوك ! فقال : هذا من كرمهم ؛ يأتوننا حال القوة منا عليهم ، ويفارقوننا في حال الضعف منا عنهم(103) .

والواقع هو ما أفصحت عنه امرأة بن طلحة لأن أخوان الزمان قليلون بل نادرون جداً ، لذلك قال رجل للجنيد : قد عزّ الأخوان في هذا الزمان أين أخٍ لي في الله ؟ فأعرض الجنيد حتى أعاده ثلاثاً ، فلما أكثر قال له الجنيد : إن أردت أخاً يكفيك مؤنتك ويتحمل أذاك فهذا لعمري قليل ، وإن أردت أخاً في الله تحمل أنت مؤنته وتصبر على أذاه

1(1) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 171

(102) نفس المصدر .

(103) الشريف المرتضى ، أمالي المرتضى ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار الكتاب العربي ، بيروت 1387 هـ / 1967 م ، ط 2 ، م 1 ، ص 287

فعندي جماعة أعرِّفهم لك . فسكت الرجل .

ولئن كان الغزالي يدعو الى ترك التكلف بين الأصدقاء فإن أناساً كان دأبهم وديدنهم البخل والمنع والرد وعدم البذل حتى أن يزيد بن عمير الأسدي أوصى بنيه بقوله : « تعلموا الرد فإنه أشد من الاعطاء ، ولأن يعلم بنو تميم أن عند أحدكم مائة ألف درهم أعظم له في أعينهم من أن يقسمها فيهم ، ولأن يقال لأحدكم : بخيل وهو غني خير لـه من أن يقال : سخي وهو فقير(105) . وذكر ثمامة محمد بن الجهم فقال : لم يطمع أحداً قط في ماله إلا ليشغلَهُ بالطمع فيه عن غيره ، ولا شفع لصديق ولا تكلم في حاجة مُتحرّم به ، إلا لِيُلَقِّـن المسؤولَ حجّـة منع ، وليفتح على السائل باب حرمان(106) .

5 ـ خاتمة

تتميز النظرة الاسـلامية لعـلاقة الأخـوة والصحبة بـالعمق والحرارة وتفتـرض أول ما تفترض صدق النية والانسلاخ التام عن حدود البشرية للانتقال الى مشارف سامية أو إلهية إن صح التعبير . ولـو قارنا ما اختزنه الفكر الاسلامي في هذا المجال بما ورد في العهدين القديم والجديد لتبدت لنا بعض الأمور التي تصدق ما حاول الفكر الاسلامي إسباغه عـلى علاقـة الأخوة (الأخوة في الله لأنه في الدين لا معنى للحديث عن أخوة خـارج هذا الإطـار) من معان راقية سامية ، والمعروف أن التوراة تحدث عن حقوق الأخوان والأقارب ، ولكن هذه الوصايا ظلت في إطار الحكمة المتحفظة ، وأكثر من ذلك تنزع هذه الوصايا الى الحذر الدائم وتكاد تفتقر الى الحرارة والاندفاع اللتين تتطلبهما علاقة الأخوة ، ففي سفر يشوع بن سيراخ نقرأ : « أقرض القريب في وقت حاجته واقضه ما له عليك في أجله . حقق ما نطقت به وكن أميناً معه فتنال في كل حين بغيتك »(107) . وواضح في هذه الوصايا أنها موجهة للصدّيق الذي حفظ الوصايا وهي تدعوه الى البر بقريبه ويبقى هاجسها مصلحة الصديق ، « لأجل الوصية أعن المسكين وفي عوزه لا ترده فارغاً . أتلف فضتك على أخيك وصديقك ولا تدعها تصدأ تحت الحجر وتتلف . أنفق ذخيرتك بحسب وصايـا العلي فتنفعـك أكثر من الذهب(108) . وهذه الوصايا كما أسلفنا تدخل في إطار الحكمة العملية فالصدقة على الأقرباء خير من الفضة المتلفة تحت الحجر ، وهذه تقصر طبعاً عن السخاء والإيثار وإتلاف المـال والنفس في سبيل رعاية القرابة والأخوة . وتتلخص هذه الوصايا التي هدفها الحكمة أولاً وأخيراً بهذا القـول :

---

(104) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 172

(105) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج 8 ، ص 138

(106) نفس المصدر .

(107) العهد القديم ، الفصل التاسع والعشرون ، سفر يشوع بن سيراخ ، الآيات 2-3

(108) نفس المصدر ، الآيات 12-13-14

« أمدد قريبك بقدر واحذر على نفسك أن تسقط »(109) . بينما يقول أبو ذر الغفاري(110) (المتوفى سنة 31 هـ) : « أوصاني خليلي (يعني النبي ﷺ) بسبع : أمرني بحب المساكين والدنو منهم ، وأمرني أن أنظر الى من هو دوني ولا أنظر الى من هو فوقي ، وأمرني أن لا أسأل أحداً شيئاً ، وأمرني أن أصل الرحم وإن أدبَرت . . »(111) . أما عن تواضعه وصدقه فقد روي عن أبي هريرة عن رسول الله أنه قال : « ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء على ذي لهجة أصدق من أبي ذر . من سره أن ينظر الى تواضع عيسى بن مريم فلينظر الى أبي ذر »(112) . وقد حمل أبي ذر الغفاري على الذين يكنزون الذهب والفضة ونبههم الى ما أوعدهم الله تعالى بقوله : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم . هذا ما كنزتم لأنفسكم ، فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾ (سورة التوبة ، الآيات 24-25) .

وتتبدى حرارة الإيمان والتقوى والانسلاخ عن الدنيا (ولا تصفو صحبة صديق إلا إذا هانت في عينه الدنيا) في الفكر الصوفي وفكر الصحابة وسلوكهم وهذه النظرة الى الدنيا وازدراء مباهجها تختلف عن نظرة التوراة التي تدعو المؤمن الى أن يكون سيد الموقف وسيد نفسه حكيماً حذراً . بينما نجد أن رجلاً كأويس القرني (ت سنة 37 هـ) الذي عاش في عصر النبي ولم يكن له شرف صحبته يؤثر الفقر على سعة العيش التي كانت بمتناوله وحين كان بعض الناس يهدونه ثوباً كان يتصدق بثيابه حتى يجلس عرياناً لا يجد ما يروح فيه الجمعة(113) . أي لا يجد ما يلبسه لصلاة يوم الجمعة . ولما قدم المدينة وحاول الخليفة عمر بن الخطاب أن يساعده هرب من المدينة وذهب الى الكوفة .

في الدعوة المسيحية نلاحظ تجاوزاً بقدر واضح لتعاليم التوراة ، صحيح أن السيد المسيح دعا رسله وتلامذته الى أن يكونوا حكماء كالحيات ودُعاء كالحمائم ، إلا أن علاقة الأخوة في الله ظل رائدها المحبة ، والمحبة عنوان رئيسي في تعاليم السيد المسيح ، لأنه لا شيء كامل خارج إطار المحبة في التعاليم المسيحية ، وخدمة الأخوان لبعضهم البعض تكون بالمحبة لا بالحكمة . والمحبة هي محبة الروح لا محبة الجسد . فالقديس بولس مثلاً في رسالته الى أهل غَلاطِيَة يدعو الى هذه المحبة الروحية ويقول : « إن الناموس كله يتمُّ بكلمة واحدة

---

(109) نفس المصدر الآية 37

(110) راجع ترجمة حياته في « طبقات » ابن سعد ، ج 4 ، ص 219-237 ، ط. بيروت 1957 ، وفي حلية الأولياء ، ط. القاهرة ، ج 1 ، ص 156-170

(111) ابن سعد ، الطبقات ، ج 4 ، ص 229

(112) نفس المصدر ، ج 4 ، ص 228

(113) ابن الجوزي ، صفوة الصفوة ، ج 3 ، ص 25 . حيدر آباد الدكن 1356 هـ .

وهي أحبب قريبك كنفسك . فإذا كنتم تنهشون وتأكلون بعضكم بعضاً فاحـذروا أن تفنوا بعضكم بعضاً »(114) .

وهذه التعاليم كانت تجاهد لنشر مبادىء الدين الجديد وربما لهذا السبب كانت تفتقر إلى الحساسية المرهفة بالتقوى والتي زخر بها الفكر الاسلامي في الوعظ والدعوة الى الإلفة والمحبة، أو لعـل الأحداث السياسية العنيفة التي سادت العالم الاسلامي وما رافقها من قتل وترويع وعداوات أفرزت اتجاهاً مفرطاً في الحث على الإلفة والأخـوة وتراص الصفـوف . وما رافق ذلك من شحن للعواطف الداعية الى البكاء والخوف من الآخـرة والتقرب الى الله ببـذل ما تملكه الأنفس ، ومن أمثلة هذه الحالة الوجدانية ما رواه صاحب الحلية عن مسلم العبـاداني قال : « قدم علينا مرة صالح المُرّي وعبد الواحد بن زيد وعتبة الغلام وسلمة الأسـواري . فنزلوا على الساحل . فهيأت لهم ذات ليلة طعاماً ، فدعوتهم إليه ، فجاؤ وا ، فلما وضعت الطعام بين أيديهم إذا قائل يقول من بعض أولئك المطوّعة ، وهو على ساحل البحر ماراً رافعاً صوته يقول :

وتُـلهيـك عـن دار الخـلـود مـطاعـم   ولـذة نـفس غَـيُّـهـا غـيـر نـافـع

قال : فصاح عتبة صيحة فسقط مغشياً عليه ، وبكى القوم ، ورفعنا الطعام وما ذاقوا منه والله لقمة واحدة »(115) . وفي الآثار الاسلامية أبلغ دليل على العاطفة الدينية التي تدعو الى المحبة الأخوية فعن علي بن أبي طالب قوله : عليكم بالأخوان فانهم عدة في الدنيا والآخرة ألا تسمع الى قول أهل النار ﴿ فمالنا من شافعين ولا صديق حميم ﴾ سورة الشعراء ، الآية ١٠٠ ـ ١٠١ ، وقال عبد الله بن عمر بن الخطاب : « والله لو صمت النهار لا أفطره وقمت الليل لا أنامه وأنفقت مالي غلقاً غلقاً في سبيل الله وليس في قلبي حب لأهل طاعة الله وبغض لأهل معصية الله ما نفعني ذلك شيئاً »(116) .

يمكن القول في نهاية هذا الفصل أن الدين الإسلامي أسس على ركن معاملة الإخوان عمارة متكاملة في المحبة الانسانية ، وهو بهذا يضاهي في كثير من جوانبه الدعوة المسيحية التي اعتبرت المحبة ركنها الأساسي ، ولا غلو أو تطرف في ذلك . فالمحبة عبادة كما تؤكد مختلف أديان البشر .

(114) العهد الجديد ، أعمال الرسل ، رسالة القديس بولس الى أهل غلاطية ، الفصل الخامس ، الآيات 14 -15
(115) أبو نعيم : حلية الأولياء ، ج 6 ، ص 160
(116) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 146

الفصل الرابع

آداب السماع والوجد عند الغزالي

تمهيد :

يبدأ الغزالي هذا الفصل الهام بالدعاء بحمد الله الذي أحرق قلوب أوليائه بنار محبته ، واسترق هممهم وأرواحهم بالشوق الى لقائه ومشاهدته[1] . الذي إن سنحت لأبصارهم صورة عبرت الى المصدر بصائرهم ، وإن قرعت أسماعهم نغمة سبقت الى المحبوب سرائرهم ، وإن ورد عليهم صوت مزعج أو مقلق أو مطرب أو محزن أو مبهج أو مشوِّق أو مهيِّج لم يكن انزعاجهم إلا اليه ، ولا طربهم إلا به ولا قلقهم إلا عليه . ولا حزنهم إلا فيه ولا شوقهم إلا إلى ما لديه . . . فمنه سماعهم وإليه استماعهم .

وإذا خلجات المرء وسكناته موجهة للخالق عز وجل عند الغزالي ، فلن نفاجأ بعد قليل إذا رأينا أنه يحلِّل السماع (السماع سماع الغناء والصوت الحسن) ويذهب في تحليله ذلك إلى إزالة أي شك من الممكن أن يخامر المؤمن في مسألة السماع ، وهو يستند في ذلك على أدلة نقلية ، إلا أنه يعتمد جل اعتماده على تحليل واقعي منطقي يدحض فيه إدعاءات من ذهب الى تحريم السماع . ويرى أن الصوت الحسن يمسّ القلوب والسراء ، وهذه هي خزائن الاسرار ومعادن الجواهر ، وقد طويت فيها جواهرها كما طويت النار في الحديد والحجر وكما أخفي الماء تحت التراب والمدر ، ولا سبيل الى استثارة خفاياها إلا بقوادح السماع[2] ويرى الغزالي أن للسماع أهمية في تحريك القلوب لا يوازيها شيء « فالسماع للقلب محك صادق ،

---

(1) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 245

(2) نفس المصدر .

ومعيار ناطق »(3) . وللغناء سلطان على القلوب يغشاها فإذا انتشت هامت وفاض وجدها وتغافلت عما يحيط بها ، ولعل أبلغ حجة للذين حظروا السماع كانت هذه القوة الطاغية للغناء على قلوب البشر وعقولهم ، ويحكي الأصفهاني عن عمر بن أبي ربيعة والمغني ابن سريج أنهما خرجا في عشية من عشايا أيام الحج الى أحد الكثبان مشرف على طريق المدينة وطريق الشام وطريق العراق ، فصارا اليه فأكلا وشربا ، فلما انتشيا أخذ ابن سريج الدُّف(4) فنقره وجعل يغني وهم ينظرون الى الحاجّ . فلما أمسيا رفع ابن سريج صوته يغني في الشعر الذي قاله عمر ، فسمعه الركبان فجعلوا يصيحون به : يا صاحب الصوت أما تتقي الله ! فقد حبست الناس عن مناسكهم(5) . . . وفي تتمة الرواية أن الخليفة يزيد بن عبد الملك تخفى ونزل إليهما فأسمعاه غناء وغادرهما وقد نزع حلّته ، وخاتمه فدفعهما اليه . ومن حكايا الخليفة يزيد بن عبد الملك مع المغنين أنه سمع مرة غناء لمعبد مطلعه :

ألا لله قوم ولدت أخت بني سهم(6)

فصاح يزيد : أحسنت والله يا مولاي ! أعد فداك أبي وأمي ، فأعاد ، فردّ عليه مثل قوله الأول ، فأعاد . ثم قال : أعد فداك أبي وأمي ، فأعاد ، فاستخفّهُ الطرب حتى وثب وقال لجواريه : افعلن كما أفعل ، وجعل يدور في الدار ويَدُرن معه وهو يقول :

يا دارُ دوِّريني يا قرقرُ امسكيني
آليتِ منذ حين حقاً لتصرميني
ولا تواصليني بالله فارحميني
لم تذكري يميني

قال : فلم يزل يدور كما يدور الصِّبيان ويدرن معه ، حتى خرّ مغشياً عليه ووقعن فوقه ما يعقل ولا يعقلن ؛ فابتدره الخدم فأقاموه وأقاموا من كان على ظهره من جواريه ، وحملوه وقد جاءت نفسه أو كادت(7) .

---

(3) نفس المصدر .
(4) الترف بالضم ويفتح ، قال في القاموس : وبالضم أعلى ، وحكى الجوهري أن الفتح فيه لغة .
(5) الأصبهاني ، الأغاني ، ج 1 ، ص 262
(6) الأبيات التي ذكرها الأصبهاني مأخوذة عن قصيدة لعبد الله بن الزّبعري حيث يقول :

الا لله قوم لدت أخت بني سهم
هشام وأبو عبد مناف مِدْرهُ الخصم
وذو الرمحين أتباك على القوة والحزم
فهذان يذودان ودا من كثب يرمي

(7) الأغاني ، ج 1 ، ص 68

وأكثر الناس معرفة بما له على قلوب البشر من سلطان هو المغني نفسه ، فكأنه يعلم ما يحويه صوته من لطائف وأسرار خفية تلامس القلوب ، وفي ذلك كان يقال أن المغني ابن عائشة يفتن كل من سمعه ، وكان فتيان من المدينة قد فسدوا في زمانه بمحادثته ومجالسته ، وعرف عنه أنه كان تياهاً سيء الخلُق ، مغتراً بما خصته به العناية الإلهية ، وكان إن قال له إنسان : تغنَّ ، قال : المثلي يقال هذا ! وإن قال له انسان وقد ابتدأ هو بغناء : أحسنت ، قال : ألمثلي يقال أحسنت ! ثم يسكت ، فكان قليلاً ما ينتفع به[8] . وحكي عنه أن كان مرة واقفاً بالموسم متحيراً ، فمرّ به بعض أصحابه فقال له : ما يقيمك ها هنا ؟ فقال : أني أعرف رجلاً لو تكلّم لحبس الناس ها هنا فلم يذهب أحد ولم يجيء ، فقال له الرجل : ومن ذاك ؟ قال أنا ، ثم اندفع يغني :

جرت سُنُحاً فقلت لها أجيزي   نوى مشمولة فمتى اللقاء[9]

قال : فحُبسَ الناس ، واضطربت المحامل ، ومدت الابل أعناقها ، وكادت الفتنة أن تقع . فأُتي به هشامُ بن عبد الملك ، فقال له : يا عدو الله ، أردت أن تفتن الناس ! قال : فامسك عنه وكان تيّاهاً ، فقال له هشام : أرفُق بتيهك ، فقال : حقٌّ لمن كانت هذه مقدرته على القلوب أن يكون تيّاهاً ، فضحك منه وخلّى سبيله[10] .

والمعروف أن العرب تستعمل الحداء للابل فتجد السير وتنسى تعبها . وقد حكى المؤرخون حكايات طريفة ومبالغ فيها في بعض الأحيان عن تأثير الحداء على سير الإبل[11] . فقد حكى أبو بكر محمد بن داود الدينوري المعروف بالرقي . قال : كنت بالبادية فوافيت قبيلة من قبائل العرب فأضافني رجل منهم وأدخلني خباءه ، فرأيت في الخباء عبداً أسود مقيداً

---

(8) الأغاني ، ج 2 ، ص 205

(9) يقول صاحب كتاب الأغاني أن هذا البيت من الشعر لزهير بن أبي سلمى ، وقد الحق به بيت ثان محدث لم يعرف قائله وهو :

بنفسي من تذكّره سَقَام   أعانيه ومطلبه غناء

والسانح : ما أقبل من شِمالك يريد يمينك ، والبارح ضده . وقال أبو عبيدة : سمعت يونس بن حبيب يسأل رؤبة عن السانح والبارح ، فقال : السانح ما ولاك ميامنه والبارح : ما ولاك مشائمه ، وقوله : أجيزي أي أنفذي . ومشمولة . سريعة الانكشاف . أخذه من السحابة المشمولة ، وهي التي تصيبها الشمال فتكشفها ، ومن شأن الشمال أن تقطع السحاب واستعارها ها هنا في النّوى لسرعة انكشافهم فيها عن بلدهم ، وأجرى ذلك مجرى الذم للسانح لأنه يُتشاءم به (الأغاني ، ج 2 ، ص 209) .

(10) الأغاني ، ج 2 ، ص 208

(11) راجع مثلاً مروج الذهب للمسعودي ، ج 4 ، ص 133 ، حيث يقول بأن العرب عرفت الحداء قبل الغناء . وقد كان مضر بن نزار بن معد سقط عن بعير في بعض أسفاره فانكسرت يده ، فجعل يقول : يا يداه ، يا يداه ، وكان من أحسن الناس صوتاً ، فاستوسقت الابل وطاب لها السير .

بقيد ، ورأيت جمالاً قد ماتت بين يدي البيت وقد بقي منها جمل وهو ناحل ذابل كأنه ينزع روحه ، فقال لي الغلام : أنت ضيف ولك حق فتشفّع فيّ الى مولاي فإنه مُكرم لضيفه فلا يرد شفاعتك في هذا القدر ، فعساه يحل القيد عني ، قال : فلما أحضروا الطعام امتنعت وقلت لا آكل ما لم أشفع في هذا العبد ، فقال : إن هذا العبد قد أفقرني وأهلك جميع مالي ، فقلت : ماذا فعل ؟ فقال : إن له صوتاً طيباً وإني كنت أعيش من ظهور هذه الجمال ، فحمّلها أحمالاً ثقالاً وكان يحدو بها حتى قطعت مسيرة ثلاثة أيام في ليلة واحدة من طيب نغمته ، فلما حطت أحمالها ماتت كلها إلا هذا الجمل الواحد ، ولكن أنت ضيفي فلكرامتك قد وهبته لك »(12) .

هذه بعض لمحات عن تأثير الغناء على قلوب بني الإنسان والحيوان ، والتفسير الفلسفي للفنون وتطورها يميل الى الأخذ بدورات زمانية للفن تبدأ بعهد الآلهة : أي أن الفنون نشأت وترعرعت في ظل سيادة الآلهة ، فارتبط الغناء بالاحتفالات الدينية والتراتيم الطقسية ، لذلك كانت له مسحة دينية خالصة ، ونقرأ في تقديم سفر المزامير في العهد العتيق أنه : « لا بد للصلاة ، وخاصة الصلاة العمومية ، إذا تفتحت ، من أن تصبح أحياناً غناء ، نشيداً ترافقه عند الحاجة آلات الموسيقى . لقد دخلت مثل هذه المؤلفات مراراً عديدة في صفحات الكتاب المقدس »(14) . كذلك فإننا نجد في مطلع المزمور الرابع الآية الأولى : « لإمام الغناء على ذوات الأوتار . مزمور لداود » . وفي مطلع المزمور الخامس : « لإمام الغناء على ذوات النفخ ، مزمور لداود »(15) . وهكذا دواليك . ويقول الغزالي أن الطيور كانت تقف على رأس داود عليه السلام لاستماع صوته(16) . وحكى الأصبهاني عن ابن أبي عتيق أنه رأى حلق ابن عائشة مخدشاً فمضى الى الرجل الذي فعل به ذلك فضربه ضرباً شديداً والرجل يقول له : مالك تضربني ! أي شيء صنعت ! وهو لا يجيبه حتى بلغ منه ؛ ثم خلاه وأقبل على من حضر فقال : هذا أراد أن يكسر مزامير داود(17) .

وترتبط التراتيم الدينية منذ العصور البدائية بالإيقاع والحركة . ولم تنه ديانة سماوية أو غير سماوية حسب علمنا عن استعمال الغناء سواء في الاحتفالات الدينية أو الاحتفالات العامة حتى وصل الأمر الى المسلمين فمال البعض الى التحريم والبعض الى التحليل ،.حتى

---

(12) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 252

(13) محمد علي أبو ريان ، فلسفة الجمال ونشأة الفنون الجميلة ، دار المعارف مصر 1970 ، ص 208 وما بعدها .

(14) راجع تقديم سفر المزامير من العهد العتيق من الكتاب المقدس . المطبعة الكاثوليكية بيروت 1968 ، ص 52

(15) المرجع السابق ، سفر المزامير .

(16) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 252

(17) الأصبهاني ، الأغاني ، ج 2 ، ص 204-205

ذهب مالك رحمه الله تعالى إلى إنكار القراءة (قراءة القرآن) بالتلحين وأجازها الشافعي ويعقب ابن خلدون على ذلك بقوله أن المراد هنا تلحين القراءة وليس تلحين الموسيقى الصناعي ، « فإنه لا ينبغي أن يُختلفَ في حظره ، إذ صناعة الغناء مباينة للقرآن بكل وجه »(18) . ويرى ابن خلدون بين القراءة والتلحين اختلافاً بيناً ، لأن القرآن منزه عن الترديد والتلحين لأنه « محل خشوع بذكر الموت وما بعده ؛ وليس مقام التذاذ بادراك الحسن من الأصوات »(19) .

بعد هذه الكلمة التمهيدية عن السماع ننتقل الى ذكر اختلاف العلماء في تحليله وتحريمه .

1 ـ إختلاف العلماء في تحليل السماع وتحريمه عند الغزالي

السماع عند الغزالي (من الناحية الموضوعية) يثمر حالة في القلب تسمى الوجد ، ويثمر الوجد تحريك الأطراف إما بحركة غير موزونة فتسمى الإضطراب وإما موزونة فتسمى التصفيق والرقص(20) . ثم ينقل الغزالي أقوال المحرمين وأقوال المحللين ، ويذكر الدليل على الإباحة ثم يرد على المتمسكين بالقول بالتحريم .

أ ـ القائلون بالتحريم ومذاهبهم والرد عليهم

حكى القاضي أبو الطيب الطبري عن الشافعي ومالك وأبي حنيفة وسفيان وجماعة من العلماء ألفاظاً يستدل بها على أنهم رأوْا تحريمه(21) وقال الشافعي رحمه الله في كتاب آداب القضاء : « إن الغناء لهو مكروه يشبه الباطل ومن استكثر منه فهو سفيه ترد شهادته » .

وحكي عنه أيضاً أنه كان يكره الطقطقة بالقضيب ويقول : وضعته الزنادقة ليشتغلوا به عن القرآن .

أما مالك رحمه الله فقد نهى عن الغناء وقال : إذا اشترى رجل جارية فوجدها مغنية كان له ردّها . وهو مذهب سائر أهل المدينة إلا ابن سعد وحده .

أما أبو حنيفة فكان يكره ذلك ويجعل سماع الغناء من الذنوب ، وكذلك سائر أهل الكوفة : سفيان الثوري وحماد وابراهيم والشعبي وغيرهم . هذا كله نقله القاضي أبو الطيب الطبري(22) .

---

(18) ابن خلدون ، المقدمة ، ص 762

(19) نفس المصدر ، ص 763

(20) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 246

(21) نفس المصدر .

(22) نفس المصدر .

وواضح أنه إن صحت هذه الأقوال ـ وهي على الأرجح صحيحة فإن أئمة الفقه الاسلامي أجمعوا على تحريم سماع الغناء وتسفيه من يسمعه واعتباره من الملاهي المحظور الاشتغال بها . والجدير ذكره أن ابن خلدون لم يذكر رأيه في تحريم الغناء وتحليله ، ولم يذكر أن أحداً من الفقهاء والأئمة حرمه . وقصر حديثه في فصل صاعة الغناء عنده على حظر تلحين القرآن ، وعن قول الرسول ﷺ : لقد أوتي مزماراً من مزامير داود ؛ أن المراد هنا ليس الترديد والتلحين إنما معناه حُسن الصوت وأداء القراءة والإبانة في مخارج الحروف والنطق بها . ويعتبر أن الغناء يحدث في العمران فقط ، لأنه كمالي ، ولأن هذه الصناعة لا يستدعيها إلا من فرغ من جميع حاجاته الضرورية والمهمة من المعاش والمنزل وغيره . ويرى أنها كانت شائعة في سلطان العجم . ولم يعرفها العرب إلا بعد أن فارقوا بداوتهم وجاهليتهم ، وبعد أن جاءهم الترف وغلب عليهم الرِّفه ، وبعد أن افترق المغنون من الفرس والروم فوقعوا الى الحجاز وصاروا موالي للعرب ، والغريب أن ابن خلدون يعتبر أن صناعة الغناء آخر ما يحصل في العمران من الصنائع لأنها كمالية وهي أيضاً أول ما ينقطع من العمران عند اختلاله وتراجعه(23) . المهم أن ابن خلدون لم يتعرض لتحليل الغناء أو تحريمه بخير أو شر .

وقد احتج المحرمون بقول الله تعالى : ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ﴾ سورة لقمان الآية 6 ، قال ابن مسعود والحسن البصري والنخعي رضي الله عنهم : إن لهو الحديث هو الغناء . .(24) وروت عائشة عن النبي ﷺ قوله : « إن الله تعالى حرّم القينة وبيعها وثمنها وتعليمها(25) » .ويرى الغزالي أن القينة المراد تحريمها هنا هي الجارية التي تغني للرجال في مجلس الشرب ، وهذا عند الغزالي حرام ، لأن غناء الجارية ليس حلالاً إلا لمالكها ، أما لغير مالكها فيكون ذلك في سبيل الفتنة . ويستشهد الغزالي على صدق دليله أن غناء الجارية لمالكها حلال بما روي في الصحيحين من غناء الجاريتين في بيت عائشة(26) . وأما شراء لهو الحديث بالدين فهو حرام مذموم أيضاً ، وليس كل غناءٍ بدلاً عن الدين مشترى به ومضلاً عن سبيل الله تعالى وهو المراد في القول : ولو قرأ القرآن ليضل به عن سبيل الله لكان حراماً . وقد حكي عن بعض المنافقين أنه كان يؤم الناس ولا يقرأ إلا سورة عبس لما فيها من العتاب مع رسول الله ﷺ . فهمّ عمر بقتله . ورأى فعله حراماً لما فيه من الاضلال . فالإضلال بالشعر والغناء أولى بالتحريم . ويحاول الغزالي في رده على القائلين بتحريم السماع التركيز على أن الغناء

---

(23) ابن خلدون ، المقدمة ، ص 766-767

(24) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 260

(25) حديث عائشة هذا أخرجه الطبراني في الأوسط باسناد ضعيف وقال البيهقي ليس بمحفوظ .

(26) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 261

بحد ذاته ليس محظوراً ، أما إذا كان في سبيل الفتنة والصد عن الله ، أي إذا داخله شيء آخر يوجه غرضه ناحية الفتنة فإنه عندئذٍ يصبح حراماً دون شك ، وهذا ليس مقتصراً فقط على الغناء ، بل على كل فعل يُقدم عليه الانسان ، حتى تلاوة القرآن إذا كانت للإضلال فهي حرام . والدليل على ذلك أن الله تعالى قال في كتابه العزيز ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ﴾ سورة الشعراء ، الآية 224 ، ولم يدل ذلك على تحريم نظم الشعر في نفسه بل أراد به شعر الكفار .

أما احتجاج البعض بما رواه جابر عن الرسول ﷺ أنه قال : « وكان ابليس أول من ناح وأول من تغنى »(26ب) .فقد جمع بين النياحة والغناء ؟ قلنا : لا جرم كما استثنى منه نياحة داود عليه السلام ونياحة المذنبين على خطاياهم فكذلك يستثنى الغناء الذي يراد بـه تحريك السرور والحزن والشوق حيث يباح تحريكه ، بل كما استثنى غناء الجاريتين يوم العيد في بيت رسول الله ﷺ ، وغنائهن عند قدومه عليه السلام بقولهن :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

وغير خاف ما للنياح من أثر حسن على القلوب إن كان في سبيل الله أو باعثاً على التأسي والندم لفراق الأحباب ، ويذكر أن ابن سريج قبل أن يكون مغنياً كان نائحاً ولم يكن مذكوراً حتى « ورد الخبر مكة بما فعله مسرف بن عقبة(27) بالمدينة ، فعلا على أبي قبيس وناح بشعر هو اليوم داخل في أغانيه ، وهو :

يا عين جودي بالدموع السِّفاحِ وابكي على قتلى قريش البطاح(28)

(26ب) نفس المصدر .

(27) مسرف بن عقبة هو لقب مسلم بن عقبة المري صاحب وقعة الحرة الذي وجهه يزيد بن معاوية في جيش عظيم لقتال ابن الزبير بالمدينة ، فقاتل أهلها وأباح المدينة ثلاثة أيام ، ولقد لقب مسرفاً لأنه أسرف في القتل في هذه الوقعة . قال علي بن عبد الله بن عباس :

وهم منعوا ذماري يوم جاءت كتائب مسرفٍ وبنو اللكَيعة

(28) السِّفاح : جمع سافح من سفح الدمعُ سَفحاً وسفوحاً وسفحاناً : انصبَّ : ويقال أيضاً : سفحت العين سفحاً وسفوحاً ، إذا أرسلته . والبطاح : جمع بطحاء . والبطحاء : مسيل فيه دقاق الحصى . وقريش البطاح كما قال ابن الاعرابي : الذين ينزلون الشعب بين أخشبي مكة ، وقريش الظواهر : الذين ينزلون خارج الشعب ، وأكرمهما قريش البطاح . وقال الزبير بن أبي بكر : قريش البطاح بنو كعب بن لؤي ، وقريش الظواهر منهم بنو عامر بن لؤي ، وإنما سمّوا بذلك لأن قريشاً اقتسموا فأصاب الأولون البطحاء وأصاب الآخرون الظواهر . فهذا تعريف للقبائل لا للمواضع ؛ فإن البطحاويين لو سكنوا الظواهر كانوا بطحاويين ، وكذلك الظواهر لو سكنوا البطحاء كانوا ظواهر . وقد جمع معاً في قول الشاعر :

فلو شهدتني من قريش عصابة قريش البطاح لا قريش الظواهر

وقد قيل بصيغة الجمع وليس في مكة إلا بطحاء واحدة ؛ لأن العرب تتوسع في كلامها وشعرها فتجعل الواحد جمعاً

فاستحسن الناس ذلك منه وكان أول ما ندب به » . وذكر ابن جامع أن سكينة بنت الحسين عليهما السلام بعثت الى ابن سريج بشعر أمرته أن يصوغ فيه لحناً يُناح بـه ، فصاغ فيه ، وهو الآن داخل في غنائه . والشعر :

يـا أرض ويحك أكرمـي أمـواتي   فـلقـد ظـفـرت بـسـادتي وحُمـاتي

فقدمه ذلك عند أهل الحرمين على جميع ناحة مكة والمدينة والطائف[29] .

وبما أن النياح مجمع على عدم تحريمه فلا جرم أنه أول الغناء ، أو هو ضرب من الغناء ولا شك .

ويستطرد الغزالي في الرد على الأقوال المنسوبة الى بعض الصحابة والفقهاء في تحـريم السماع فيفندها ويرد عليها بالمنطق حيناً وبالأدلة النقلية حيناً آخر وتشوب بعض ردوده القسوة فهو يقول للذين احتجوا بقول عثمان رضي الله عنه : ما تغنيت ولا تمنيت ولا مسست ذكري بيميني مذ بايعت بها رسول الله ﷺ . يقول الغزالي فمن أين يثبت أن عثمان رضي الله عنه كان لا يترك إلا الحرام . أما ما رواه عقبة بن عامر أن النبي ﷺ قال : « كل شيء يلهو به الرجل فهو باطل إلا تأديبـه فرسـه ورميه بقـوسه ومـلاعبته لامـرأته »[30] . قلنـا : فقولـه : (باطل) لا يدل على التحريم بل يدل على عدم الفائدة .

وتبلغ ذروة الدفاع عن السماع عند الغزالي قوله لمن ادعى بأنه لهو ولعب . فهو يرى أن الدنيا كلها لهو ولعب . ولولا ذلك لما قال عمر رضي الله عنه لزوجته : إنما أنت لعبة في زاوية البيت . وجميع الملاعبة مع النساء لهو إلا الحراثة التي هي سبب وجود الولد . وكذلك المزح الـذي لا فحش فيه حـلال . ويرى الغـزالي أن اللهـو « مـروح للقلب ومخفف عنـه أعبـاء الفكر . . . فالمواظب على التفقه مثلاً ينبغي أن يتعطل يوم الجمعة لأن عطلة يوم تبعث على النشاط في سائر الأيام ، والمواظب على نوافل الصلوات ينبغي أن يتعطل . . . فالعطلة معونة

ومثنى ، وينقلون الألقاب ويغيرونها لتستقيم لهم الأوزان ؛ قال أبو تمام يمدح الواثق :

يسمو بك السفاح والمنصور والـ   ـمهدي والمعصوم والمأمون

وأراد بالمعصوم المعتصم . وقال ابن نباتة :

فأقام باللورين حولاً كاملاً   يترقب القَدَر الذي لم يُقدَر

وما في البلاد إلا اللور المعروفة . وإذا صح بإجماع أهل اللغة أن البطحاء الأرض ذات الحصى ، فكل قطعة من تلك الأرض بطحاء . (أنظر ياقوت في مادة البطاح وديوان أبي تمام. ط. مصر. ص 330 وكتاب الأغاني ، ج 1 ، ص 254) .

(29) الأصبهاني ، الأغاني ، ج 1 ، ص 254-255

(30) الحديث أخرجه أصحاب السنن الأربعة وفيه اضطراب .

على العمل واللهو معين على الجد »[31] .

يخلص الغزالي الى القول بحلال اللهو واللعب والسماع كما يدعي مهاجموه لهو ولعب فهو حلال . إلا أنـه لا ينبغي الإكثار منـه . وينبغي أن يحرك في النفس الصفـات الحميدة والأشواق السامية .

2 - بيان الدليل على إباحة السماع

يبدأ الغزالي بتفنيد أقوال القائلين بتحريم السماع وبيان بطلانها، فالقول بأن السماع حرام معناه أن الله تعالى يعاقب عليه ، وهذا أمر لا يعرف بمجرد العقل بل بالسمع ومعرفة الشرعيات محصورة في النص أو القياس على المنصوص[32] . وهكذا إذا لم يكن هنالك نص ولم يستقم فيـه قياس عـلى منصوص بـطل القول بتحـريمه . وبقي فعـلاً لا حرج فيـه كسائـر المباحات . ويرى الغزالي أنه لا يوجد نص يحرم السماع ولا قياس ، والعكس من ذلك هو الصحيح فالنص والقياس عند الغزالي يدلان على إباحته .

أ ـ القياس :

فالغناء اجتمعت فيه معان ينبغي أن يُبحث عن أفرادها ثم عن مجموعها ، وفيه سماع صوت طيب موزون مفهوم المعنى محرك للقلب . وسماع الصوت الطيب من حيث أنه طيب لا ينبغي أن يُحرّم . وهو يرجع الى تلذذ حاسة السمع بإدراك ما هو مخصوص به . وللإنسان عقل وخمس حواس ولكل حاسة إدراك . وفي مدركات كل حاسة ما تستلذ به وما تنفر منه . كذلك الأصوات المدركة بالسمع تنقسم الى مستلذة كصوت العنادل والمزاميـر، ومستكرهـة كنهيق الحمير وغيرها ، ويذهب ابن خلدون مذهب الغزالي بقوله أن اللذة (الحسيـة) هي إدراك الملائم . والمحسوس كيفية فإذا كانت مناسبة للمدرَك وملائمة كانت ملذوذة ، والحسن في المسموع « أن تكون الأصوات متناسبة لا متنافرة ، وذلك أن الأصـوات لها كيفيـات من الهمس والجهر والرخـاوة والشدة والقلقلة والضغط وغـير ذلك ، والتنـاسب فيها هـو الذي يوجب الحسن[33] ، ويستشهد ابن خلدون عـلى ذلك بـاستقباح أهـل اللسان التـراكيب من الحروف المتنافرة أو المتقاربة المخارج[34] .

ب ـ أما النص :

فيدل على إباحة سماع الصوت الحسن ، ومن ذلـك امتنان الله تعـالى على عبـاده إذ

---

(31) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 261 وما بعدها .

(32) راجع نفس المصدر ، ص 247 وما بعدها .

(33) ابن خلدون ، المقدمة ، ص 760-761

(34) نفس المصدر .

قال : ﴿ يزيد في الخلق ما يشاء ﴾ سورة فاطر ، الآية الأولى ، وفي الحديث : « ما بعث الله نبياً إلا حسن الصوت »[35] . وقال ﷺ في مدح أبي موسى الأشعري ، « لقد أعطي مزماراً من مزامير داوود » وقول الله تعالى ﴿ إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾ سورة لقمان ، الآية 19 ، يدل بمفهومه على مدح الصوت الحسن . ولو جاز أن يقال إنما أبيح ذلك بشرط أن يكون في القرآن للزمه أن يحرم سماع صوت العندليب لأنه ليس من القرآن[36] .

ج - موضوع تحريم الملاهي والأوتار والمزامير

يرى الغزالي أن الأوتار والمزامير التي ورد الشرع بالمنع منها[37] ، إنما منعت لا للذتها (أي أن أصواتها الطيبة وما تحدثه من لذة ليست حراماً) إذ لو كان للذّة لقيس عليها كل ما يلتذ به الانسان . وهو يرى أنه عندما حرمت الخمور واقتضت ضراوة الناس بها المبالغة في الفطام عنها حتى انتهى الأمر في الابتداء الى كسر الدنان ، وهكذا فقد حُرّم معها (أي الخمرة) ما هو شعار أهل الشرب وهي الأوتار والمزامير فقط . وهذا التحريم عند الغزالي يعتبر تحريماً من قبل « **الإتباع** »[38] كما حرمت الخلوة بالأجنبية لأنها مقدمة الجماع ، وحرم النظر الى الفخذ لاتصاله بالسوأتين ، وحرم قليل الخمر إن كان لا يسكر لأنه يدعو الى السكر ، وينتهي الغزالي الى القول في هذا الشأن أنه إن كان السماع يُذَكِّر الشرب ويشوّق الى الخمر عند من أَلِف ذلك فهو مَنْهِيٌّ لهذه العلة المخصوصة فيه .

وإذا كان السماع من عادة أهل الفسق فهو منهي عنه لأنه يُمنع التشبه بهم . ولأنه من تشبّه بقوم فهو منهم ، ويرى الغزالي في هذا المجال النهي عن السماع وأكثر من ذلك حتى أن السُّنة إذا صارت شعاراً لأهل البدعة فالأولى تركها خوفاً من التشبه بهم ، وبهذه العلة يحرّم ضرب الكوبة ، وهو طبل مستطيل دقيق الوسط واسع الطرفين - وضربها عادة المخنثين ولولا ما فيه من التشبه بهم لكان مثل طبل الحجيج والغزو . ويقول الغزالي أن الحلال منهي عنه إن كان في سبيل التشبه بأهل الفساد ، فلو اجتمع جماعة وزينوا مجلساً وأحضروا آلات الشرب وأقدامه ، وصبوا فيها الكنجبين ، ونصبوا ساقياً يدور عليهم ويسقيهم فيأخذون من الساقي ويشربون ويحيي بعضهم بعضاً بكلساتهم المعتادة بينهم حرم ذلك عليهم . وإن كان المشروب

---

(35) الحديث أخرجه الترمذي في الشمائل عن قتادة وزاد قوله : « وكان نبيكم حسن الوجه حسن الصوت » .

(36) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 248

(37) حديث المنع من الملاهي والمزامير والأوتار أخرجه البخاري من حديث أبي عامر وأبي مالك الأشعري « ليكوننّ في أمتي أقوام يستحلون الخز والحرير والمعازف » صورته عند البخاري صورة التعليق ولذلك ضعّفه ابن حزم ووصله أبو داود والاسماعيلي . والمعازف : الملاهي ؛ قاله الجوهري ، ولأحمد من حديث أبي أمامة : « إن الله أمرني أن أمحق المزامير والكبارات - يعني البرابط والمعازف» . ولأبي داود من حديث ابن عمر : سمع مزماراً فوضع إصبعيه على أذنيه . قال أبو داود : وهو منكر .

(38) الغزالي ، الاحياء ، ص 249

مباحاً في نفسه . فبهذه المعاني يقول الغزالي أنه حُرّم المزمار العراقي والأوتار كلها كالعود والصنج والرباب والبربط وغيرها ، وما عدا ذلك فليس في معناها كشاهين الرعاة والحجيج وشاهين الطبالين وكالطبل والقضيب ، وكل آلة يستخرج منها صوت مستطاب موزون سوى ما يعتاده أهل الشرب ، وأهل الإباحة هنا القياس على أصوات الطيور وغيرها . والقياس الذي يعتمده الغزالي في التحليل هو تحليل الطيبات كلها إلا ما في تحليله فساد . قال الله تعالى : ﴿ قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾ سورة الأعراف ، الآية 32 ، والأصوات الطيبة لا تحرم من حيث أنها أصوات موزونة وإنما تحرم بعارض آخر[39] .

د ـ مواضع تحليل السماع عند الغزالي :

أولاً ـ غناء الحجيج : وهؤلاء الذين يدورون في البلاد بالطبل والشاهين والغناء . وهذا عند الغزالي مباح وإباحته ظاهرة لا لبس فيها لأن غنائهم أشعار نظمت في وصف الكعبة والمقام والحطيم وزمزم وسائر المشاعر ووصف البادية وغيرها ، وأثر ذلك يهيج الشوق الى الحج ، وأصوات الطبول وحركات الإيقاع تزيد التشويق والتأثير . وهذا جائز ما لم يدخل فيه المزامير والأوتار التي هي من شعار الأشرار .

ثانياً ـ ما يعتاده الغزاة لتحريض الناس على الغزو : وذلك أيضاً مباح كما للحاج . طبعاً يجب أن يكون الاستغفار الذي تدعو اليه هذه الأشعار والألحان في سبيل قتال الكفار وبث الشجاعة وتحريك الغيظ والغضب عند المؤمنين .

ثالثاً ـ الرجزيات التي يسعملها الشجعان في وقت اللقاء : والغرض منها التشجيع للنفس وللأنصار وتحريك النشاط فيهم للقتال . وهذا مباح في كل قتال مباح ، ومندوب في كل قتال مندوب ، ومحظور في قتال المسلمين وأهل الذمة ، وكل قتال محظور .

رابعاً ـ أصوات النياحة ونغماتها وتأثيرها في تهييج الحزن والبكاء : ويقسم الغزالي الكآبة والحزن قسمان : محمود ومذموم . أما المذموم فالحزن على ما فات بدليل قول الله تعالى : ﴿ لكي لا تأسوا على ما فاتكم ﴾ سورة الحديد ، الآية 23 ، والحزن على الأموات من هذا القبيل . فهذا الحزن عند الغزالي مذموم وتحريكه بالنياحة مذموماً وقد ورد النهي الصريح من النبي ﷺ عن النياحة وذلك من حديث أم عطية : « أخذ علينا النبي في البيعة أن لا ننوح » وهذا الحديث متفق عليه ، إلا أن الأمر كان غير ذلك تماماً ، فالنياحة والبكاء كانت وما زالت تتمحور حول الأموات وخاصة المقامات الروحية العالية ، كما حصل بعد

---

(39) نفس المصدر .

استشهاد الامام الحسين بن علي فأصبح البكاء والنياحة شيمتين من شيم شيعته وأتباعه . وقد مرّ معنا أن سكينة بنت الحسين طلبت من ابن سريج أن يصوغ لها لحناً في النياحة . وقد سنّ الامام زين العابدين (علي بن الحسين ت عام 99 هـ) البكاء على الامام الحسين وقد اعتبره الشيعة أحد البكائين الخمسة(40) . ويذكر في هذا المجال أن للنياحة أثراً على الأفئدة والعقول لا يضاهيه شيء ، وكان هذا التأثير يبلغ حداً يذهب معه العقل وتزهق الروح ، فيحكى أن النبي داود عليه السلام كان يبكي ويبكي ويحزن حتى كانت الجنائز ترفع من مجالس نياحته . وكان يفعل ذلك بألفاظه وألحانه ، كذلك يحكى عن مخارق أنه توسّط دجلة يوماً ، وغنى ، فلم يبق أحد إلا بكى ، وكان غناؤ ه أحياناً يسر من جماله كل قلب(41) .

أما الحزن المحمود عند الغزالي فهو حزن الانسان على تقصيره في أمر دينه وبكاؤ ه على خطاياه والبكاء والتباكي والحزن والتحازن على ذلك محمود وعليه بكاء آدم عليه السلام . . . ونياحة داود عليه السلام(42) .

خامساً ـ السماع في أوقات السرور تأكيداً وتهييجاً له : وهو مباح إن كان السرور مباحاً كالغناء في أيام العيد وفي العرس وفي وقت قدوم الغائب وفي وقت الوليمة وعند ولادة المولود وعند ختانه ، وعند حفظه القرآن العزيز ، ويدل على ذلك ما نُقل عن إنشاد النساء على السطحوح عند قدوم رسول الله ﷺ .

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

ونقل عن جماعة من الصحابة أنهم حجلوا(43) في سرور أصابهم(44) . ومر معنا أن عائشة نظرت الى رجال الحبشة يلعبون في المسجد والنبي يسترها بردائه . وروى البخاري ومسلم في صحيحهما حديث عقيل عن الزهري عن عروة عن عائشة : أن أبا بكر رضي الله عنه دخل عليها وعندها جاريتان في أيام منى تدفقان وتضربان والنبي ﷺ متغش بثوبه فانتهرهما أبو بكر فكشف النبي عن وجهه وقال : « دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد »(45) . ويستدل الغزالي من هذه الأحاديث على إباحة الغناء واللعب وأن ذلك ليس بحرام ، وحديث رقص الحبشة يشير الى لعبهم ورقصهم في المسجد . وقد سار عدد كبير من الصحابة على

(40) راجع كتاب د. علي سامي النشار ، منشأة التفكير الفلسفي في الاسلام ، ج 2 ، ص 109 دار المعارف بمصر ، ط 70 ، 1978 م .

(41) محاضرات الأدباء ، طبعة بولاق ، ج 1 ، ص 117

(42) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 253

(43) حَجَلَ حَجْلاً وحَجَلاناً : رفع رجله ومشى متريثاً على الأخرى . والمقصود هنا نوع من الرقص الإيقاعي .

(44) الحديث أخرجه أبو داود من حديث عليّ .

(45) الغزالي ، الاحياء ، ج 1 ، ص 254

هذه السنة ، وشاعت التقاليد بالغناء وضرب الدفوف في الولائم والأعراس وحفلات الختان وغيرهما مما هو مباح . وذكر أن المغني ابن سريج شهر يوم غنى في ختان ابن مولاه عبد الله بن عبد الرحمن ابن أبي حسين . وقال لأم الغلام : « خففي عليك بعض الغُرم والكُلْفة ، فوالله لألهينَّ نساءك حتى لا يدرين ما جئت به ولا ما عزمت عليه »(46) .

سادساً : سماع العشاق تحريكاً للشوق وتهييجاً للعشق وتسلية للنفس : هذا النوع من السماع إما أن يكون في مشاهدة المعشوق وغرضه حينئذٍ تأكيد اللذة . وإما أن يكون مع المفارقة فالغرض تهييج الشوق . والشوق وإن كان ألماً ففيه نوع لذة إذا انضاف إليه رجاء الوصال . يقول جميل بثينة في تحرقه وألمه وتشوقه على بثينة :

ومـا زلـتـم يـا بثـيـنـة حتى لو انني	من الشوق استبكي الحمـام بكى ليـا
إذا خـدرت رجـلي وقيـل شفـاؤهـا	دعـاء حبيب كـنتِ انتِ دعـائيـا
ومـا زادني النـأي المفـرِّق بعـدكم	سُلُوّاً ولا طـول التـلاقي تقـاليـا
ولا زادني الـواشـون إلا صبـابة	ولا كـثرة النـاهين إلا تماديـا
ألم تـعلمي يـا عـذبة الـريق أنـني	أظـلّ إذا لم ألـق وجـهـك صـاديـا(47)

إلا أن الغزالي يرى أن مثل هذا التشوق حرام لأن المشتاق اليه ليس مباحاً وصاله(48) . أما الاشتياق لمن يباح وصاله فلا بأس في ذلك كمن يعشق زوجته أو سريته ، فيصغي الى غنائها لتضاعف لذته في لقائها ، فيحظى بالمشاهدة البصر ، وبالسماع الأذن . وهذا مباح لقول الله تعالى : ﴿ وما الحياة الدنيا إلا لهو ولعب ﴾ سورة الأنعام ، الآية 322 .

سابعاً ـ سماع من أحب الله وعشقه واشتاق الى لقائه فلا ينظر الى شيء إلا رآه فيه سبحانه : والسماع مهيج للشوق والمحبة لله عزّ وجلّ . وتستخرج منها أحوال تسمى بلسان الصوفية وجداً(49) . وتكون هذه الأحوال أسباباً لروادف وتوابع لها تحرق القلب بنيرانها . ويرى الغزالي أن سبب كل ذلك « سر الله تعالى في مناسبة النغمات الموزونة للأرواح وتسخير الأرواح لها وتأثرها بها شوقاً وفرحاً وحزناً وانبساطاً وانقباضاً »(50) . ولا يتحرج الغزالي في اطلاق لفظ « العشق » في حق الله تعالى وإن السماع هو المحرك له . ويجيب على ذلك بأن

---

(46) الأصبهاني ، الأغاني ، ج 1 ، ص 152 . وعبد الله بن عبد الرحمن هو بن أبي حسين بن الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف النوفليّ المكّي كما في كتب التراجم .

(47) الأصبهاني ، الأغاني ، ج 8 ، ص 126

(48) الغزالي ، الأحياء ، ج 2 ، ص 255

(49) نفس المصدر ، ص 256

(50) و (51) نفس المصدر .

من عرف الحق أحبه لا محالة ، ومن تأكدت معرفته تأكدت محبته ، والمحبة إذا تأكدت سميت عشقاً فلا معنى للعشق إلا محبة مؤكدة مفرطة(51) . ولذلك قالت العرب : ان محمداً عشق ربه ، لما رأوه يتخلى للعبادة في جبل حراء . ومعروف في هذا المجال أن مواقف المسلمين اختلفت في الحب الإلهي ، فقد أنكرت طوائف أن يكون الله تعالى يُحبّ على الحقيقة . وفسروا آيات المحبة بأنها ضرب من المجاز . وفسروا محبة العبد لله بمعنى طاعته ومحبة الله للعبد بمعنى رحمته . إلا أن الصوفية ـ كما ينحو الغزالي نحوهم اعتبروا ذلك الحب حقيقة واقعة . اختصوا بها وعدوها في تجاربهم وشعروا بلذتها . كذلك فإن لوازم المحبة حقائق واقعة كالأنس والشوق والالتذاذ وغيرها(52) . إلا أن الغزالي وإن كان يرى إن محبة الله هي المحبة الحقيقية واسم العشق في حب غيره مجازاً محضاً لا حقيقة فهو يقيد كلامه بأن هذه الألفاظ والمعاني (العشق والأنس) إنما يجوز إطلاقها في حق الله تعالى إذا لم تكن موهمة معنى يجب تقديس الله تعالى عنه . وقد دافع الصوفية عن المحبة الإلهية واستندوا في ذلك الى القرآن الكريم(53) ، فقد ذكر الله المحبة في مواضع من كتابه كقوله تعالى : ﴿ فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ﴾ (سورة المائدة الآية 54) . وقوله تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني ، يحببكم الله ﴾ (سورة آل عمران ، الآية 31) . ويستند الصوفية أيضاً بالإضافة الى الآيات القرآنية الى بعض الأخبار . وغني عن القول أن هذه الأحوال التي يدخل فيها الصوفي وما يتبعها من روادف تحرق القلب بنيرانها . وما يتبعها من مشاهدات ومكاشفات هي غاية مطالب المحبين لله تعالى غالباً ما كانت تقضي الى **الشطح الصوفي** ، وظاهرة الشطح هي مكمن عذاب الصوفي ومصدر تناقضه وهي خير معبر عن أزمته الداخلية ، فهو يرى أنه قد انكشفت له أسرار لا يستطيع كتمانها ، وإن أفشاها فقد وقع في المحظور وأساء الأمانة ، فالشطح كلام يترجمه اللسان عن وجد يفيض عن معدنه ، مقرون بالدعوى(54) . وقد عبّر أحد المتصوفة عن هذا العذاب ، وعن هذا الوجد الذي يمكن كتمانه بقوله :

فألقت على سرى أشعة نورها   فلاحت لجلاسي خفايا طويتي

---

(52) فتح الله خليف ، محاضرات في التصوف ، بيروت 1972 ، ص 75

(53) المحبة الإلهية ابن عربي (ت 638 هـ) هي أصل العبادة وسرها وجوهرها ، إذ أنه لا معبود إلا وهو محبوب . ولما كانت جميع الموجودات مجالي ومظاهر لعين واحدة ظهرت في الوجود فيما لا يتناهى من الصور . كان كل المعبودين صوراً للمعبود الواحد الحق وهو معنى قوله تعالى : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ (سورة الاسراء : 22) والمحبة متبادلة في مذهب ابن عربي بين الأنسان (باعتباره من صور الخلق) وبين الحق (الذي هو الله) فكما أن الإنسان يحب الحق في تجلياته وصوره وتكتمل محبته بشهود الحق ، فإن الحق يبادل الخلق حباً بحب واشتياقاً باشتياق ، فقد قال تعالى لداود عليه السلام فيما يروى من أخبار : « يا داود إني أشد شوقاً إليهم » . (راجع الفتوحات المكية لابن عربي ، دار صادر - بيروت . د. ت. ص 114 وما بعدها) .

(54) أبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي ، اللمع في التصوف ، نشرة الن نيلسون ، ليدن ، 1914 ، ص 375

فــإن كنت في سكـري شــطحـت فـإنني حــكـمـت بـتـمـزيـق الـفـؤاد المـفـتـت
ومـن عـــجـب أن الـذيـن أحـــبـهـم وقـد أعـــلـقـوا أيـدي الهـوى بـأعـــنـة
سقـوني وقـالـوا : لا تغنِ ! ولـو سقـوا جـبـال حنيـن مـا سـقـوني لغنـتِ.(55)

وقد أنكر الغزالي ظاهرة الشطح ورأى أنه كلام لا فائدة منه إلا أنه يشـوش القلوب ويدهش العقول ويحيّر الأذهان(56) .

وهكذا يكون الغزالي قد فنّد أنواع السماع وأكد كونها حلالاً ما لم تحرم بعارض آخر ، والعارض يكون مفسداً لحالة السماع إذا كان في سبيل الفتنة والفساد والصد عن سبيل الله وهـذا العارض قـد يكون في المُسمِـع أو آلة الاسمـاع ، أو في نظم الصـوت ، أو في نفس المستمع ومواظبته . ويعطي الغزالي أمثلة على ذلك لا مجال لحصرها ، فالعارض الذي يصيب المُسمع مثلاً هو المرأة التي لا يحـلّ النظر إليها وتخشى الفتنة من سماعها ، وفي معناها الصبي الأمرد الذي تخشى فتنته(57) . وعلى الإجمال يبقى السماع عند الغزالي حلالاً طالما أن لا نص ولا قياس بتحريمه .

3 ـ آثار السماع وآدابه عند الغزالي

أول درجات السماع عند الغزالي فهو المسموع وتنزيله على معنى يقع للمستمع ، ثم يثمر الفهم الوجد . ويثمـر الوجد الحركة بالجوارح(58) ، ويظهر من خـلال هذا التـدرج أن الغزالي يقصد بهذه المقامات الوصول الى المقام الأعلى المختص بالصـوفيين . وكـأن السماع الذي أحله الغزالي يعود عنده لينحصر في رجال التصوف الذين انقـطعت أسباب عـلائقهم بالدنيا وتوجهوا كلية نحو الله عزّ وجلّ . ويظهر ذلك لنا من خلال عرض حالات المستمع ، حيث يبرز الغزالي حال من ترك الدنيا وأحوالها وانصـرف الى غذاء الأرواح عـلى أنه أصفى الكائنات وأسماها . ويعرض أحوال المستمع فيفصلها الى أربعة أحوال :

أ ـ أن يكـون السماع بمجـرد الطبـع أي لا حظ له في السمـاع إلا استلذاذ الألحـان والنغمات ، وهذا مباح وهو أفسد رتب السماع(59) . إذ سائر البهائم تشارك الانسان في هذا الذوق ، ومعروف أن كل نوع حيوان يتلذذ بأصوات طيبة توافق ذوقه ، حكى الأصبهاني عن

---

(55) هذه الأبيات من قصيدة لعز الدين المقدسي ، أوردها ماسينيون في ديوان الحلاج ، وهي هنا مأخوذة من « **شطحات الصوفية** » لعبد الرحمن بدوي ، ص 9

(56) الغزالي ، الاحياء ، ج 1 ، ص 37

(57) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 257

(58) نفس المصدر ، ص 263

(59) نفس المصدر ، ص 263

(59) نفس المصدر .

المغني معبد أرسل إليّ الوليد بن يزيد فأشخصت اليه. فبينا أنا يوماً في بعض حمّامات الشام إذ دخل عليّ رجل له هيبة ومعه غِلمان له ، فاطّلى[60] واشتغل به صاحب الحمام عن سائر الناس . فقلت : والله لئن لم أُطلع هذا على بعض ما عندي لأكونَنَّ بمزجر الكلب ؛ فاستدبرته حيث يراني ويسمع مني ، ثم ترنّمت ، فالتفت إليّ وقال للغلمان : قدّموا إليه جميع ما ها هنا ، فصار جميع ما كان بين يديه عندي . قال : ثم سألني أن أسير معه الى منزله فأجبته ، فلم يدع من البرِّ والاكرام شيئاً إلا فعله ، ثم وضع النبيذ ، فجعلت لا آتي بحسن إلا خرجت إلى ما هو أحسن منه وهو لا يرتاح ولا يحفل لما يرى مني . فلما طال عليه أمري قال : يا غلام ، شيخَنا شيخَنا ، فأُتي بشيخ ؛ فلما رآه هشّ إليه ، فأخذ الشيخ العود ثم اندفع يغني :

سلُّورُ في القدر ويلي علُوة   جاء القط أكله ويلي علوه[61]

قال: فجعل صاحب المنزل يصفّق ويضرب برجله طرباً وسروراً . قال : ثم غناه :

وترميني حبيبة بالدُّراقن[62]   وتحسبني حبيبة لا أراها

قال : فكاد أن يخرج من جلده طرباً . قال : وانسللت منهم فانصرفت ولم يُعلم بي . فما رأيت مثل ذلك اليوم قط غناء أضيع ، ولا شيخاً أجهل ![63] .

وحال هذا الشيخ من السماع هو حال البهائم لأنه يطرب بمجرد الطبع ، فهو يستلذ الألحان والنغمات دون أن يفهم معنى ما يسمع وهذا ما قصده معبد عندما انسل من بين الحضور وقال : لم أر قط غناء أضيع ولا شيخاً أجهل .

ب ـ أن يسمع بفهم ولكن ينزله على صورة مخلوق إما معيناً وإما غير معين ، وهو

(60) اطّلى : لطخ نفسه بطيب أو نحو ذلك .

(61) لعل هذه لهجة شامية في كلمة « عليه » إذ ذاك . والسلور : السمك الجِرّيُّ بلغة أهل الشام والجرّي حوت يكون بنيل مصر طويل أملس ليس له فصوص ولا ريش وله رأس الى الطول وفم مستطيل كالخرطوم . وقال اسحق بن سليمان : أهل مصر يسمون الجرّي « السّلّور » (أنظر مفردات ابن البيطار مادة : جرى) . وقد ضبطه صاحب القاموس في مادة « صلور » بأنه كسنور . وذكره ابن الأثير في النهاية في حديث عمار : « لا تأكلوا السلور والانقليس » وقال : إنهما نوعان من السمك كالحيات .

(62) الدراقن : اسم الخوخ بلغة أهل الشام ، وقد فسره صاحب القاموس بأنه المشمش . وذكر السيد مرتضى قول ابن دريد : ان عرب الشام يسمون الخوخ « الدراقن » وقال : إن تفسيره بالمشمس غير معروف . (أنظر تاج العروس مادة دراقن) .

(63) الاصبهاني ، الأغاني ، ج 1 ، ص 55-56

سماع الشباب وأرباب الشهوات . . . . وهـذه الحالـة أحسن من أن نتكلم فيها إلا ببيان خستها والنهي عنها . ومهما تعددت النواهي عن هذا النوع من السماع وهذا الضرب من الغناء فهو الذي شاع وهو الذي من أجله كان الغناء ولربما كان تشدد المحافظين بالنهي عن السماع لاعتقادهم الراسخ بأنه لا يكون غناء ولا سماع إلا لمن يسمع بفهم ينزله على صورة مخلوق أو معين يصبو اليه أو يشتاق لوصاله . يحكى في هذا المجال عن ابن عائشة أنه عندما ألزم المغنون والمخنثون والسفهاء بلزوم مسجد رسول الله ﷺ في المدينة ، وكان في المسجد رجل ناسك يكنى أبا جعفر مولىً لابن عياش بن أبي ربيعة المخزومي يقرىء الناس القرآن ، وكان ابن عائشة يلازمه ، فخلا لابن عائشة يوماً الموضع مع أبي جعفر فقرأ له فطرَّب ورجَّع ، فسمع الشيخ صوتاً لم يسمع مثله قط ، فقال له : يا بن أخي ، أفسدت نفسك وضيّعتها ، فلو أنك لزمت المسجد وتعلمت القرآن لأقمت[64] للناس في مسجد رسول الله ﷺ في شهر رمضان ، ولأصبت بذلك من الولاة خيراً ، فوالله ما دخل أذني قط صوت أحسن من صوتك ؛ فقال ابن عائشة : فكيف لو سمعت يا أبا جعفر صوتي في **الأمر الذي صنع له !** قال : وما هو؟ قال : انطلق معي حتى أسمعكه ، فخرج معه الى ميضأة ببقيع الفرقد[65] عند دار المغيرة بن شعبة ، وكان أبو جعفر يتوضأ عندها كل يوم ، فاندفع ابن عائشة يغني :

الآن أبصرت الهدى وعلا المشيب مفارقي[66]

فبلغ ذلك من الشيخ كل مبلغ ، وقال : يا ابن أخي ، هذا حسن وأنا أشتهي أن أسمعه ، ولكن لا أطلبه ولا أمشي إليه ؛ وقال ابن عائشة : فعلي أن أسمعكه ، فكان يرصده ، فإذا خرج أبو جعفر يتوضأ خرج ابن عائشة في أثره حتى يقف خلف جدار الميضأة بحيث يسمع غناءه ، فيغنّيه أصواتاً حتى يفرغ أبو جعفر من وضوئه[67] .

---

(64) أشارت لجنة تحقيق كتاب الأغاني (طبعة دار الكتب المصرية) الى أن هذه الكلمة وردت في بعض المخطوطات « لأممت الناس » أو « لأممت للناس » وكلاهما تحريف .

(65) بقيع الفرقد : مقبرة أهل المدينة المنورة .

(66) الشعر كما يقول الأصبهاني للوليد بن يزيد ويقال أنه لابن هريمة وأبيات القصيدة :

طرق الخيال المعتري وَهْناً فؤادي العاشق
طيف ألمّ فهاجني للبيس أمّ مُساحق
الآن أبصرت الهدى وعلا المشيب مفارقي
وتركت أمر غوايتي وسلكت قصد طرائقي

(67) الأصبهاني ، الأغاني ، ج 2 ، ص 215-216

وسماع الشباب وافتتانهم به هو ما كان يحذره الحريصون على الدين من فتن الدنيا لذلك قال عطاء بن رباح عندما لقي ابن سريج بذي طوى وقال له : يا فتّان ، ألا تكف عما أنت عليه ! كفى الله الناس مئونتك . فقال ابن سريج : وما على الناس من تلويني ثيابي ولعبي بجرادتي ؟ فقال له: تفتنهم أغانيك الخبيثة . فقال له ابن سريج : سألتك بحق من تَبِعْتَه من أصحاب رسول الله ﷺ وبحق رسول الله عليك ، إلا ما سمعت مني بيتاً من الشعر ، فإن سمعت مُنكراً أمرتني بالامساك عما أنا عليه . وأنا أقسم بالله وبحقّ هذه البنيّة[68] لئن أمرتني بعد استماعك مني بالامساك عما أنا عليه لأفعلنَّ ذلك . فأطمع ذلك عطاءً في ابن سريج ، وقال : قل . فاندفع يغنّي بشعر جرير :

إن الذين غدَوْا بلُبِّك غادروا وشلاً[69] بعينك لا يزالَ مَعينا[70]
غيَّضْن[71] من عبراتهنّ وقُلن لي ماذا لقيت من الهوى ولقينا

قال : فلما سمعه عطاءُ اضطرب اضطراباً شديداً ودخلته أريحية ، فحلف ألاّ يكلّم أحداً بقية يومه إلا بهذا الشعر ، وصار إلى مكانه من المسجد الحرام ؛ فكان كل من يأتيه سائلاً عن حلال أو حرام أو خبر من الأخبار ، لا يجيبه إلا بأن يضرب إحدى يديه على الأخرى وينشد هذا الشعر حتى صلى المغرب ، ولم يعاود ابن سريج بعد هذا ولا تعرّض له[72] .

ج ـ في الحالة الثالثة يتحدث الغزالي عن سماع المريدين ولا سيما المبتدئين . والمريد في لغة المتصوفة هو من قصد معرفة الله سبحانه و« يسعى للوصول إليه بطريق المشاهدة بالسر وكشف الغطاء »[73] . ويرى الغزالي في حالة هذا أن السماع بالنسبة له « كحجري القدح الذي يوري زناد قلبه ، فتشتعل به نيرانه ويقوي به انبعاث الشوق وهيمانه »[74] .

د ـ الحالة الرابعة في السماع هي سماع من جاوز الأحوال والمقامات فغرب عن فهم ما سوى الله تعالى حتى غرب عن نفسه وأحوالها ومعاملاتها »[75] . ويبيّن أن حال هذا الصوفي

---

(68) البنيّة : الكعبة .

(69) الوشل : الماء والدمع القليل والكثير . والمراد هنا الدمع الكثير .

(70) المَعين : الجاري السائل على وجه الأرض . وقد قيل في اشتقاقه إنه اسم مفعول من عانَ الماءَ : أساله . وقيل هو اسم مفعول لا فعل له ، وقيل هو صفة مشبهة من معنَ الماء يَمعنُ فهو مَعِين إذا جرى وسال (أنظر اللسان مادتي عين ومعن) .

(71) غيضن : أرسلن دموعهن حتى نزفتها .

(72) الأصبهاني ، الأغاني ، ج 1 ، ص 256-257

(73) و (74) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 263

(75) نفس المصدر .

هي حال من انتقل من حال الشهود الى حال الفناء، وحكايات الصوفيين وهيامهم على وجوههم في آفاق الأرض ، وتمزيق ثيابهم وشق صدورهم وتلف أنفسهم من الوجد والغناء كثيرة جداً ويعرض الغزالي في هذا الباب لعدد وفير من الأمثلة ، إلا أن ما يستوقفنا هنا هو ما سبق وأشرنا إليه من أن الغناء والسماع المسموح بهما عند الغزالي هو غناء الصوفية وسماعهم . لأن السماع المباح الذي تحدث عنه هو الذي يقصد به التقرب لله سبحانه وتعالى . وليس الغناء ما قاله ابن عائشة لأبي جعفر ـ كما مر ذكره ـ كيف لو سمعت صوتي في الأمر الذي صنع له ! أي للطرب . وظل السماع مقروناً بحالات الطرب والنشوة أكثر مما هو مرتبط بحلقات الصوفية الساعين للتقرب الى الله عزّ وجل بشتى الوسائل ، وقد عد السراج المتوفي سنة 378 هـ / 988 م السماع والرقص من الأغلاط التي وقع بها بعض المتمرّسين بالتصوف ، وعدهم من طبقة الذين غلطوا في الفروع ، وذلك عائد لقلة معرفتهم بالأصول ، ومتابعتهم لحظوظ النفوس ومزاج الطبع ، فكان مثلهم كمثل من يدخل بيتاً مظلماً بلا سراج ، فالذي يفسده أكثر مما يصلحه، ويقول أنه أخطأ من ظن أن «التصوف هو السماع والرقص واتخاذ الدعوات وطلب الأرفاق والتكلف للاجتماعات على الطعام وعند سماع القصائد والتواجد والرقص ومعرفة صياغة الألحان بالأصوات الطيّبة والنغمات الشجيّة والاختراع من الأشعار الغزلية بما يشبه أحوال القوم »(76) . وهكذا يكون السراج من رأي الناهين عن السماع والرقص وصياغة الألحان الشجية ، واعتماد هذا الأسلوب طريقاً للوصول الى الله تعالى ، وإذا اعتمدنا على هذا الرأي ـ لأن السراج من كبار رجال التصوف والمشتغلين به في أواخر القرن الرابع الهجري ـ عدنا الى القول بأن الغناء والسماع اختصت به قلوب وعقول تتوق الى الطرب والنشوة والابتعاد عن الواقع والغوص في الخيال والتفريج عن نفس المهموم والمحزون بينما يجب أن يكون حال الساعي الى الله تعالى أقرب الى الصحوة من النشوة وأقرب الى الجهاد من التواكل والتسليم ، والأمر عند الغزالي على خلاف ذلك فهو يرى أن الصوفية هم أرباب السماع ، وقيامهم وتواجدهم وهيامهم على وجوههم هو في سبيل الله عزّ وجلّ والوجد عنده هو أعلى الدرجات التي يترقى اليها الصوفي . ويستفيض الغزالي في وصف أحوال الصوفية هنا في حلقات السماع والرقص ويبدو منتصراً لمذهبهم .

4 ـ خلاصة وحكم

بدا واضحاً أن السماع الذي دافع الغزالي عن إباحته عاد فانحصر جوهره لديه بالمتصوفة ، فإذا كان كل سماع لا يقصد به الله تعالى لا فائدة فيه إن لم نقل بأنه منهي عنه فالسماع المباح والحقيقي هو سماع المتصوفة ، وهذا يضعف الكثير من الحجج التي ساقها

---

(76) أبو نصر السراج : اللمع في التصوف ، نشرة نيكلسون ، ليدن 1914 ، ص 419

الغزالي ضد القائلين بالتحريم ، لأن المحرمين إنما كانوا يقصدون الغناء والسماع اللذين تعارف الناس على استعمالها ، والأمر المقصود منها ، وليس خاف أن صنعة الغناء كانت وما زالت مرتبطة بالطرب والنشوة واللهو وما إلى ذلك . ويجدر القول هنا أن البعض هاجموا التصوف لأنه يدعو الى الغناء والغيبة والسكر ، وقالوا بأنه لا يمت الى الاسلام الذي يريد أمة صاحية مجاهدة تخرج كما خرجت جيلاً من الصحابة أمثال أبي بكر وعمر وعلي(77) . فكيف يكون الحال إذا كان السماع الذي يذهب بالقلوب من رسوم المتصوفة وشغلاً شاغلاً لهم ، ونعود لنؤكد هنا أن الغناء يرتبط بالطرب وبمجالس اللهو ، وهذا ما كان يخشاه المحافظون ، ذلك أنه يذهب بالقلوب ويعمي الأبصار ، فقد حكي أن ابراهيم بن المهدي غنى مرة في مجلس المأمون ، فأحسن ، وكان في المجلس كاتب من كتاب طاهر بن الحسين يُكنى أبا زيد ، وكان قد بعثه في بعض أموره ؛ فطرب أبو زيد ، فأخذ بطرف ثوب ابراهيم(78) ، فقبله ، فنظر اليه المأمون كالمنكر لما فعل ، فقال له أبو زيد : ما تنظر ! أقبّله والله ! ولو قتلت ، فتبسم المأمون(79) .

والكلمة الأخيرة في هذا الفصل نقولها بأن التسامح الذي أبداه الغزالي بإباحة السماع واعتبار سماع المتصوفة عبادة يقصد بها التقرب لله زادت من نقمة الناقمين عليه وهم كما هو معروف كثر سواء في المشرق أو في المغرب حتى وصل الأمر ببعض المحدثين الذين اهتموا

---

(77) يبدأ تاريخ التجريح بالتصوف مع الملطي المتوفي سنة 377 هـ في كتابه (التنبيه ، ص 92 -93) . وأكمل هذا الهجوم عبد الرحمن الجوزي المتوفي سنة 597 هـ في كتابه المشهور « تلبيس إبليس ، البابان العاشر والحادي عشر ، ص 155- 373) . كذلك هاجم التصوف ابن تيمية المتوفي سنة 628 هـ ، وله آراء في الصوفية بعضها معتدل وبعضها متطرف . أما الذين هاجموا التصوف من المحدثين فنذكر منهم : جمال الدين الأفغاني المتوفي سنة 1314 هـ / 1897 م . والشاعر الفيلسوف محمد إقبال المتوفي عام 1938 م . وعبد الحميد بن باديس المتوفي عام 1940 م .

(78) كان ابراهيم بن المهدي ممن رشح للخلافة وخرج على المأمون ، فقبض عليه وأحب أن يوبّخه على رؤوس الناس . فجيء بإبراهيم يحجل في قيوده فوقف على طرف الأيوان وقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فقال له المأمون : لا سلّم الله عليك ولا حفظك ولا رعاك ولا كلأك يا ابراهيم . فقال له ابراهيم : على رسلك يا أمير المؤمنين ! ! فلقد أصبحت وليّ ثأري ، والقدرة تذهب الحفيظة ، ومن مد له الاغترار في الأمل هجمت به الأناة على التلف . وقد أصبح ذنبي فوق كل ذنب ، كما أن عفوك فوق كل عفو . . . فإن تعاقب فبحقك ،. وإن تعف فبفضلك . قال : فأطرق ملياً ثم رفع رأسه فقال : إن هذين أشارا عليّ بقتلك . فالتفت فإذا المعتصم والعباس بن المأمون ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أما حقيقة الرأي في معظم تدبير الخلافة والسياسة فقد أشارا عليك به وما غشّاك إذ كان ما كان مني ، ولكنّ الله عودك من العفو عادة جريت عليها دافعاً ما تخاف بما ترجو ، فكفاك الله . فتبسم المأمون وأقبل على ثمامة (ثمامة بن أشرس أحد المعتزلة البصريين) ثم قال : إن من الكلام ما يفوق الدر ويغلب السحر ، وإن كلام عمي منه ، أطلقوا عن عمي حديده وردوه إلي مكرماً . فلما رُدّ إليه قال : يا عم صر الى المنادمة وارجع الى الأنس ، فلن ترى مني أبداً إلا ما تحب . (راجع الجزء العاشر من الأغاني ، ص 116 . وتاريخ بغداد ج 6 ، ص 144 ، طبع مصر) .

(79) كتاب بغداد لطيفور ، ص 192

بفكر الغزالي الى وصف منهجه الديني بـالتناقض وذلـك في موضـوعات النجـوم ، والسماع وتعليم القرآن . ويعتبر عبد الأمير الأعسم هذه الأمور غفلات الغزالي ، ويطلق هذا الرأي دون أي فحص وتدقيق وراء المنهج الفكري والديني الذي من أجله قال الغزالي بحلية بعض السماع وبإجازة أخذ الأجر في تعليم القرآن وذلك كواسطة فقط لا غاية[80] . ويبقى أن شك الغزالي وحيرته وقلقة وتصوفه أخيراً وحيرته بين الفقه والتصوف جرت عليه الكثير في حياته وفي مماته على ما يبدو .

---

(80) عبد الأمير الأعسم : الفيلسوف الغزالي ، دار الأندلس ، بيروت 1981 ، ط 2 ، ص 73-74 . والجدير بالذكر أن الغزالي تعرض للكثير من النقد والتجريح بعد تأليفه إحياء علوم الدين فابن الجوزي يقول عنه أنه لم يكن أميناً في رواية الحديث (ابن الجوزي : تلبيس ابليس ، ص 597) . وقد رد الغزالي نفسه على معارضيه بكتاب أسماه : « الإملاء على إشكالات الاحياء » . (مؤلفات الغزالي للدكتور عبد الرحمن بدوي ، القاهـرة 1961 م ، ص 112 وهو نفس كتاب : الأجوبة المسكتة عن الأسئلة المبهتة) . أما في الأندلس فقد اتهم الغزالي بالابتداع والهرطقة من قبل قاضي قرطبة وأحرق كتابه : « إحياء علوم الدين » على مشهد من جماهير الشعب ، وفرضت عقوبة القتل على كل من يقرأه في طول المملكة وعرضها » (راجع بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ، ج 2 ، ص 130) . ويرى فيليب حتي أن الهجمة على كتاب الاحياء في الأندلس كانت من علي بن يوسف بن تاشفين باعتبار أن مادة الكتاب تنتقص الفقهاء ومنهم اتباع مالك ، (راجع فيليب حتي ، تاريخ العرب ، بيروت 1961 ، ج 2 ، ص 645) .

الفصل الخامس

آداب التعلم عند الغزالي

1 ـ فضل العلم

فضل العلم وشرفه جلي لا لبس فيه ، وقد وُضع العلم في رأس الفضائل عند كـافة الشعوب التي بنت حضارات على مر العصور والأجيال . وكان لرجال العلم شرف التقديس والتبجيل ، ناهيك أن الرسل كانوا معلمين مرشدين للقوم الذين كلفوا بهدايتهم وتعليمهم ، فالنبي محمد ﷺ لم يترك أمراً من أمور الدين والدنيا إلا وخلّـف فيه أثراً تعليمياً لأمته تهتدي به على مر الأجيال . والسيد المسيح عليه السـلام كان يبشـر « وتلاميـذه » من حولـه يتعلمون تعاليمه المقدسة ، ونقرأ في انجيل القديس متى أن يسوع المسيح عندما رأى الجموع صعد الى الجبل . ولما جلس دنا اليه تلاميذه ، ففتح فاه يعلمهم[1] . . وقد كان لقوة تعاليمه السماوية أثراً لم يمح فاق أثر معجزاته في شفاء المرضى وغير ذلك من الآيات التي نطقت بنبوته ، وكما ورد على لسان القديس متى أنه « لما أتم يسوع هذا الكلام كله بهت الجمـوع من تعليمه ، لأنه كان يعلمهم كمن له سلطان لا ككتبتهم والفريسيين[2] . أما في القرآن الكريم فشواهد فضل العلم كثيرة ، ومنها قول الله عزّ وجلّ ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط ﴾ سورة آل عمران ، الآية 18 ، يقول الغزالي : فانظر كيف بدأ سبحانه وتعالى بنفسه وثنّـى بالملائكة وثلّـث بأهل العلم ؛ وناهيك بهذا شرفاً وفضلاً وجلاء ونبلاً[3] . وقوله تعالى : ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ سورة المجادلـة ، الآية

(1) انجيل القديس متى ، الفصل الخامس .
(2) نفس المصدر .
(3) العزالي ، الاحياء ، ج 1 ، ص 10

11 . وآيات كثيرة تلحق رتبة العلماء برتبة الأنبياء ، فقد قال الله تعالى : ﴿ ولو ردوه الى الرسول والى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾ سورة النساء ، الآية 83 ، وقال عزّ وجلّ : ﴿ ولقد جئناهم بكتاب فصّلناه على علم ﴾ سورة الأعراف ، الآية 52 ، والأحاديث النبوية التي تجل العلم وترفع من قدر أهله الى مراتب الأنبياء كثيرة حتى يمكن القول بأن من الصعب إحصاءها وذلك لاقتران العلم بالدين اقتراناً لا فكاك له . ونكاد أن نقول أن لا دين دون علم . وكفى للعلماء فخراً وشهادة أن يقول الرسول فيهم : « يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء »[4] . ويقول الامام علي : « العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد ، وإذا مات العالم ثلم في الاسلام ثلمة لا يسدها إلا خلف منه »[5] . ومن حكم بزرجمهر قوله في العلم والأدب : « ما ورَّثت الآباء الأبناء شيئاً أفضل من الأدب ، لأنها تكتسب المال بالأدب وبالجهل تُتْلفه فتقعد عُدْماً منهما » . وقال رجل لخالد بن صفوان : مالي إذا رأيتكم تتذاكرون الأخبار ، وتتدارسون الآثار ، وتتناشدون الأشعار ، وقع عليَّ النوم ؟ قال : لأنك حمار في مسلاخ انسان[6] .

ولبيان شرف العلم وعزِّه قرنه العرب بالسؤدد . وغني عن القول أن للسيادة قيمة عالية جداً في حياة العرب وتقاليدهم . وإذا كانت شروط السيادة لا تقوم إلا بالحلم والشجاعة والكرم والاقدام فالعلم كان على رأس هذه الفضائل ومقدماً عليها ، وفي هذا يحكى عن الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز عندما قدم عليه وفد من العراق فنظر الى شاب يتحوّز يريد الكلام ، فقال عمر : كبِّروا كبِّروا ، فقال الفتى : يا أمير المؤمنين إن الأمر ليس بالسن ، ولو كان كذلك كان في المسلمين من هو أسنّ منك ، قال صدقت فتكلم[7] . ولذلك كان الأحنف (وهو سيد قومه) يقول : « كاد العلماء أن يكونوا أرباباً ، وكل عزّ لم يؤكّد بعلم فإلى ذل ما يصير . وكان ابن المقفع يقول : إذا كرمك الناس لمال أو سلطان فلا يعجبنك ذلك ، فإن زوال الكرامة بزوالهما ، ولكن ليعجبك إن أكرموك لدين أو أدب »[8] .

2 ـ فضيلة التَّعَلُّم

حثّ الدين الاسلامي على التعلم (والعلم كان علم الدين لا الدنيا) وبالغت الأخبار في تقديم فضل المتعلم وحثت على طلب العلم ، فالله عزّ وجلّ يذكر ذلك في آياته بقوله تعالى : ﴿ فلولا نَفَرَ من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ﴾ سورة التوبة الآية 122 ،

---

(4) أخرج هذا الحديث ابن عبد البر من حديث أبي الدرداء .

(5) الغزالي ، الاحياء ، ج 1 ، ص 12

(6) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج 5 ، م 2 ، ص 120 . والمسلاخ : الجلد .

(7) نفس المصدر ، ج 3 ، م 1 ، ص 230

(8) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج 5 ، م 2 ، ص 121

وقوله عزّ وجلّ : ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ سورة النحل ، الآية 43 . أما أحاديث الرسول ﷺ فمنها : « من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً الى الجنة »[9] . وقوله أيضاً : « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاء بما يصنع »[10] . أما الصحابة وتابعوهم فقد فضلوا التعلم على أي شيء آخر وعجبوا ممن لا تدعوه نفسه الى التعلم ، فإبن المبارك يقول : « عجبت لمن لم يطلب العلم كيف تدعوه نفسه الى مكرمة ؟ » . وقال أبو الدرداء : « لأن أتعلم مسألة أحب إليّ من قيام ليلة »[11] . والشافعي يرى أن طلب العلم أفضل من النافلة[12] .

وحكى ابن عبد الحكم عن مالك بن أنس قال : كنت عند مالك أقرأ عليه العلم فدخل الظهر فجمعت الكتب لأصلي فقال : يا هذا ما الذي قمت إليه بأفضل مما كنت فيه إذا صحت النية[12] .

أما الآثار التي حضت على طلب العلم ففيها الكثير من التبصر في أمور الخلق ، فالناس كانت وما دأبت ترى لأهل العلم حقاً مقدساً ، والعلم مقدم على المال والأرزاق والاحساب والانساب . لذلك قال علي بن أبي طالب : « قيمة كل إنسان ما يحسن »[13] . وكان داود النبي عليه السلام يقول لابنه سليمان : لفَّ العلم حول عنقك ، واكتبه في ألواح قلبك[14] . ومن وصية للمهلب لبنيه : « إياكم أن تجلسوا في الأسواق إلا عند زرّاد أو ورّاق »[15] . أراد الزرّاد للحرب ، والورّاق للعلم . والمرء لا ينقطع عن التعلم منذ ولادته حتى مفارقته الدنيا ، فهو في كل يوم ، بل وفي كل ساعة في موقف يفرض عليه أن يتعلم من أمور دينه ودنياه علماً يستفيد منه زاداً لحياته ، ففي حكاية عن الوليد بن يزيد أنه كان يلعب بالشطرنج مع عبد الله بن معاوية فاستأذن عليه رجل من ثقيف فأذن له وستر الشطرنج بمنديل ، فلما دخل سلّم فسأله حاجته ؛ فقال له الوليد : أقرأت القرآن ؟ قال : لا ، يا أمير المؤمنين ! شغلتني عنه أمور وهنات ، قال : أفتعرف الفقه ؟ قال : لا ، قال : أفرويت من الشعر شيئاً ؟ قال : لا ، قال : أفعلمت من أيام العرب شيئاً . قال : لا ، قال : فكشف المنديل عن الشطرنج وقال : شاهك ، فقال له عبد الله بن معاوية : يا أمير المؤمنين ! قال : اسكت فما معنا أحد[16] . وهذا تنبيه الى خروج هذا الرجل من آدميته في نظر الوليد بن يزيد لانشغاله عن تعلُّم ما لا بد منه في زمانه .

(9) الحديث أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة .

(10) الحديث أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم وصححه من حديث صفوان بن عسال .

(11) الغزالي ، الاحياء ، ج 1 ، ص 14

(12) نفس المصدر .

(13) و (14) و (15) ابن عبد ربه العقد الفريد ، ج 2 ، ص 67

(16) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج 5 ، ص 120 -121

3 ـ فضيلة التعليم

حث الدين الاسلامي على وجوب قيام العالم بدوره المنوط به لتعليم قومه وحرّم كتم العلم عن المحتاجين اليه وقد ظهر ذلك في آيات القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿ ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾ سورة التوبة ، الآية 122 ، يقول الغزالي أن المراد بهذه الآية هو التعليم والإرشاد(17) . أما قوله تعالى : ﴿ وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيّننّه للناس ولا تكتمونه ﴾ سورة آل عمران ، الآية 187 ، وهو إيجاب للتعليم . أما قوله تعالى : ﴿ وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾ سورة البقرة الآية 146 ، فهذا تحريم للكتمان . كما قال الرسول ﷺ : « ما آتى الله عالماً علماً إلا وأخذ عليه من الميثاق ما أخذ على النبيين أن يُبيِّنوه للناس ولا يكتموه »(18) . وهكذا يكون ميثاق العلماء كميثاق الأنبياء درجة ، أما عقاب كاتم العلم عند الرسول فعظيم حيث يقول : « من علِم علماً فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار »(19) أما آثار السلف في الإقبال على فضيلة التعليم فكثيرة ، فقد روي أن سفيان الثوري قدم عسقلان فمكث لا يسأله إنسان ، فقال : « اكروا لي لأخرج من هذا البلد ، هذا بلد يموت فيه العلم »(20) وهو إنما قال قوله هذا حرصاً على فضيلة التعليم ، وعن الحسن قوله : « لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم »(21) ، وهذا يعني أنه بالتعليم يخرج الناس من حد البهيمية الى حد الإنسانية ، وإذا كان هذا فضل العلم الذي لا يقوم إلا بالتعليم ، ففضيلة التعليم إذن لا توازيها فضيلة ، ولذلك قال بعض أهل العلم : يُغفرُ للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنب واحد »(22) . وقد تشددت الشرائع السماوية والقوانين الوضعية والعرفية في فرض القيود والمحاذير على العالم لئلا ينحرف عن رسالته ويضيع العلم عن غايته ، لذلك أوصى السيد المسيح بأن لا تعطى الحكمة إلا لمن يستحقها(23) ، وأوصي العالم بالتواضع وبترك الخوض فيما لا يعلم ، لذلك قال ابن عباس : إذا ترك العالم قول لا أدري أصيبت مقاتله(24) » وعن أبي الدرداء قوله : « من يزدد علماً يزدد وجعاً » . ومن حكم بزرجمهر الخالدة عندما كتب إليه كسرى متشفياً به وهو في الحبس : كانت ثمرة علمك أن صرت بها أهلاً للحبس والقتل ، فكتب اليه بزرجمهر : « أما ما كان

(17) الغزالي الاحياء ، ج 1 ، ص 14

(18) الحديث أخرجه أبو نعيم في فضل العالم العفيف من حديث ابن مسعود بنحوه .

(19) هذا الحديث رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة ، قال الترمذي : حديث حسن .

(20) و (21) الاحياء ، ج 1 ، ص 15 -16

(22) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج 5 ، ص 125

(23) من أقوال السيد المسيح : لا تعطوا القدس للكلاب ولا تلقوا جواهركم قدام الخنازير (إنجيل القديس متى ، الفصل السابع ، الآية 6) .

(24) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج 5 ، ص 125

معي الجدّ فقد كنت أنتفع بثمرة العلم ، فالآن إذ لا جدّ فقد صرت انتفع بثمرة الصبر مع أني إن كنت فقدت كثير الخير فقد استرحت من كثير الشر »[25] .

وغني عن القول في هذا المجال أن أبرز وصية كان يُـوصى بها العـالم ليتحلى بهـا على الدوام هي أن لا يقول ما لا يعلم فيُتّـهم فيما يعلم .

4 ـ في آداب المتعلم

يتحدث الغزالي عن آداب المتعلم ووظائفه وينظم تفاريقها في عشر وظائف :

الوظيفة الأولى :

تقـديم طهارة النفس عن رذائـل الأخلاق ومـذموم الأوصـاف[26] ، إذ أن العلم عند الغزالي عبادة القلب وصلاة السر وقربة الباطن الى الله تعالى ، وكما لا تصح الصلاة التي هي وظيفة الجوارح الظاهرة إلا بتطهير الظاهر عن الأحداث والأخباث ، فكذلك لا تصح عبادة الباطن وعمارة القلب بالعلم إلا بعد طهارته عن خبائث الأخلاق وأنجـاس الأوصاف[27] . وبذلك يعتبر تطهير القلب من شهوات الدنيا ومفاتنها طريقاً للاقبال على تلقي العلم والانتفاع به ، أما إن قال قائل : كم من طالب رديء الأخلاق حصل العـلم فإن الـرد على ذلـك : هيهـات ما أبعـده عن العلم الحقيقي النافـع في الآخرة الجـالب للسعادة ، وينتقـد الغـزالي المترسمين الذين يلفقون الحديث بألسنتهم مرة ويرددونه بقلوبهم أخرى وليس ذلك من العلم في شيء[28] . وينقل عن ابن مسعود قوله أن العلم ليس بكثرة الرواية إنما هو نور يقذف في القلب ، وهذا يتسق ونظرية الغزالي في المعـرفة ، فـالعلم الحقيقي عند الغـزالي هو التعليم الرباني بواسطة الوحي الذي انسد بابه بعد النبي محمد ﷺ خاتم النبيين ، أو بواسطة الإلهام الذي هو العلم اللدني ، والعلم اللدني هـو الذي لا واسـطة في حصولـه بين النفس وبـين الباري ، وإنما هو كالضوء من سراج الغيب يقع على قلب صاف فارغ لطيف . . . وإذا كان الوحي حلية الأنبياء ، فالالهام زينة الأولياء[29] .

ولعل هذا التنبيه من الإمام الغزالي إلى أهم وظيفة من وظائف المتعلم بتقديم طهـارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف جاء بعـد أن تدهـور حظ المتعلمين في الهمـة العـالية وصـدق النية والإخـلاص ، وقد سبق الغـزالي في التنبيـه الى ذلـك ابن قتيبـة (ت 276 هـ) عندما هاجم متعلمي عصره هجوماً عنيفـاً يصلح لكل عصـر ومصر ، فقـد نعى

---

(25) نفس المصدر .

(26) و (27) الغزالي ، الاحياء ، ج 1 ، ص 48

(28) نفس المصدر .

(29) الغزالي ، الرسالة اللدنية ص 24 من مجموعة « العقود واللآلي من رسائل الامام الغزالي » المطبعة المحمودية التجارية بمصر . د. ت.

العلم والمتعلمين في مفتتح كتابه المشهور أدب الكاتب بقوله : « آضت المروءات في زخارف النّجْد وتشييد البنيان(30) ، ولذات النفوس في اصطفاق المزاهر(31) ومعاطاة الندمان ، ونُبذت الصنائع(32) ، وجُهل قدر المعروف ، وماتت الخواطر ، وسقطت همم النفوس ، وزهد في لسان الصدق وعقد الملكوت(33) . فأبعد غايات كاتبنا في كتابته أن يكون حسن الخط ، قويم الحروف ، وأعلى منازل أديبنا أن يقول من الشعر أبيًّاتاً في مدح قينة أو وصف كأس ، وأرفع درجات لطيفنا أن يطالع شيئاً من تقويم الكواكب ، وينظر في شيء من القضاء وحدِّ المنطق ، ثم يعترض على كتاب الله بالطعن وهو لا يعرف معناه ، وعلى حديث رسول الله ﷺ بالتكذيب وهو لا يدري من نَقَلَهُ ، قد رضي عوضاً من الله وبما عنده بأن يقال : فلان لطيف وفلان دقيق النظر ، يذهب الى أن لُطف النظر قد أخرجه عن جملة الناس وبلغ به علم ما جهلوه ، فهو يدعوهم الرِّعاع والغُثاء والغُثْرَ(34) . وهو لعمرُ الله بهذه الصفات أولى ، وهي به أليق ؛ لأنه جهل وظنّ أن قد علم ، فهاتان جهالتان ؛ ولأن هؤلاء جهلوا وعلموا أنهم يجهلون(35) .

وقد اختصر رسول الله ﷺ رذائل الأخلاق ومذمومات الأوصاف عند المتعلم بأربعة فيحكي ابن قتيبة في عيون الأخبار عن محمد بن عبيد عن الصلت بن مهران عن الشعبي عن عبد الله عن رسول الله ﷺ : « من تعلّم العلم لأربعة دخل النار : ليباهيَ به العلماءَ أو يماريَ به السفهاء أو يُميل به وجوه الناس أو يأخذ به من الأمراء »(36) .

الوظيفة الثانية

الوظيفة الثانية الواجبة للمتعلم عند الغزالي هي أن يقلّل علائقه من الاشتغال بالدنيا ويبعد عن الأهل والوطن فإن العلائق شاغلة وصارفة(37) ، وذلك تصديقاً لقوله تعالى : ﴿ ما

---

(30) آضت : صارت ورجعت .

(31) المزاهر : جمع مرهر ، وهو العود ، وسمي مزهراً لحسن صوته ؛ فإن الزهرة الحسن والغضارة ، واصطفاف المزاهر : الضرب بها واجتلاب أصواتها .

(32) الصنائع : جمع صنيعة ، وهي الاحسان .

(33) لسان الصدق : الثناء الحسن ، قال تعالى : ﴿ واجعل لي لسان صدق في الآخرين ﴾ سورة الشعراء ، الآية 84 . وقوله : « عقد الملكوت » العقد : مصدر عقدت الحبل عقداً ، أي : شددته ، والملكوت : أصله الملك ، والمعنى أن الرغبة قد قلت في طلب الثناء الحسن وفي بلوغ مراتب الكمال، لضعف همم الناس .

(34) الرعاع : رذال الناس وضعفاؤهم ، وهم الذين إذا فرغوا طاروا ، ويقال للنعامة رَعاعة لأنها دائماً منخوبة فزعة ، والغُثاء ـ بضم الغين ، وما يحمله السيل من يابس النبات ، وأراد به السفلة ، والغُثر جمع أغثر ، وهو الأحمق ، وقالوا للضبع غثراء لأنها أحمق الدواب .

(35) ابن قتيبة ، أدب الكاتب ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، ط 4 ، 1963 م ـ 1382 هـ . ص 2-3

(36) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج 5 ، ص 119

(37) الغزالي ، الاحياء ، ج 1 ، ص 49

جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ﴾ سورة الأحزاب ، الآية 4 ، وهذه الوظيفة أو هذا الشرط كما نرى هو من الشروط القاسية في حق المتعلم ، لأن الابتعاد عن الأهل والوطن وما يستتبع ذلك من انشغال بعلائق الدنيا من أصعب الأمور على الإنسان ، وتجربة الغزالي في هذا المضمار غنية فقد وصف معاناته الصعبة عندما ترك الأهل والجاه والتعليم وانصرف الى العبادة والتأمل والعلم . وغني عن القول في هذا المضمار أن أهل العلم كانوا يقصدون من أقطار بعيدة للتعلم والتفقه بين يديهم ، لذلك كان طلب العلم عسيراً ، وغالباً ما كان طالب العلم ينتقل من حاضرة الى حاضرة ومن بلاد الى بلاد سعياً وراء العلم وأئمته ، ويحكي ابن خلدون في مقدمته عن طلبةِ العلم في المغرب العربي وارتحالهم الى المشرق بعد انقراض الدولة في مراكش ، ويذكر منهم القاضي أبو القاسم بن زيتون الذي « ارتحل الى المشرق من افريقية ، لعهد أواسط المائة السابعة ، فأدرك تلميذ الامام ابن الخطيب ، فأخذ عنهم ، ولُقّن تعليمهم . . . ورجع الى تونس بعلم كثير وتعليم حسن »(38) . ويذكر أيضاً أبو عبد الله ابن شعيب الدّكالي وغيرهم(39) . وعندما انتقل التعليم شيئاً فشيئاً من المساجد الى المؤسسات العلمية التي ظهرت في القرن الرابع الهجري(40) كان على طلاب العلم الانقطاع عن الأهل والبلد والإقامة بالقرب من المعاهد العلمية .

الوظيفة الثالثة

يعدّد الغزالي في سياق هذه الوظيفة خصالاً ودقائق عديدة على المتعلم أن يتحلى بها ويمكن جمعها تحت عنوان واحد : التواضع والإذعان للمعلم ، مع ما يستتبع ذلك من ابتعاد عن الكبر والتطاول والاستنكاف عن الاستفادة والغرور بالنفس . ويحكي الغزالي عن الشعبي عن تواضع ابن عباس أمام العلماء فيقول : « صلى زيد بن ثابت على جنازة فقربت إليه بغلته ليركبها فجاء ابن عباس فأخذ بركابه فقال زيد : خلّ عنك يا ابن عم رسول الله ، فقال ابن عباس : هكذا أُمرنا أن نفعل بالعلماء والكبراء ، فقبّل زيد بن ثابت يده وقال : وهكذا أُمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا(41) .

وينصح الغزالي المتعلم بالإذعان الكلي لمشيئة المعلم ، ويرى أنّ خطأ معلمه أنفع له من

---

(38) ابن خلدون ، المقدمة ، ص 772

(39) نفس المصدر .

(40) يدل مجموع الأخبار التي انتهت الينا أن نيسابور كانت مهد هذه المعاهدة، ويقول المقريزي (الخطط ، ج 2 ، ص 363) إن أول من حفظ عنه أنه بنى مدرسة في الاسلام أهل نيسابور ، فبنيت بها المدرسة البيهقية التي بنيت للبيهقي (المتوفي عام 454 هـ ـ 1062 م) . ويقول الذهبي إن أول المدارس المدرسة النظامية (السبكي ، طبقات السبكي ، ج 3 ، ص 137) .

(41) الغزالي ، الاحياء ، ج 1 ، ص 49 . وحديث : « أخذ ابن عباس بركات زيد بن ثابت » أخرجه الطبراني والحاكم والبيهقي في المدخل إلا أنهم قالوا : « هكذا نفعل » .

صوابه في نفسه ، ويستشهد في هذا المجال بقصة الخضر وموسى عليه السلام . ويذكر بعض الوصايا للامام علي بن أبي طالب للمتعلم منها : أن لا يكثر على العالم بالسؤال ولا يعنته في الجواب ، ولا يُلحّ عليه إذا كسل ولا يأخذ بثوبه إذا نهض ، ولا يُفشي له سراً ولا يغتابنّ أحداً عنده ولا يطلبنّ عثرته ، وإن زلّ يقبل معذرته ، وإن كانت له حاجة يسبق القوم الى خدمته(42) . إلا أن المتعارف عليه كان جواز سؤال السامع للمدرس ، ويدل على ذلك ما حُكي عن أبي عبيدة اللغوي من أن رجلاً حضر مجلسه فسأله سؤالاً سخيفاً يدل على الجهل وسوء الفهم ؛ ثم قام ثان وثالث فسألا مثل ذلك ، فأخذ أبو عبيدة نعليه ، واشتد ساعياً في مسجد البصرة يصيح بأعلى صوته : من أين حُشرت البهائم عليّ اليوم(43) .

الوظيفة الرابعة :

الوظيفة الرابعة من وظائف التعلم عند الغزالي أن يحترز الخائض في العلم في مبدأ الأمر عن الإصغاء الى اختلاف الناس ، سواء كان ما خاض فيه من علوم الدنيا أو من علوم الآخرة(44) . وسبب ذلك عند الغزالي أن هذا يُدهش عقله ويحير ذهنه ويفتر رأيه ويؤيسه عن الإدراك والاطلاع ، وينصح الغزالي المتعلم باتباع « الطريق الواحدة المرضية عند استاذه ، ثم بعد ذلك يُصغي الى المذاهب والشبه »(45) .

أما إذا كان الأستاذ غير مستقل باختيار رأي واحد ، وإنما عادته نقل المذاهب وما قيل فيها فعلى المتعلم الحذر منه لأن « إضلاله أكثر من إرشاده فلا يصلح الأعمى لقود العميان وإرشادهم »(46) . وهذا يتفق ونظرة الغزالي الى العلم ـ والى كل شيء في الدنيا ـ فالعلم عند الغزالي يجب أن يكون في سبيل الله ، وفي سبيل النجاة في الآخرة ، لذلك على المتعلم أن لا يتقلب بين المذاهب وأن لا يُمحّص الآراء ، بل عليه أن يركن إلى عالم تقي يرشده الى معالم الهدى ويوقيه التقلب بين مذاهب المتكلمين والفلاسفة ، والمعروف أن الغزالي ناهض الفلسفة لأنها خطر على الدين ، وفي هذا المجال قال أبو يوسف القاضي أن « من طلب الدين بالفلسفة لم يسلم من الزندقة »(47) . والامام علي بن أبي طالب يصنف الناس ثلاثة : « عالم ربّاني ، ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمج رعاع ، أتباع كل ناعق ، مع كل ريح يميلون »(48) . إلا أن الأمر لم يكن على هذا النحو دائماً ، فكان البعض يحبذ تلقي العلم على يد أكثر من عالم وذلك طلباً للفائدة والزيادة ومعرفة الفوارق ، لذلك قال

---

(42) نفس المصدر .

(43) الارشاد لياقوت ، ج 5 ، ص 272

(44) و (45) الاحياء ، ج 1 ، ص 50

(46) نفس المصدر .

(47) و (48) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج 2 ، ص 66 و 69

الخليـل بن أحمد : « إنـك لا تعرف خـطأ معلمك حتى تجلس عنـد غيره »(49) . وكـان الخليل قد غلبت عليه الإباضية حتى جالس أيوب(50) .

الوظيفة الخامسة :

يرى الغزالي أن على المتعلم أن لا يدع « فناً من العلوم المحمودة ولا نوعاً من أنواعه إلا وينظر فيه نظراً يطلع به على مقصده وغايته »(51) . وهذه الدعوة إلى التبحر في العلم كان لا بد منها في ذلك الوقت لارتباط علوم الدين بعلوم اللغة والأدب والفلك والرياضيات ، ولو طالعنا شروط ابن قتيبة التي وضعها للحصول على لقب « الكاتب » لتبيّـن لنـا مدى مـا كان عـلى المتعلم أن يتعلمه ، والمعروف أن وظائف الكاتب أدنى بكثير من وظائف الفقيه وعالم الـدين والفيلسوف ،ومع ذلك فإبن قتيبة يرى أن على الأديب أن يعرف قواعد العربية ، ولا بد له من النظر في الأشكال لمسـاحة الأرَضـينَ ، ليعرف المثلث القـائم الزاويـة ، والمثلث الحاد ، والمثلث المنفرج ، ومساقط الأحجار ، والمربعات المختلفات الخ . . . وعليه أيضـاً النظر في جُمل الفقه ومعرفة أصوله من حديث رسول الله ﷺ وصحابته ، ولا بد له من دراسة أخبار الناس وتحفظ عيون الحديث ، ليُدْخلها في تضاعيف سـطوره متمثلاً إذا كتب(52) ، أمـا ابن خلدون فيرى أن العلوم صنفين : « صنف طبيعي للإنسان يهتدي اليه بفكره ، وصنف نقلي يـأخذه عمن وضعـه ، والصنف الأول هي العلوم الحكمية الفلسفيـة ، وهي التي يمكن أن يقف عليها الإنسان بطبيعة فكره »(53) وهذه العلوم عند الغزالي ليست من العلوم المحمودة ، أو على الأقل لم يندب الى التبحر فيها ، بل إن العلوم التي تحدث عنها وقصدهـا هي العلوم الشرعية . ويرى ابن خلدون أن طالب علم الشرعيات من كتاب وسنة عليه أن يدرس علوم اللسان العربي ، الذي هو لسان الملّـة وبه نزل القرآن ، وأصنـاف هذه العلوم النقلية كثيرة منها : التفسير ، وعلم القرآن ، وعلوم الحديث ، وأصول الفقه والفقه ، وعلم الكلام الذي هو الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية ، والنظر في كـل هذه العلوم يجب أن تتقـدمه العلوم اللسانية كعلم اللغة وعلم النحو وعلم البيان وعلم الأدب ، وهذه العلوم كلها عند ابن خلدون مختصة بالملة الاسلامية وأهلها ، وإن كانت كل ملة على الجملة لا بد فيها من مثـل ذلك(54) .

وهكذا نرى كم أنه كان على طالب العلم أن يتبحر في هذه العلوم حتى يستحق لقب العالم فلا يتهم في شيء من علمه ودينه وعقله ، لأن العلماء كـانوا ومـا زالوا يتمتعـون بجاه

---

(49) و (50) : نفس المصدر ، ص 73

(51) الغزالي ، الاحياء ، ج 1 ، ص 50

(52) ابن قتيبة ، أدب الكاتب ، ص 9-11

(53) ابن خلدون ، المقدمة ، ص 779

(54) نفس المصدر .

واحترام لا نظير لها في سائر البلاد ، وعلى مر العصور . ومن أمثلة ذلك ما رواه المقدسي عن أهل خراسان وتعظيمهم للعلماء أن أحدهم « دخل خراسان فخرج أهلها بنسائهم وأولادهم يمسحون أردانه ، ويأخذون تراب نعليه ويستشفون به . وكان يُخرج من كل بلد أصحاب البضائع بضائِعَهم وينثرونها ، ما بين حلوى وفاكهة وثياب وفراء وغير ذلك ، وهو ينهاهم ، حتى وصلوا الى الأساكفة ، فجعلوا ينثرون المتاعات وهي تقع على رؤوس الناس ؛ وخرج إليه صوفيات البلد ، بمسابحهن وألقينها إليه ، وكان قصدهن أن يلمسها فتحصل لهن البركة ، فكان يتبرك بهن ويقصد في حقهن ما قصدن في حقه(55) .

أما إذا كان المتعلم قد فاته الشيء الكثير عن آداب الأمم وأشعارها وأصولها ونوادرها فهو ولا شك سيستعصي عليه فهم بعض الأمور الهامة ، ومن ذلك ما حكاه ابن قتيبة « عن جماعة من وجوه الكتاب والعمال العلماء وقد دخل عليهم رجل من النّخّاسين(56) ومعه جارية رُدّت عليه بسِنّ شاغية زائدة(57) ، فقال : تبرأت إليهم من الشغا فردّوها علي بالزيادة ، فكم في فم الإنسان من سنٍّ ؟ فما كان فيهم أحد عرف ذلك ، حتى أدخل رجل منهم سبابته في فيه يعدّ بها عوارضه فسال لعابه ، وضم رجل فاه وجعل يعدها بلسانه(58) . وفي حكاية أخرى عن الحجاج وقد تلقى كتاباً من الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان يقول له فيها : أنت عندي سالم ، فلم يعرف ما أراد بذلك ، فكتب الى قتيبة بن مسلم يسأله عن ذلك ، فقال قتيبة لرسوله : « أعلم الأمير أن سالماً كان عبداً لرجل ، وكان عنده أثيراً ، وكان يُسعى به إليه كثيراً ، فقال :

يُديرونني عن سالم وأديرهم وجلدة بين العين والأنف سالم

فأراد عبد الملك أنك عندي بمنزلة سالم ، فلما أتى الحجاج بالرسالة كتب له عهداً على خراسان(59) .

الوظيفة السادسة :

الوظيفة السادسة عند الغزالي هي أن لا يخوض المتعلم في فن من فنون العلم دفعة بل

---

(55) السبكي ، الطبقات ، ج 3 ، ص 91

(56) أصل النخاس بائع الدواب ، ثم قيل لبائع الرقيق نخاس أيضاً .

(57) بسن شاغية : اسم فاعل من الشغا ، وهو اختلاف نبتة الأسنان ، وهو أن يركب بعضها فوق بعض فتخرج عن منبتها ، والرجل أشغى ، والمرأة شغواء ، وإنما تبرأ إليهم من الشغا لأنه لا يخفى على ذي عينين ؛ إذ المشاهدة تدركه .

(58) ابن قتيبة ، أدب الكاتب ، ص 7-8

(59) المسعودي ، مروج الذهب ، ج 3 ، ص 120

يراعي الترتيب ويبتدىء بالأهم[60] . ويرى الغزالي أنه إذا كان العمر لا يتسع لجميع العلوم فالحزم أن يأخذ (المتعلم) من كل شيء أحسنه ، وأن يصرف جمام قوته وأن يستكمل علمه بأشرف العلوم وهو علم الآخرة ، ويعني علم الآخرة عند الغزالي قسمي المعاملة والمكاشفة ، لأن غاية المعاملة المكاشفة ، وغاية المكاشفة معرفة الله تعالى . وهذا العلم عند الغزالي (والذي هو التصوف) ليس اعتقاداً كاعتقاد العامي وليس تحرير كلام ومجادلة كما هو غاية المتكلم ، بل ذلك « نوع يقين هو ثمرة نور يقذفه الله تعالى في قلب عبد طَهُر بالمجاهدة باطنه عن الخبائث حتى ينتهي الى رتبة إيمان أبي بكر رضي الله عنه الذي لو وُزن بإيمان العالمين لرجح »[61] .

ويقول آدم متز في هذا المجال بأن الأدباء الذين نشأوا حول الخلفاء في القرن الثالث الهجري كانوا يُلمّون بكل شيء ، ويشبههم في عصرنا بالصحفيين غير المتخصصين الذين يتكلمون في جميع الأمور . ولهذا نجد العلماء يفرّقون بين أنفسهم وبين الأدباء[62] . ويقول ابن قتيبة : « إذا أردت أن تكون عالماً فاقصد لفن من العلم ، وإذا أردت أن تكون أديباً فخذ من كل شيء أحسنه »[63] .

وقد أصبح التجرد لفن واحد من العلوم في عصر الغزالي وما قبله حاجة ماسة بعد أن خرجت من بين فنون الآداب القديمة مجموعة من العلوم ، وبعد أن ظهرت علوم القرآن كما مر معنا كعلوم مستقلة لها أصولها وفنونها لذلك بدأ العلماء بترك ما كانوا ألفوه قبلُ من اتخاذ المعارف وسيلة للتسلية كما أنهم أصبحوا لا يغالون في حشد المعارف على تنوعها ، بل أقبلوا على الدراسة العجلة وعلى تنظيم المعارف ، وشعروا بما يجب عليهم من عناية ومحاسبة في تدوينها كما يقول متز[64] .

وقد حافظ العلماء المسلمون على تمييز أنفسهم عن أصحاب العلوم الدنيوية الذين سموا بالكُتّاب . فكان العلماء يلبسون الطيلسان ، ومما تجدر الإشارة إليه إلى أن العلماء أنفسهم انقسموا فريقين بعد أن تميز علم الفقه عن غيره من علوم الدين فأصبح العلماء فريقين : الفقهاء والعلماء على الحقيقة ، وكان الفقهاء حملة علوم الشريعة والعبادات ، فكان لا بد لمن

---

(60) الغزالي ، الاحياء ، ج 1 ، ص 51

(61) نفس المصدر .

(62) آدم متز ، الحضارة الاسلامية ، ج 1 ، ص 319

(63) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج 5 ، ص 129 . ورد قول ابن قتيبة في المخلاة للعاملي المتوفي عام 1003 هـ. ط. مصر ، ص 228 ، كما يلي : « من أراد أن يكون عالماً فليطلب فناً واحداً ؛ ومن أراد أن يكون أديباً فليتّسع في العلوم » .

(64) آدم متز ، الحضارة الاسلامية ، ج 1 ، ص 319

يريد تولي القضاء والخطابة في المساجد من التتلمذ عليهم ، ويبدو أن الفقهاء كانوا أدنى رتبة من العلماء بدليل ما حكي أن الجويني قال يوماً للغزالي : يا فقيه ، فرأى في وجهه التغير كأنه استقل هذه اللفظة على نفسه(65) .

الوظيفة السابعة :

على المتعلم أن لا يخوض في فن حتى يستوفي الفن الذي قبله ، فإن العلوم مرتبة ترتيباً ضرورياً وبعضها طريق الى بعض ، والموافق من راعى ذلك الترتيب والتدريج(66) . وقد مرّ معنا أنه لا بد لمن ندب نفسه للنظر في علوم القرآن والحديث أن يلم بالعلوم اللسانية ، لأنه متوقف عليها وهي أصناف منها : علم اللغة وعلم النحو وعلم البيان وعلم الأدب(67) . وقد تشدد المسلمون مثلاً في أمر علماء الحديث ، وظل المسلمون يتهيبون رواية الحديث حتى القرن الرابع الهجري(68) ، فقد حكى البرقاني (المتوفي عام 425 هـ ـ 1034 م) أن أستاذه كان يروي الأحاديث متهيباً متحرزاً ، وأن تلاميذه كانوا إذا تكلم مع أحد ، يذهبون جانباً ويكتبون الأحاديث التي ترد في كلامه دون أن يفطن هو لذلك(69) . وقائمة المحدثين الذين تمنوا لو أنهم لم يخوضوا في الحديث طويلة ، فقد ذكر ابن قتيبة قولاً عن مسعر : « من أبغضني فجعله الله محدثاً » ، وعن أبي معاوية عن الأعمش قوله : « والله لأن أتصدق بكسرة أحب إليّ من أن أتحدث بستين حديثاً » . وعن أبي أسامة عن سفيان قوله : « لوددت أنها قُطعت من هامتي ، وأومأ الى المنكب ، وأني لم أسمع منه شيئاً »(70) . وبلغ الأمر عند المسلمين في مثل هذا التشدد الى القول بأنه لا ينبغي للمتعلم أن يبدأ بسماع الحديث قبل سن الثلاثين . وقال آخرون بجواز سماعه بعد العشرين ، ويبدو أن الغالب كان أن لا يُبدأ بسماع الحديث قبل الحادية عشرة ، وفي هذا السن سمع الحديث الخطيب البغدادي المحدّث المشهور وثلاثة من شيوخه ، وكذلك ابن الجوزي . وكان بعض المحدثين لا يقبل في مجلسه من لم يكن ملتحياً(71) .

الوظيفة الثامنة :

أن يعرف المتعلم السبب الذي به يدرك أشرف العلوم ، وأن ذلك يراد به شيئان :

---

(65) السبكي ، طبقات السبكي ، ج 3 ، ص 259

(66) الغزالي ، الاحياء ، ج 1 ، ص 51

(67) راجع مقدمة ابن خلدون ، ص 387

(78) حكى السمرقندي (بستان العارفين ، ص 10) عن عبد الرحمن بن أبي ليلى أنه قال : أدركت مائة وعشرين من أصحاب رسول الله ﷺ ، فما كان منهم محدِّث إلا ودّ أن أخاه كفاه الحديث ولا مُفتٍ إلا ود أن أخاه كفاه الفتوى .

(69) راجع آدم متز ، الحضارة الاسلامية ، ج 1 ، ص 338

(70) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج 5 ، ص 136

(71) راجع السبكي في طبقاته ، ج 3 ، ص 8 . ومتز ، الحضارة الاسلامية ، ج 1 ، ص 341

أحدهما : شرف الثمرة والثاني : وثاقة الدليل وقوته ، وذلك كعلم الدين وعلم الطب فإن ثمرة أحدهما الحياة الأبدية وثمرة الآخر الحياة الفانية فيكون علم الدين أشرف . ومثل علم الحساب وعلم النجوم فإن علم الحساب أشرف لوثاقة أدلته وقوتها . وإن نسب الحساب الى الطب كان الطب أشرف باعتبار ثمرته(72) . وهكذا يكون أشرف العلوم عند الغزالي هو العلم بالله عز وجل وملائكته وكتبه . وهو ما سبق وأشار اليه الغزالي بعلم المكاشفة وهو العلم الذي يقذفه الله في القلب كالنور ، وهو لا يعتريه شك أو يقين . وهو ما اصطلح عليه فيما بعد بعلم التصوف الذي نحا اليه الغزالي بشكل صريح، وهذا لم يكن ميسراً قبل تخلص علم الكلام الاسلامي أو علم العقائد من الفقه ، والفضل يعود في ذلك الى المدارس الفكرية التي لعبت دوراً كبيراً في تركيز الفكر العربي في أهم قضاياه الفلسفية ، وهذه المدارس كانت متمثلة بالمعتزلة والأشعرية وغلاة الشيعة(73) . وفي التاريخ الاسلامي نجد أن الصوفية كانوا خصوماً ألداء لجميع الفقهاء ، وكانوا يحتقرون علم الفقه لأنه حسب زعمهم علم الدنيا ، وهاجموه هجوماً قاسياً ، فأبو طالب المكي (المتوفي عام 386 هـ ـ 996 م) يقول في قوت القلوب عن السيد المسيح قوله : « وروينا عن عيسى عليه السلام : مثل علماء السوء مثل صخرة وقعت على فم النهر ، لا هي تشرب الماء ، ولا تترك الماء يخلُصُ الى الزرع ؛ وكذلك علماء الدنيا قعدوا على طريق الآخرة ، فلا هم نفذوا ، ولا تركوا العباد يسلكون الى الله عزّ وجلّ ؛ قال : ومثل علماء السوء كمثل قناة الحش ، ظاهرها حسن وباطنها نتن ، ومثل القبور المشيدة ظاهرها عامر وباطنها عظام الموتى »(74) . ويرى جولدزيهر بأن الصوفية انتصروا في هذا المجال عندما جاهر الغزالي إمام جمهور المسلمين المتأخرين بأن علم الفقه علم دنيوي لا ديني(75) . وقد فرّق الصوفية بين المعرفة (أي علم الحقائق) وبين العلم (بمعنى العلوم المألوفة للناس) وهذا ما قصده الغزالي باعتباره أن أشرف العلوم « العلم بالله عزّ وجلّ وملائكته وكتبه ورسله والعلم بالطريق الموصل الى هذه العلوم فإياك أن ترغب إلا فيه وأن تحرص إلا عليه .

الوظيفة التاسعة :

يعود الغزالي في هذه الوظيفة الى ترداد ما سبق وذكره في الوظيفة الأولى من وجوب أخذ

---

(72) الغزالي ، الاحياء ، ج 1 ، ص 51

(73) راجع في هذا المجال كتابنا : الله والانسان في الفكر العربي والاسلامي ، منشورات عويدات ، بيروت 1983 ، ص 221

(74) أبو طالب المكي ، قوت القلوب ، ج 1 ، ط مصر 1310 هـ ـ ص 141 . ونقرأ للسيد المسيح من انجيل القديس متى ، الفصل الثالث والعشرون : الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون فإنكم تغلقون ملكوت السماوات في وجوه الناس فلا أنتم تدخلون ولا الداخلين تتركونهم يدخلون . الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون فإنكم تشبهون القبور المجصصة التي ترى للناس من خارجها حسنة وهي من داخلها مملوءة عظام أموات وكل نجاسة .

(75) Goldziher, Zahiriten, P. 182

المتعلم بالفضائل والابتعاد عن الرذائل ، وأن يكـون قصد المتعلم التقـرب من الله سبحانـه والترقي الى جوار الملأ الأعلى من الملائكة والمقربين ، ولا يقصد به الرياسة والمال والجاه ومجاراة السفهاء ومباهاة الأقران(76) ، وقد سبق وفصلنا القول في هذه الأمـور في حديثنـا عن وجوب تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومـذموم الأوصـاف في الوظيفـة الأولى من وظائف المتعلم عند الغزالي .

الوظيفة العاشرة :

يعود الغزالي في هذه الوظيفة الى ندب المتعلم أن يعلم بنسبة العلوم الى المقصد وقـد تحدث الغزالي عن هذا الأمر بشكل ما في الوظيفة الثامنة عندما قال أن على المتعلم « أن يعرف السبب الذي به يدرك أشرف العلوم »(77) ويؤكد الغزالي في هذا المجال ما سبق ورآه من أن العلم يجب أن يكون مقصده إلسعادة الأخروية . وإذا لم يتيسر الجمع بين ملاذ الدنيا ونعيم الآخرة فالأهم « ما يبقى أبدَ الآباد وعند ذلك تصير الدنيا منزلاً والبدن مركباً والأعمال سعياً إلى المقصد ولا مقصد إلا لقاء الله تعالى ففيه النعيم كله »(78) ويكشف الغزالي في هذا المجال انتصاره الواضح للتصوف . لأن السعادة البشرية لا تتم إلا بعلم اليقين « علم المكـاشفة » وهو « جوهر نفيس ودرّ عزيز » وهو أمر إلـهي كما قال تعالى : ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ﴾ سورة الاسراء ، الآية 85 .

وهكذا يكون قـد انتظم عقد وظائف المتعلم عنـد الغزالي ، وهي وظـائف متداخلة متشابهة عنوانها الرئيسي : التحلي بالفضائل والابتعاد عن الرذائل ، وغايتها ومقصودها التوجه كلية نحو الباري عزّ وجل ، وترك الدنيا وأهوائها ، وهذا يتسق بالاجمال مع النـظرة المثاليـة العامة للغزالي في كافة الأمور الحياتية والدينية .

5 ـ في وظائف وآداب المرشد المعلم

يرى الغزالي أن للإنسان في علمه أربعة أحوال كحاله في اقتناء الأموال : إذ لصاحب المال حال استفادة فيكون مكتسباً ، وحال إدخار لما اكتسبه فيكون به غنياً عن السؤال ، وحال انفاق على نفسه فيكون منتفعـاً ، وحال بـذل لغيره فيكـون به سخياً متفضلاً وهـو أشرف أحواله(79) . وهكذا يكون العلم عنده كاقتناء المال لأن له حال طلب واكتساب وحال تحصيل يُغني عن السؤال ، وحال استبصار وهو التفكير في المحصل والتمتع به ، وحال تبصـير وهو

(76) الغزالي ، الاحياء ، ج 1 ، ص 52
(77) نفس المصدر .
(78) نفس المصدر .
(79) الغزالي ، الاحياء ، ج 1 ، ص 54

أشـرف الأحوال(80) . ويعني بحـال التبصير هـذه حال من اشتغـل بالتعليم . ومن اشتغـل بالتعليم عند الغزالي فقد تقلد أمراً عظيماً وخطراً جسيماً ، فعليه إذّاك أن يحفظ آداباً ويراعي وظائف في مهمته هذه ، ويفصل الغزالي القول في هذه الوظائف ويجملها في ثمان منها :

الوظيفة الأولى :

من أولى وظائف المعلم الشفقة على المتعلمين وأن يُجـريهم مجرى بنيـه(81) ، فمن قول لـرسول الله ﷺ وهـو الذي علم أمتـه ما صغـر شأنـه وجل : « إنمـا أنا لكم مثـل الوالـد لولده »(82) . ويقصد الرسول بذلك أنه يعمل لإنقاذهم من نار الآخرة ، كما يعمل الوالدين لانقاذ الولد من نار الدنيا ، والوظيفة الأولى أولى وأهم . ولهذا السبب صار حق المعلم أعظم من حق الوالدين . ولهذا السبب أوصى الإمام علي بن أبي طالب بمعاملة العالم كالوالد وزيادة على ذلك عندما قال أن « من حق العالِم عليك إذا أتيته أن تُسَلِّـم عـلى القوم عـامة وتخصَّـه بالتحية ، وأن تجلس قدّامه ولا تشير بيدك ، ولا تغمز بعينك ، ولا تقول قال فلان خلافـاً لقوله ؛ ولا تغتاب عنده أحداً ، ولا تسارَّ في مجلسه ، ولا تأخـذ بثوبـه ، ولا تلح عليه إذا كسـل ، ولا تغرض من صحبتـه لك ، فـإنما هـو بمنزلـة النخلة لا يزال يسقط عليـك منها شيء »(83) . وذهب البعض الى تكريم المعلمين واعتبـــار حقوقهم أعلى من حقوق الوالدين فقد قال الأحنف : كاد العلماء أن يكونوا أرباباً(84) .

وفي القرن الرابع الهجري دخل علماء الإسلام في جملة العظماء وأصحاب الألقاب ، وكان الاسفراييني الأصغر (المتوفي عام 418 هـ ـ 1027 م) بنيسابور أول من لقب بين العلماء بركن الدين(85) . ويروي السبكي أيضاً أن أبو الحسن الباهلي كان يـدرس في كل جمعـة مرة واحدة ، وكان يُرخي الستر بينه وبين تلاميذه كي لا يروه ، وسُئل عن سبب إرساله الحجاب بينه وبين الناس فأجاب : إنهم يرون السوقة ، وهم أهل الغفلة ، فيروني بالعين التي يرون بها أولئك(86) .

---

(80) و (81) نفس المصدر .

(82) الحديث أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان من حديث أبي هريرة .

(83) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج 5 ، ص 120

(84) نفس المصدر ، ص 121

(85) راجع آدم متز ، الحضارة الاسلامية ، ج 1 ، ص 329 ، نقلاً عن Wüstenfeld, AGGW, 37, Nr, 316 ، وراجع أيضاً طبقات السبكي ، ج 2 ، ص 65 -86 حيث يقول بأن أحمد بن عبد الله أبو محمد المزني المعقلي المروي (المتوفي عام 365 هـ ـ 966 م كان إمام أهل العلم والوجوه وأولياء السلطان بخراسان في عصره مع رتبة الوزراء وعلو القدر عند السلطان ، وكان يقال له الشيخ الجليل بخارى ، وكان فوق الوزراء لعظمته ، وكانوا يصدرون عن رأيه .

(86) طبقات السبكي ، ج 2 ، ص 257

الوظيفة الثانية

على المعلم أن يقتدي بصاحب الشرع ﷺ أي النبي ، فلا يطلب على إفادة العلم أجراً ولا يقصد به جزاءً ولا شكراً ، بل يُعلِّم لوجه الله تعالى وطلباً للتقرب اليه ولا يرى لنفسه منة عليهم وإن كانت المنة لازمة عليهم ، بل يرى الفضل لهم إذ هذّبوا قلوبهم لأن تتقرب إلى الله تعالى بزراعة العلوم فيها . . . ولولا المتعلم لما نلت (أيها المعلم) هذا الثواب فلا تطلب الأجر إلا من الله تعالى كما قال عزّ وجلّ ﴿ ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً إن أجري إلا على الله ﴾(87) سورة هود ، الآية 29 .

ويذهب الغزالي الى تسفيه المعلم الذي يأخذ أجراً بتشبيه طالب المال بالعلم كمن « مسح أسفل مداسه بوجهه لينظفه فجعل المخدوم خادماً والخادم مخدوماً وذلك هو الانتكاس على أم الرأس »(88) ويصعد لهجته فيضع المعلم المأجور في صف « المجرمين ناكسي رؤوسهم عند ربهم »(89) . ويتهم هذه الفئة من العلماء الذين في سبيل الجاه والمال يتحملون أصناف الذل في خدمة السلاطين لاستطلاق الجرايات ، ويدعو الى نبذهم بقوله « فأخس بعالم يرضى لنفسه بهذه المنزلة ثم يفرح بها ثم لا يستحي من أن يقول غرضي من التدريس نشر العلم تقرباً الى الله تعالى ونصرة دينه »(90) . ويعتبر هذا الهجوم على علماء (الدنيا) كما يحلو للغزالي أن يسميهم متسقاً مع النظرة الشرعية التي كانت سائدة في عصر الغزالي وما قبله وهي التي تحرم وتستشنع أخذ الأجر لقاء التعليم . وقد كان لهذه القضية أثراً اجتماعياً انعكس سلباً على العلماء ، فمن انصاع ورفض أخذ الأجر على تعليمه عاش حياة قاسية متقشفة ، ومن امتهن التعليم لقاء الأجر والمال تدنت مرتبته الاجتماعية ووصم بشتى التجريحات حتى أنه نشأ أدب يحط من قيمة المعلم الذي يأخذ أجراً ، وكفى به شتيمة أن يقال معلم صبية .

أما العلماء الذين التزموا وصية الشرع وحافظوا على جلال العلم ومهمته فقد عاشوا حياة ضنك وعسر ، وكان العالم إذا لم يكن فقيهاً صاحب منصب ، ولم يجد ما يعيش منه ، اشتغل بنسخ الكتب كما حُكي عن أبي زكريا يحيى بن عديّ (المتوفي عام 364 هـ - 974 م) ، وكان من فلاسفة القرن الرابع الهجري ، ومذهبه مذهب النصارى اليعقوبيين وذكر عنه أنه نسخ بخطه نسختين من تفسير الطبري ، وأنه كان يكتب في اليوم والليلة مائة ورقة(91) . وبالإجمال كانت حرفة التعليم حرفة شاقة ، ولم تكن لتدر شيئاً على صاحبها ،

---

(87) الغزالي ، الاحياء ، ج 1 ، ص 54

(88) نفس المصدر .

(89) نفس المصدر .

(90) نفس المصدر ، ص 55

(91) ابن النديم ، الفهرست ، ص 264 . وأخبار الحكماء للقفطي ص 361 من الطبعة الأوروبية .

ويكاد الفقهاء أن يجمعوا على عدم جواز أخذ الأجر ، فاتباع الحنفية جميعهم لا يجوزون ذلك ، كذلك الحنبلية وسفيان الثوري وغيرهم . وفي القرن الثامن الهجري امتنع النووي أن يأخذ رزقاً لتدريسه في المدرسة الأشرفية(92) . وكان العالم إذا انتهى من مجلسْ علم قعد له من غير أجر ، قال له الطالب : آجرك الله ، وهو يقول : نفعك الله(93) . ويحكي ابن الجوزي عن أبي العباس الأصم ، وكان من أكبر علماء خراسان ومحدثيهم ؛ وقد ظهر به الصمم وهو ابن ثلاثين سنة ، ثم استحكم حتى كان لا يسمع نهيق الحمار ، وكان إذا ذهب الى المسجد للتحديث وجد السكة قد امتلأت بالناس ، وكانوا يقومون له ويحملونه على عواتقهم الى مسجده . وكان لا يأخذ شيئاً على التحديث ، وإنما كان يورِّق ويأكل من كسب يده(94) . وحكي عن أبي بكر الجوزقي محدّث نيسابور (المتوفي عام 388 هـ ـ 998 م) أنه قال : « أنفقت في الحديث مائة ألف درهم ما كسبت به درهماً »(95) . كذلك حكي عن أبي بكر الخطيب البغدادي وكان يوماً في جامع صور ، فدخل عليه بعض العلوية وأعطاه ثلثماية دينار وضعها على سجادة الخطيب ، فقام الخطيب محمرّ الوجه وأخذ السجادة وخرج من المسجد ؛ وترك العلوي يلتقط الدنانير من شقوق الحصير(96) .

وفي هذا يحكي ابن قتيبة عن المسيح عليه السلام قوله : « إن أبغض العلماء الى الله رجل يحب الذكر بالمغيب ، ويُوسّع له في المجالس ، ويُدعى الى الطعام ، وتُفرغ له المزاود(97) ، بحق أقول لكم : إن أولئك قد أخذوا أجورهم في الدنيا ، وإن الله يضاعف لهم العذاب يوم القيامة »(98) .

هذا بالنسبة لمن امتنع عن التكسب بالعلم ، أما إذا كان المرء معلم صبيان أو معلم كُتاب ، كما كان أبو زيد البلخي العالم الشمهور (المتوفي عام 322 هـ ـ 993 م)(99) معنى هذا كما مر معنا شظف العيش ووصمة عار . ويكفي في هذا المجال أن نذكر أن الجاحظ ألف كتاباً في حماقات المعلمين وقلة عقلهم ورأيهم . وابن قتيبة يرى أن الحمق ملازم للمعلمين أباً عن جد فيقول أنه « قيل لمعلّم بن معلم : مالك أحمق ؟ قال : لو لم أكن أحمق كنت ولد

(92) و (93) طبقات السبكي ، ج 3 ، ص 297
(94) المنتظم لابن الحوزي ، ص 87 ، أ، نقلاً عن آدم متز ، الحضارة الاسلامية ، ج 1 ، ص 344
(95) السبكي ، طبقات السبكي ، ج 2 ، ص 169
(96) نفس المصدر ، ج 3 ، ص 14
(97) المزاود : جمع مزود كمبر وهو وعاء الزاد .
(98) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج 5 ، ص 127 . والسيد المسيح يقول لتلاميذه : مجاناً أخذتم فمجاناً أعطوا ، لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً في مناطقكم ، ولا مروداً للطريق ولا توبين ولا حذاء ولا عصاً لأن الفاعل مستحق طعامه (انجيل القديس متى ، الفصل العاشر ، ص 17) .
(99) ياقوت ، الارشاد ، ج 1 ، ص 141

زناً »[100] . والحمق ملازم للمعلم لأنه يعاشر الصبيان في النهار والنساء في الليل لذلك قال أحد الشعراء :

وكيف تُرجي العقل والرأي عند من   يروح على أنثى ويغدو على طِفل[101]

ويرى آدم متز أن الكثير مما لحق المعلمين من ضروب الاستهزاء إنما يقع إثمه على الروايات اليونانية الهزلية لأن المعلم فيها كان من الشخصيات المضحكة[102] . ونستبعد أن يكون العرب قد تأثروا بهذه الروايات فحطوا من قيمة العلم وهزأوا به ، ولعل انحطاط قيمته تعود الى أخذه الأجر من تعليم الصبيان قراءة القرآن ، بالإضافة الى تدني مستواه الاجتماعي ؛ وقد ارتبطت مهنته بالكسل والخمول ، وكانت العامة تعتقد بنقص عقول المعلمين وانعدام مروءتهم لأنهم لجأوا الى هذه الحرفة هرباً عن الجهاد ونكولاً عن الحرب ، بالإضافة الى أن المعلم كان يدفع اليه أحياناً عدا المال أشياء مما يأكله الناس وينتفعون به ، لذلك كانت « رُغفانُ المعلم » مثلاً يضرب في الاختلاف وشدة التفاوت وقد بلغ الأمر عند العامة أن قالت في أمثالها : « أحمق من معلم كتاب »[103] . وينقل الجاحظ عن بعض الحكماء قوله : « لا تستشيروا معلماً ولا راعي غنم ولا كثير القعود مع النساء »[104] . والغريب أن الجاحظ يدافع عن رعاة الغنم ، ويرى أن في استحماقهم مجانبة للصواب وقد رعى الغنم عدة من جلة الأنبياء . وكان ابن حبيب أحد علماء اللغة والأخبار والشعر (توفي عام 245 هـ ـ 859 م) يقول إذا قلت للرجل : ما صناعتك ؟ فقال : معلم ، فاصفع »[105] .

إلا أن الأمر لم يكن على هذا النحو من التشنيع على هذه الفئة ، فالجاحظ نفسه يعود فيفرق بين ضربين من المعلمين : معلمو أولاد العامة ، و« رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد العامة الى تعليم أولاد الخاصة ، ومنهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد الخاصة الى تعليم أولاد الملوك أنفسهم المرشحين للخلافة »[106] . فكيف تستطيع أن تزعم ـ يقول الجاحظ ـ أن مثل علي بن حمزة الكسائي ، ومحمد بن المستنير الذي يقال له قطرب ، وأشباه هؤلاء يقال لهم حمقى ، ولا يجوز هذا القول على هؤلاء ، ولا على الطبقة التي دونهم . فإن ذهبوا الى معلمي كتاتيب القرى فإن لكل قوم حاشية وسفلة ، فما هم في ذلك إلا كغيرهم . وكيف تقول مثل ذلك في هؤلاء وفيهم الفقهاء والشعراء والخطباء ، مثل اللكميت بن زيد، وعبد الحميد

---

(100) و (101) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج 4 ، ص 54
(102) آدم متز ، الحضارة الاسلامية ، ج 1 ، ص 345
(103) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج 1 ، ص 169
(104) نفس المصدر .
(105) الارشاد لياقوت ، ج 6 ، ص 473
(106) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج 1 ، ص 170

الكـاتب ، وقيس بن سعد وعـطاء بن أبي رباح . ومثـل عبد الكـريم أبي أميـة ، وحسـين المعلم ، وأبي سعيد المعلم(107) .

ويبقى أن هذا التشنيع على المعلمين جاء من قبل العامة التي كانت تزدريهم ، وأفضل ما قاله الجاحظ في هذا المجال أن « أحق الناس بالرحمة عالم يجري عليه حكم جاهل »(108) . أما الخلفاء والأمراء الذين كانوا يعرفون قـدر العلم والمعلم فقد أعلوا من شـأنهما وبالغـوا في تكريم المؤدب لسموّ رسالته وخطورة ما اؤتُمن عليه ، فقد قال الرشيد للأحمر النحوي عندما دعاه لتأديب ولده محمد الأمين : يا أحمر ، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه ، وثمرة قلبه ، فصير يـدك عليه مبسـوطة ، وطـاعتك عليـه واجبة ، فكن لـه بحيث وضعك أمـير المؤمنين ، أقرِئه القرآن ، وعـرِّفه الآثـار ، وروه الأشعار ، وعلمـه السنن ، وبصِّره مـواقع الكلام وبدأه ، وامنعه الضحك إلا في أوقاته ، وخذه بتعظيم مشايخ بني هـاشم إذا دخلوا إليه ، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه ، ولا تمرنَّ بك ساعة إلا وأنت مغتنم فيها فائدة تفيـده إياهـا ، من غير أن تخـرق به فتُميتَ ذهنـه ، ولا تمعن في مسامحتـه فيستحلي الفـراغ ويألفه ، وقوِّمه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة(109) . فهذه كانت منزلة الأحمر النحوي عند الخليفة هارون الرشيد ، وقد عمد بعض الأمراء والسلاطين فيما*بعد الى تخصيص أرزاق للعلماء الكبار كالزجاج مثـلاً (المتوفي عـام 310 هـ) فقد كـان يتقاضى ثلثماية دينار وكانت له منزلة عـظيمة(110) . كـذلك أجـرى سيف الدولـة بن حمدان صاحب حلب على أبي نصر الفارابي (المتوفي عام 339 هـ ـ 950 م) أربعة دراهم كل يوم ، فاقتصر عليها (111) . إلاّ أن الأمر لم يكن يخلو من شخصيات مضحكة بين المعلمين كما يقول متز ، فقد كان بين المبرّد وثعلب منافرات كثيرة(112) . وكـان يسعى بينهما السعـاة ، وينقلون لأحدهما هجاء الآخر ، وكانا يتناظران(113) .

ومجمل القول أن ما أجمعت عليه الأمة كان تعظيم أخذ الأجر على العلم كما مر معنا ،

---

(107) نفس المصدر ، وكان علماء اللغة المشهورين يُختارون لتأديب أبنـاء الأمراء ؛ فمن ذلـك أن محمد بن عبـد الله بن طاهر ، وكان من أجود أمراء زمانه ، اختار لتأديب ابنه طاهر أحمدَ بن يحيى ثعلب النحوي اللغوي إمام الكوفيين ، فأفرد له داراً في داره كان يقيم فيها هو وتلميذه ، وكان يتغدى معه ، وقد أقام له الأمير مع ذلك في اليوم سبع وظائف من الخبز الخشكار ووظيفة من الخبز السميد وسبعة أرطال من اللحم وعلوفة رأس ، وأجرى له في الشهر ألف درهم . (الإرشاد لياقوت ، ج 2 ، ص 144) .

(108) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج 1 ، ص 171

(109) المسعودي ، مروج الذهب ، م 3 ، ص 351

(110) ابن النديم ، الفهرست ، ص 61

(111) تاريخ أبي الفداء ، تحت عام 339 هـ (ج 2 ، ص 458) .

(112) متز ، الحضارة الاسلامية ، ج 1 ، ص 350

(113) الارشاد لياقوت ، ج 2 ، ص 149

لأن العلم كان في منهجه وغايته علم الدين . وهو يعطى ابتغاء مرضاة صاحب الدين لا ابتغاء الدنيا وما فيها من مباهج وفتن .

الوظيفة الثالثة

الوظيفة الثالثة من وظائف المعلم أن « لا يدع من نصح المتعلم شيئاً وذلك بأن يمنعه من التصدي لرتبة قبل استحقاقها والتشاغل بعلم خفي قبل الفراغ من الجلي »(114) . وعلى المعلم أن ينظر إن كان العلم الذي يطلبه (المتعلم) هو علم الخلاف في الفقه والجدل في الكلام والفتاوي في الخصومات والأحكام فيمنعه من ذلك ، فإن هذه العلوم ليست من علوم الآخرة ولا من العلوم التي قيل فيها : « تعلمنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون إلا لله » ، وانما ذلك علم التفسير وعلم الحديث وما كان الأولون يشتغلون به من علم الآخرة ومعرفة أخلاق النفس(115) . وقد سبق وتحدثنا عن هذه الأمور عندما ذكرها الغزالي في وظائف المتعلم الذي عليه أن يراعي الرتبة في تحصيل العلوم ، وأن يكون العلم موجهاً بكلِّيته الخالصة نحو الله عزّ وجلّ . أما الجديد في هذه الوظيفة عند الغزالي فهو نهيه عن مجادلات الكلام ومعرفة التفاريع الغريبة ، لأن في ذلك « غفلة عن الله تعالى وتمادياً في الضلال وطلباً للجاه »(116) . وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه نهى عن الأغلوطات ، وقال الأوزاعي : يعني صعاب المسائل(117) ، وهذا التفسير من الإمام الأوزاعي لا يتناسب مع الحديث ، لأن النبي لم ينه عن صعاب المسائل ، لكنه نهى عن التفاريع الغريبة وما تحويه من أغاليط ومتاهات ، ويؤيد ذلك ما ذكره ابن عبد ربه عن ابن سيرين أنه كان إذا « سئل عن مسألة فيها أغلوطة قال للسائل : « أمسكها حتى تسأل عنها أخاك ابليس »(118) ، وسأل رجل عمر بن قيس عن الحصاة يجدها الانسان في ثوبه أو في خفه أو في جبهته من حصى المسجد ، فقال : ارم بها . قال الرجل : زعموا أنها تصيح حتى تُردّ الى المسجد . فقال : دعها تصيح حتى ينشق حلقها ، فقال الرجل : سبحان الله ! ولها حلق ؟ قال : فمن أين تصيح(119) . وكان الخليفة عمر بن الخطاب قد نهى عن اللجوء الى غرائب الأمور في اللغة والدين عندما سمع رجلاً يقول في دعائه : اللهم اجعلني من الأقلين ! قال عمر : ما هذا الدعاء ؟ قال : سمعت الله يقول ﴿ وقليل ما هم ﴾ سورة ص ، الآية 24 ، وسمعته يقول : ﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾

---

(114) الغزالي ، الاحياء ، ج 1 ، ص 55
(115) نفس المصدر .
(116) نفس المصدر .
(117) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج 5 ، ص 117 . والعقد الفريد لابن عبد ربه ، ج 2 ، ص 78
(118) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج 2 ، ص 78
(119) نفس المصدر .

سورة سبأ ، الآية 13 ، فقال عمر : عليك من الدعاء بما يعرف[120] .

والغريب في هذا المجال أن الغزالي دعا المعلم الى ترك التفاريع الغريبة مع ميله لصوفية عصره ، وهم دعاة الغوص في الباطن واستخراج ما هو غير مألوف ، والثابت أنهم ذهبوا في تأويل الآيات مذاهب غريبة فيحكي ابن الجوزي عن الجنيد وقد سأله كيسان عن قوله عزّ وجلّ : ﴿ سنقرئك فلا تنسى ﴾ فقال الجنيد لا تنسى العمل به ، وسأله عن قوله تعالى : ﴿ ودرسوا ما فيه ﴾ فقال الجنيد : تركوا العمل به ، فقال لا يفضض الله فاك ، قلت : أما قوله : لا تنس العمل به ، فتفسير لا وجه له والغلط فيه ظاهر ، لأنه فسره على أنه نهي وليس كذلك ، إنما هو خبر لا نهي وتقديره : فما تنسى ، إذ لو كان نهياً كان مجزوماً فتفسيره على خلاف إجماع العلماء ، وكذلك قوله (ودرسوا ما فيه) إنما هو من الدرس الذي هو التلاوة من قوله عزّ وجلّ : ﴿ وبما كنتم تدرسون ﴾ . لا من دروس الشيء الذي هو إهلاكه[121] . وينتهي ابن الجوزي الى مهاجمة المتصوفة الذين تجرأوا جرأة عظيمة على كتاب الله عزّ وجل .

الوظيفة الرابعة

وهي من دقائق صناعة التعليم أن يزجر المعلمُ المتعلمَ عن « سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن ولا يصرح . وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ ، فإن التصريح يهتك حجاب الهيئة ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف ويهيج الحرص على الإصرار »[122] . والدليل على ذلك أن النبي ﷺ وهو مرشد كل معلم قال : « لو منع الناس عن فت البعر لفتّوه وقالوا ما نُهينا عنه إلا وفيه شيء »[123] . ويدعو الغزالي في هذا المجال الى التنبه لقصة آدم وحواء عليهما السلام وما نُهيا عنه[124] .

تعد نصيحة الغزالي للمعلم بوجوب أخذ المتعلمين باللين والرحمة ، والابتعاد ما أمكن عن التوبيخ والعبارات القاسية واللجوء الى التلميح بدلاً من التصريح مبدأ تربوياً رسخته الأبحاث التربوية النفسية في مجال التربية والتعليم ، وقد شكا الكثيرون على مر العصور من حدة بعض المعلمين وقسوتهم ، ومعروف أن أسلوب المعلم الفظ ولجوئه للتوبيخ والعقاب قد يعطل عملية التعلم ويعيقها بدلاً من أن يدفعها الى الأمام . ولنتذكر في هذه المناسبة ما سبق وأشرنا إليه في وصية الرشيد لمؤدب ابنه محمد الأمين عندما دعاه الى تقويمه بالقرب والملاينة

---

(120) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ص 226

(121) ابن الجوزي ، تلبيس ابليس ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، نسخة مصورة عن طبعة إدارة الطباعة المنيرية ، 1368 هـ ، ص 331

(122) الغزالي ، الاحياء ، ج 1 ، ص 55

(123) الحديث غير موجود في كتب الأحاديث النبوية .

(124) المصدر السابق .

أولاً قبل اللجوء الى الشدة والغلظة ، ولذلك قال عبد الله بن عباس عندما سئل عن أبي بكر رضي الله عنه فقال : كان والله خيراً كله مع الحدة التي كانت فيه(125) . أي أنه كان خيراً مع وجود خصلة غير محمودة .

وإذا كان الرقة واللّين الممزوجين بالرحمة من واجبات المعلم ، فإن ذلك لم يعن في وقت من الأوقات ترك الهيبة والرزانة ، فمن شروط العالم عند العرب وكافة الأمم أن يكون عاقلاً ، وأن يقرن حلمه الى علمه ، وقد قال العرب في ذلك أن من « تمام آلة العالِم أن يكون شديد الهيبة ، رزين المجلس ، وقوراً صموتاً ، بطيء الإلتفات ، قليل الإشارات ، ساكن الحركات ، لا يصخبَ ولا يغضب ، ولا يُبهرُ(126) في كلامه ، ولا يمسح عثنونه(127) عند كلامه في كل حين ، فإن هذه كلها من آفات العيّ(128) .

الوظيفة السادسة :

على المتكفل ببعض العلوم أن لا يقبح في نفس المتعلم العلوم التي وراءه ، كمعلم اللغة إذ عادته تقبيح علم الفقه . ومعلم الفقه عادته تقبيح علم الحديث والتفسير ، وأن ذلك نقل محض وسماع وهو شأن العجائز ولا نظر للعقل فيه ، ومعلم الكلام ينفر عن الفقه ويقول : ذلك فروع وهو كلام في حيض النسوان فأين ذلك من الكلام في صفة الرحمن ؟(129) . ويرى الغزالي أن هذه الأخلاق مذمومة للمعلمين ، وينصح المتكفل بعلم واحد أن يوسع على المتعلم طريق التعلم في غيره ، وإن كان متكفلاً بعلوم فينبغي أن يراعيَ التدريج في ترقية المتعلم من رتبة الى رتبة(130) .

ودعوة الغزالي المعلمين للابتعاد عن تقبيح العلوم التي ليسوا مكلفين في تعليمها تعكس حالة التناحر التي كانت قائمة بين أرباب مختلف علوم الدين ، فبالإضافة الى تهيب علماء الحديث والتفسير من هذين العلمين ، وبعد أن تحرر علم الكلام من الفقه ، وبعد أن وجد التصوف مكانه في الفكر الاسلامي ، احتدمت الصراعات بين المترسمين بهذه العلوم ، وكثر التشنيع والتقبيح والنقض للعلوم التي لا توافق أهواء البعض ، حتى أن الشعبيُّ قال عندما مرّ بالسُّدِّي وهو يفسِّر القرآن فقال : لو كان هذه الساعة نشوان يضرب استه بالطبل ، أما كان أحسنَ له(131) .

---

(125) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج 2 ، ص 81

(126) بهر فلاناً : قذفه بالبهتان ، وأبهر : تلون في أخلاقه وبهره : رماه بما فيه من عيب .

(127) العثنون : اللحية .

(128) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج 2 ، ص 75 .

(129) الغزالي ، الاحياء ، ج 1 ، ص 55

(130) نفس المصدر .

(131) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج 2 ، ص 74 . وراجع تفسير الطبري ، ج 1 ، ص 30 ، الطبعة الميمنية بمصر

ولعل أنصع صورة لاحتدام الصراع بين المشتغلين بالعلوم الدينية هي تلك التي تكشف لنا العداء المستحكم بين أهل التصوف والفقهاء . ولم يقنع الصوفية في التشنيع على علماء الفقه بل عبروا في أكثر من مناسبة عن احتقارهم لعلوم الشريعة وحامليها ، فالبسطامي[132] صلى خلف إمام في بعض المساجد ، فلما كان بعد ساعة أخذ الامام يسائله من أين تأكل ، فقال له أبو يزيد : أصبر حتى أعيد الصلاة التي صليت خلفك فإنه لا تجوز الصلاة خلف من لا يعرف الرزاق[133] .

أما عند النفري[134] فقد بلغ الأمر ذروته ، ذلك أن هذا المتصوف اعتبر أن مصدر العلم هو الوقفة (الوقفة في حضرة الباري) وهكذا لم يعد العلم يحصل من الخارج وإذا كان علماء الشريعة لا يعترفون بالصوفي وأقواله ، لأن الانكار متبادل بين الواقف والعلماء ، فالواقف « لا يعترف بالعلماء ولا هم يعترفون به »[135] . والواقف عند النفري غير العارف فالعارف « لا يستحق أن يكون مع الله »[136] . ومن شهد الحق فما حاجته الى السِوى[137] .

وقد جاء رد أهل الفقه وعلماء الدين السنة عنيفاً ضد المتصوفة والمتكلمين على حد سواء ، ولا مجال للافاضة في هذا المجال لكننا نذكر أن الملطي (ت عام 377 هـ) هاجمهم واتهمهم بالكذب[138]. أما ابن الجوزي (ت 597 هـ) ، فقد حكى عن استهزائهم بالعلم وحملته حتى أن أبي سعيد الكندي قال : كنت أنزل رباط الصوفية وأطلب الحديث في خفية بحيث لا يعلمون فسقطت الدواة يوماً من كمي فقال لي بعض الصوفية : استر عورتك[139] .

حيث نجد أن الشعبي قال للسدي : « لأن يُضرب على استك بالطبل خير لك من مجلسك هذا » .

(132) هو طيفور أبو يزيد البسطائي (ت 261 هـ / 875م) ، تذكر المصادر أنه من سلالة مزدكية ، وقد قضى قسماً كبيراً من حياته في « بسطام » في شمالي شرق إيران ، يقول عنه كوربان بأنه واحد من أكبر من انتهج الاسلام من المتصوفين خلال قرون طويلة (راجع هنري كوربان ، تاريخ الفلسفة الاسلامية ، الترجمة العربية ، منشورات عويدات ، ص 289) .

(133) عبد الرحمن بدوي ، شطحات الصوفية ، ص 56

(134) هو محمد بن عبد الجبار بن الحسن النفري ، نسبة إلى « نَفِرَ » في العراق كما يقول ياقوت ، وقد ذكره ابن عربي في الفتوحات الملكية ، أربع مرات ، ويرجح حاجي خليفة في كتابه « كشف الظنون » أن تكون وفاته عام 354 هـ (راجع في هذا المجال Arthur John Arbery. The Mawaquif and Mukhatabat, Al-Muthana tibrary, 1934, p. 1,2).

(135) النفري كتاب المواقف والمخاطبات ، تحقيق آربري ، مكتبة المثنى ببغداد ، 1934 م ، ص 14 -20 والسِوى هو كل شيء يداخل الصوفي غير الله ، وراجع في هذا المجال كتابنا « الله والإنسان في الفكر العربي والاسلامي ، ص -211

(136) و(137) نفس المصدر .

(138) ابن الجوزي تلبيس ابليس ، ص 328

(139) نفس المصدر

وذكر عنهم أنهم كانوا يقولون في أصحاب الحديث أنهم قوم سوء . ويرى بأن هؤلاء القوم تركوا العلم وادعوا علم الباطن لذلك خلطوا بين العلوم فتارة « يتكلمون في تفسير القرآن وتارة في الحديث وتارة في الفقه »[140] ، وينتهي الى القول بأنهم سيلاقون من يبيّن أغاليطهم ويرد على المتخرصين منهم[141] .

ومهما يكن فقد ظل الاقبال على دراسة القرآن والحديث عظيماً لأن ذلك واجب مفروض على المسلمين كافة ، وعندما أجيز في القرن الرابع الهجري رواية الحديث من غير لقاء رجاله ، وحلّت الكتب محل الأسفار التي كان يقوم بها طلاب الحديث ، كثر التجريح بحق علمائه ، وزاد الأمر سوءاً حالة التحاسد والتنابذ التي كانت سائدة بين علماء الدين حسب اختلاف مذاهبهم ومشاربهم حتى أن الامام الغزالي الذي لقب فيما بعد بحجة الاسلام لم يسلم من النقد والتجريح كما مر معنا ، ولعل أكثر ما أخِذ عليه أنه روى الأحاديث الكثيرة دون تحرج ، وأنه لم يسافر في طلب العلم إلا قليلاً ، ومن أمثلة النقد العنيف الذي رُمي به المحدثون ما قاله النوبختي بحق أبي الفرج الأصبهاني صاحب كتاب الأغاني (ت 356 هـ / 967 م) ، وهو الذي سمع منه الدارقطني المحدِّث المشهور فقد قال بأنه أكذب الناس ، لأنه « كان يدخل سوق الوراقين ، وهي عامرة ، والدكاكين مملوءة بالكتب ، فيشتري شيئاً كثيراً من الصحف ، ويحملها الى بيته ، ثم تكون رواياته كلها منها »[142] .

إلا أنه مع ذلك بقي علماء الحديث أكثر العلماء شأناً ، لذلك عندما سخر أبو الفضل الهمذاني (الملقب ببديع الزمان الهمذاني) من قول الناس : فلان الحافظ في الحديث ، ثم قال : وهل حفظ الحديث مما يُذكر ؟ (وكان هو يحفظ المائة بيت إذا أنشدت بين يديه مرة وينشدها من آخرها الى أولها مقلوبة) ، فسمع به الحاكم النيسابوري فوجّه إليه بجزء وأجّله جمعة في حفظه . فرد الهمذاني ، إليه الجزء بعد جمعة ، وقال : من يحفظ هذا ، محمد بن فلان وجعفر بن فلان عن فلان ، أسامٍ مختلفة ، وألفاظ متباينة ؛ فقال له الحاكم : فاعرف نفسك ، واعلم أن حفظ هذا أضيق مما أنت فيه »[143] .

بالعودة إلى ما نبه إليه الغزالي من وظائف المعلم أن يتجنب عدم تقبيح فروع من العلم

---

(140) و(141) نفس المصدر

(142) آدم متز ، الحضارة الأسلامية ، ج 1 ، ص 355 نقلاً عن تاريخ بغداد طبقة كرنكو : J ROS, 1912, S. 71 ويقول ابن الجوزي عن الأصفهاني في كتابه « المنتظم في تاريخ الملوك والأمم » « إنه كان متشيعاً ومثله لا يوثق بروايته فإنه يصرح بما يوجب عليه الفسق ، ويهوى شرب الخمر وربما حكى ذلك عن نفسه ، ومن تأمل كتاب الأغاني رأى كل قبيح ومنكر . ونقل ابن شاكر في كتابه « عيون التاريخ » أن الشيخ شمس الدين الذهبي قال : رأيت شيخنا تقي الدين بن تيمية يضعفه ويتهمه في نقله ويستهول ما يأتي به ، وما علمت فيه جرحاً إلا قول ابن أبي الفوارس : خلط قبل ما يموت . (راجع ، الأغاني ، التصدير في الجزء الأول ، ص 19) .

(143) طبقات السبكي ، ج 3 ، ص 66-67

فإننا نلاحظ أنه كان يحاول تخفيف غلواء افتراء البعض على العلماء ، وعدم رميهم بالفساد والتشنيع عليهم مع جلال مهمتهم وعسرها ، وقد أشرنا فيما سبق الى ما تعرض له علماء الحديث ، أما أصحاب القراءات فقد كانت أحوالهم أسوأ من علماء الحديث ، وذلك لوجود خلافات شديدة حول قراءة القرآن . وقد وصل الأمر عند بعضهم الى حد الإضطهاد ، حتى أن الوزير أبو علي بن مقلة ضرب ابنَ شنبوذ (المتوفي عام 328 هـ ـ 939 م) بالسوط واضطره أن يتبرأ من قراءات قرأ بها ، وأخذ خطه بالتوبة عنها فكتب : « يقول محمد بن أيوب : قد كنت أقرأ حروفاً تخالف مصحف عثمان المجمع عليه والذي اتفق أصحاب رسول الله ﷺ على قراءته ، ثم بان لي أن ذلك خطأ ، وأنا منه تائب وعنه مقلع والى الله جل اسمه منه بريء ، إذ كان مصحف عثمان هو الحق الذي لا يجوز خلافه ولا يُقرأ غيره »(144) . وفي سنة 354 هـ / 965 م توفي أبو بكر العطاء المقرىء ، وكان يقرأ بحروف تخالف الاجماع ، وقراءاته تقوم على تصحيف الكلمات واستخراج وجوه بعيدة لها ، وكان يزعم أن كل ما صح في العربية من كلمات توافق خط المصحف فقراءتها جائزة ، وهكذا شاعت عنه القراءات الغريبة ، وقد انكر أهل العلم عليه ذلك حتى وصل الأمر الى السلطان ، فأحضره واستتابه بحضرة القراء والفقهاء ، فأذعن بالتوبة وكُتب محضر بتوبته ، إلا أنه لم ينزع عن تلك الحروف ، وكان يقرأ بها الى حين وفاته ، واستغوى بعض أصاغر المسلمين من أهل الغفلة والغباوة(145) . وإذا كان الأمر على هذا النحو من التعنت عند العلماء الذين كانوا يصرون على آرائهم فلا بد أن ينشأ ما نبه اليه الغزالي من ذم وقدح في حق بعض العلوم وحامليها خاصة ذا كانت المذاهب مختلفة متنافرة ، فيحكي لنا ياقوت بأن محمد بن جرير الطبري قدم الى بغداد فقصده الحنابلة ، وسألوه عن حديث الجلوس على العرش فقال : أما أحمد فلا يُعدّ خلافه، فوثبوا ورموه بمحابرهم غاضبين(146) .

ولم يقتصر الأمر في مهاجمة العلماء من خصومهم التقليديين كما حدث مثلاً بين المتصوفة والفقهاء ، بل ربما جاء من أهل العلم أنفسهم لاختلاف مذاهبهم وأهوائهم ، فقد رُوي عن شقيق البلخي أنه أطرى يوماً أبا حنيفة رحمه الله بمرو فقال له علي بن اسحاق : لا تُطْرِه بمرو فإنهم لا يحتملون ذلك ؛ فقال شقيق : قد مدحه مُساورُ الشاعر فقال :

إذا ما الناس يوماً قايسونا	بآبدة من الفُتيا ظريفَهْ
أتيناهم بمقياس صحيح	تِلادٍ من طِراز أبي حنيفة
إذا سمع الفقيه بها وعاها	وأثبتها بحبر في صحيفة

(144) الفهرست لابن النديم ، ص 31-32 ، والارشاد لياقوت ج 6 ، ص 300 وما يليها .

(145) الارشاد لياقوت ، ج 6 ، ص 499

(146) نفس المصدر ، ص 436

فقال له : قد أجابه بعض أصحابنا :

إذا ذو الـرأي خـاصـم في قـيـاس	وجـاء بـبـدعـة هَـنَـةٍ سـخـيـفـة
أتـيـنـاهـم بـقـول الله فـيـهـا	وآثـار مـبـرَّزة شـريـفـة
فـكـم مـن فـرج مُحـصنةٍ عـفـيـفٍ	أُحِلَّ حـرامُـه بـأبي حـنـيـفـة
أقـال أبـو حـنـيـفـة بـنـت صُـلـبٍ	تكـون من الـزنـا عـرسـاً صحيحـة[147]

لن نتطرق في هذا المجال إلى ما تعرضت اليه العقائد والمذاهب من قمع وتجاذب وتنافر من قبل رجال الدين والسياسة، فالصراع الفكري ظل محتدماً، ويكفي في هذا المجال أن نذكر محنة القول بخلق القرآن وما جرته من صراعات فكرية بين أئمة العلم والدين، أما صيحة الغزالي لنبذ التجريح بين العلماء فقد بقيت كغيرها صيحة مثالية وظلت الساحة مشرعة للاختلافات تبنى وتهدم وفق منطق خاص بها بعيداً عن النيات الحسنة والمبادىء الفاضلة .

الوظيفة السابعة

يعود الغزالي في هذه الوظيفة للحديث عن واجبات المتعلم القاصر، وهذا خروج عن الحديث عن وظائف المعلم، ومختصر ما يتحدث فيه الغزالي هنا أن على المتعلم القاصر هذا أن لا يتلقى إلا الجلي اللائق به[148]، ويدعو الى تقيد العوام بقيد الشرع والى أن ترسخ في نفس المؤمن ما رسخت في نفس العوام من عقائد مأثورة عن السلف من غير تشبيه أو تأويل . ويعود الغزالي للخوض في وظيفة المعلم في هذا المجال وهو أن يحترز عن الخوض في تأويلات الظاهر، ويوصي المعلم بعدم الخوض في حقائق العلوم الدقيقة، بل يقتصر مع المتعلمين على تعليم العبادات . ويصر الغزالي على عدم الافساح في المجال للعوام للبحث والتبصر، لأن هذا « يعطل عليهم صناعاتهم التي بها قوام الخلق ودوام عيش الخواص »[149] .

وموقف الغزالي هذا موقف قديم وقفه سلفيون قبل الغزالي وبعده، ويرقى هذا الموقف الى بعض الصحابة، فبعد غياب النبي ﷺ واقبال البعض على علوم القرآن توجس البعض خيفة من الامعان في التفسير والتأويل والشرح والبحث، مما قد يترك التباساً في نفوس المؤمنين الذين تقبلوا في بداية الأمر العقائد والشعائر على ما هي عليه دون بحث واستفسار حتى أن تفسير القرآن لم يكن مسلماً به، وقد أشرنا الى تحرج الكثيرين عن الخوض في التفسير ،ويخبرنا السمرقندي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى في يد رجل مصحفاً

---

(147) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج 5 ، ص 140

(148) (149) الغزالي ، الاحياء ، ج 1 ، ص 56

وقد كتب عند كل آية تفسيرها ، فدعي بمقراضه فقرضه[150] . ولنتذكر في هذا المجال قول النبي ﷺ : « من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » . ومن الممكن الإشارة إلى أن جدلاً كبيراً قام في العالم الاسلامي حول « علم الكلام » وجواز الخوض فيه ، فانقسم المفكرون قسمين : واحد يؤيده للدفاع عن العقيدة بالدلائل والحجج ، وآخر يناهضه لما يترك من تشويش في أفكار العامة المؤمنين ، وما يتسرب من خلاله من آراء تتجرأ على مقدسات يجب أن تبقى في رأي هذه الفئة فوق الشبهات والأبحاث والاستنتاجات ، وإذا كان رجال الفلسفة الاسلامية لم يقتنعوا بمواقف المتكلمين ، فموقف الغزالي من الفلاسفة بلغ ذروته في هجومه العنيف عليهم والذي لا مجال لتفصيله هنا ، لكننا نعود إلى أخذ هذه الأمور في سياقها العام ، لنقول بأن موقف الغزالي من الكلام والتعليمية (فرقة من الشيعة) وموقفه من الفلسفة يتسق مع دعوته العوام الى عدم الخوض في دقائق الأمور والسؤال عن الشبهات لئلا تفسد عقولهم وتتلوث أنفسهم ، وكي تبقى على سجيتها وبراءتها ، ولو أخذنا مسألة فكرية كمبدأ العدل الإلهي الذي قالت به المعتزلة ، لتوضحت لنا صورة المجادلات وما تفضي اليه ، فالمعلوم أن المعتزلة أصروا على وجوب الأخذ بمبدأ الوعد والوعيد ، وأن الله تعالى لا بد منجز وعده ووعيده ، ولنرَ كيف احتج أبو عمرو بن العلاء في نقض هذا المبدأ إذ قال لعمرو بن عبيد المعتزلي الذي يقول بأن الله وعَدَ وعْداً وأوْعَدَ إيعاداً وإنه منجز وعده ووعيده : أنت أعجم ! لا أقول إنك أعجم اللسان ، ولكنك أعجم القلب ! أما تعلم ، ويْحَك ! أن العرب تعدُّ إنجاز الوعد مكرُمة ، وترك إيقاع الوعيد مكرمة ؟ ثم أنشده :

وإني وإنْ أوْعدته أو وَعَدتُه لمخْلِفُ إيعادي ومنجز موعدي[151]

إن هذه المناظرة قد تدل الى ما يمكن أن تتطور اليه الأمور في المناظرات الكلامية وما قد تُفسد من عقول العامة التي لم تتمرس في دقائق هذه المجادلات ، لذلك أصر السلف وتابعوهم على وجوب إقفال هذه الأبواب من الأبحاث ، لكن الجدل الفكري لم يتوقف لحسن الحظ ، لأنه مؤشر عافية وتطور ورفض للوقوع في العقم الفكري ، إن لم نقل القمع الفكري .

---

(150) السمرقندي ، بستان العارفين ، ص 74-75

(151) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج 5 ، ص 142 . وعبارة كتاب المنية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل (طبعة دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد ، ص 47) : وروي أن أبا علي (الجبائي) ناظر بعضهم في الأرجاء وأبو حنيفة والزبير حاضران فقال أبو حنيفة : إن أبا عمرو بن العلاء لقي عمرو بن عبيد فقال له : يا أبا عثمان ، إنك أعجمي ، ولست بأعجمي اللسان ، ولكنك أعجمي الفهم ، إن العرب إذا وعدت أنجزت وإذا أوعدت أخلفت ؛ وانشد : وإني وإن أوعدته الخ البيت ، فقال أبو علي ، إن أبا عثمان أجابه بالمسكت ، قال له : إن الشاعر قد يكذب ويصدق ، ولكن حدثني عن قول الله تعالى عزّ وجلّ : (لأملأن جهنم من الجنّة والناس أجمعين) إن ملأها أتقول صدق ؟ قال : نعم ، قال : فإن لم يملأها أفتقول صدق ؟ فسكت أبو حنيفة .

ويبقى للمسألة وجهاً آخر عندما يروح البعض من الجهال في الغوص في مسائل لا تفيد ولا تقدم جديداً ، أو هي تفاريع لا طائل تحتها كأن يسأل رجل الحسن وقد حدث بحديث : يا أبا سعيد ، عمّن ؟ قال : وما يُصنع بعمّن ؟ أما أنت فقد. نالتك موعظته ، وقامت عليك حُجَّته[152] .

الوظيفة الثامنة

يذهب الغزالي في ختام حديثه عن وظائف المعلِّم الى جوب قرن العلم بالعمل ، وأن لا يُكذب قولَ المعلم فِعلُه ، لأن العلم يُدرك بالبصائر والعمل يدرك بالابصار ، وأرباب الأبصار أكثر ، فإذا خالف العملُ العلمَ منع الرشد ، وكل من تناول شيئاً وقال للناس لا تتناولون فإنه سمّ مهلك ، سخِرَ الناس به واتّهموه وزاد حرصُهم على ما نُهوا عنه فيقولون لولا أنه أطيب الأشياء وألذها لما كان يستأثر بها[153] ، ويستند الغزالي هنا على القرآن الكريم وذلك في قول الله تعالى : ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ﴾ سورة البقرة ، الآية 44، ولذلك كان وزرُ العالم في معاصيه أكبر من وزر الجاهل ، إذ يزل بزلته عالم كثير ويقتدون به . ومن سنّ سُنّة سيئة فعليه وزرها وَوِزرُ من عمل بها[154] . وقد أدرك الصحابة منذ مطلع الرسالة وجوب قرن العمل بالعلم والقول ، وكانوا في ذلك يدركون أنه لا بد من أن يتطابق العملي مع النظري ، فسفيان الثوري ينعي العلم إن لم يقترن بالعمل الموافق فيقول : يهتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل[155] .

وإذا كانت للعلم فضيلة ، فالذنوب تذهب بهذه الفضيلة وأكثر من ذلك ، لذلك نبّه أحد الأخوان أخيه الى ما يقترفه من ذنوب مع سعة علمه وفضله بقوله له : إنك قد أوتيت علماً فلا تطفئنّ نور علمك بظلمة الذنوب فتبقى في الظلمة يوم يسعى أهلُ العلم بنور علمهم[156] . وكان مالك بن دينار يوجب العمل بموجب العلم لئلا تضيع الموعظة بقوله : « إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلّت موعظته عن القلوب كما يزلّ القطرُ عن الصفا[157] . ونحو ذلك قولُ زياد : إذا خرج الكلام من القلب وقَع في القلب ، وإذا خرج من اللسان لم يجاوز الآذان[158] .

---

(152) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج 5 ، ص 137
(153) الغزالي ، الاحياء ، ج 1 ، ص 56
(154) نفس المصدر .
(155) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج 5 ، ص 125 . وأدب الدنيا والدين ، طبعة بولاق ، ص 69
(156) نفس المصدر .
(157) الصّفا : جمع صفاة ، وهي الحجر الصلد الضخم .
(158) نفس المصدر . والعقد الفريد لابن عبد ربه ، ج 2 ، ص 76

وقد تنبه البعض الى أن المعلم قد يقصر في عمله بالنسبة الى ما يدعو إليه ويحض على إتيانه ، فنُصح المتعلم بأن يكون عالي الهمة فلا يعتذر بتقصير قد يصدر عن المعلم لدوافع وأسباب لا يفقهها المتعلم ، وقد قال في ذلك الخليل بن أحمد :

اعمل بعلمي ولا تنظر الى عملي ينفعك قولي ولا يضررك تقصيري[159]

سادساً : خلاصة وحكم

تبدو آراء الغزالي في هذا الباب المتعلق بآداب المعلم والمتعلم غاية في التسامح والانفتاح في فترة تضاربت فيها الأهواء ، وتزايدت الفرق وتشعبت وكثر من خلالها التناحر ، وحاول الغزالي جهده بمثاليته الواضحة السعي الى التوفيق بين العلماء وإبعادهم عن التعصب والجهل والهوى ، ولم ينس الغزالي في كل ذلك من تناول علماء الشرع وأصحاب الدين الذين زاغوا عن الهوى ومالوا الى الدنيا وباعوا الدين بالقسوة الواجبة ، وقد كتب فصلاً خاصاً في احياء علوم الدين[160] عن علماء الآخرة وعلماء السوء ، لم نفصل محتوياته في هذا الكتاب لئلا نقع في الترداد ، وقد اعترض الغزالي بشدة في مختلف مواقفه الدينية والعلمية ضد من ادعى معرفة كل الحقائق[161] . وحارب التفكير الضيق المتعصب ونادى بالانفتاح بين المذاهب والأديان . وعلى الرغم من ذلك فقد حفل التاريخ الاسلامي بصفحات لا مجال لتفصيلها هنا ، ويكفي أن نذكر منها المحنة الكبرى التي قادها المعتزلة في عصر المأمون ضد مخالفيهم ، يكفي أن نذكر محاكمة الحلاج ، وقلبُ شاهدة قبر الأشعري ، بعد وفاته بقليل ، في جبانة بغداد ، وأوامر الخليفة المتوكل ومن بعده القادر بترك الكلام والتدريس والمناظرة في الاعتزال والمقالات المخالفة للاسلام ، أو أن نذكر أن عالماً فقيهاً كالطبري توفي عام 310 هـ / 923 م فدُفن بداره ليلاً ، لأن العامة اجتمعت ومنعت من دفنه نهاراً ، وكان ذلك بتأثير الحنابلة .

لقد ظلت أفكار الغزالي الأخلاقية والتربوية في خدمة الدين ، وقد جاهد كعادته إعادة احياء ما دعت اليه العقيدة الاسلامية من وجوب التحلي بالأخلاق السامية ليستحق المؤمن روح الإيمان الذي يصله بربه مُنزّهاً عن عوارض الدنيا وأهوائها .

---

(159) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج 5 ، ص 125

(160) الباب السادس من الجزء الأول من كتاب احياء علوم الدين ، ص 57

(161) راجع عن انفتاح الغزالي : لويس غارديه ، أهل الاسلام ، ص 132

الفصل السادس

آداب مخالطة السلاطين الظلمة

تمهيـد :

بما أن الدين الاسلامي هو دين الفضيلة والعدالة ، وبما أن حق الانسان على الأرض وفق العقيدة الاسلامية هو حق مقدس لا تفريط فيه ولا هوان ، وبما أن الدعوة صريحة ودائمة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وبما أن الدين والآخرة هما المرتجى عند الغزالي ، فلا بد أن تكون والحالة هذه دعوته لمناهضة السلاطين والأمراء وعمالهم دعوة صريحة جريئة للحفاظ على حقوق الانسان الفردية ، وحقوق الجماعة ، وحق الله في النهاية والذي هو فوق كل شيء .

وإذا كان الغزالي يطمح لإحياء الدين ، فلا بد من مهاجمة الظلم ومسببيه ، والتاريخ الاسلامي زاخر بالأمراء والسلاطين الظلمة الذين توالوا على مر العصور . وإن المرء ليعجب فعلاً من وجود هذا العدد الضخم من أمراء الظلم والحاكمين باسم الاسلام ، وذلك على الرغم من وجود المبادىء الاسلامية الصريحة في تسفيه الظلم من جهة والدعوة الى الرحمة والرأفة والعدالة من جهة أخرى .

يقول « مارسيل بواسارد (1) ان « المبادىء القرآنية في العدالة ، الاستقامة ، والتضامن الانساني تفرض واجبات على كل فرد من أفراد الجماعة الاسلامية » . ومع ذلك نجد أميراً من أمراء المسلمين على العراق هو الحجاج (الذي اشتهر بظلمة وولوغه في سفك الدماء) يوصي بإمارةالعراق لأخيهأثناء غيابهللحج بما يخالفسنة الله ورسوله صراحة فيقول في خطبته فيهم : « يا أهل العراق ، إني قد استعملت عليكم محمداً (يعني أخيه) وبه الرغبة عنكم ، أما

Marcel A. Boisard, L'humanisme de l'Islam, ed: Albin Michel, Paris 1979, p. 95 (1)

أنكم لا تستأهلونه ، وقد أوصيته فيكم بخلاف وصية رسول الله ﷺ بالأنصار ، فإنه أوصى بأن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم ، وقد أوصيته أن لا يقبل من محسنكم ولا يتجاوز عن مسيئكم ، أما أني إذا وليت عنكم أعلم أنكم تقولون : لا أحسن الله له الصحابة ، وما منعكم من تعجيله إلا الفـراق ، وأنـا أعجـل لكـم الجـواب ، لا أحسـن الله عليـكم الخلافة »(2) .

سنرى في الصفحات القادمة أن الغزالي دعا صراحة الى مقاطعة السلاطين الظلمة لئلا يساعدهم على الظلم والجور ، ورأى من بداية الأمر الاعتـزال عنهم طلباً للسـلامة ، لكن المتصفـح للتاريـخ الاسلامي ومـا رافقه من ظلم وتعسف وغـدر وخيانـة وقتل واستحـلال للمحارم يحق له أن يتساءل عن سر وجـود هذا السجـل الناطق بـالخزي والعـار مع وجـود الأحكام القرآنية والسنة النبوية بإزائه . فالأمر في الاسلام وما نص عليه من عدالة وحق ورأفة ورحمة لا يمكن وضعه أمام مدرسة سياسةٍ أخلاقية مهما كانت هذه المدرسة ، لأننا قد نجد في التاريخ من يحاول انصاف مكيـافيللي مثلاً ، لأنـه كتب عن ايطاليـا المحترقـة ، ولأنه نـظّـر لعصور القرون الوسطى المظلمة ، حيث لا قانون يسود الا قانون القوة والعنف ، ولا أخلاق إلا أخـلاق الطبقات الاقطاعية المتحفزة للسيطرة دومـاً ، وليس الأمر كـذلك طبعـاً في العقيـدة الإسـلاميـة التي لم تتـرك شـاردة أو واردة في تـأكيـد الحق والعـدل ومحـاربـة الظلم والطغيان ، ومع ذلك سُفِكَت دماء بريئة ليست بالشيء العابـر . وقد اتّـهم في هـذا المجال بالمغالاة ، أو بأنني ممن ينظرون الى التاريخ الاسلامي نظرة جامدة ، باعتبـار الماضي السحيق هو الماضي المشرق فقط وما تلاه كان انحطاطاً وتخلفاً(3)، وبذلك يخرج البحث عن موضوعيته التاريخية ، والحق أنني أتحاشى النظر للأمور من هذه الزاوية ، لكن لا يمكن للمرء أن يفهم سر التسامح الديني والانساني اللذين سادا الفترة الزمنية القصيرة التي رافقت ظهور الدعوة ، وسر البطش الذي وسم الفترات اللاحقة ، وسأذكر في هذا المجال مثلاً واحداً عن الحجاج نفسه عندما قتل علماً من علماء الدين الاسلامي في المدينة المنورة وهو سعيد بن جُبير (قتل سنة 94 هـ) ، فقد روى عون بن أبي راشد العبدي قال : لما ظفر الحجاج بسعيد بن جُبير وأوصل اليه قال له : ما اسمك ؟ قال : اسمي سعيد بن جبير ، قال : بل شقي بن كسير ، قال : أبي كان أعلم باسمي منك ، قال : لقد شقيت وشقي أبوك ، قال له : الغيب إنما يعلمه غيرك ، قال : لأبدلنك بالدنيا ناراً تلظى ؛ قـال : لو علمت أن ذلـك بيدك مـا

---

(2) المسعودي ، مروج الذهب ، ج 3 ، ص 146

(3) راجع في هذا المجال مقالة د. أنور عبد الملك : الاستشراق في أزمة ، في مجلة الفكر العربي ، السنة الخامسة ، العدد الحادي والثلاثون ، آذار 1983 ، ترجمة حسن قبيسي ، وقد نشرت الدراسة أولاً في مجلة Diogène العدد 44 / 1963

اتخذت إلهاً غيرك ، قال : فما قولك في الخلفاء ؟ قال : لست عليهم بوكيل ، قال : فاختر أي قتلة تريد أن أقتلك ، قال : بل اختر يا شقي لنفسك ، فوالله ما تقتلني اليوم بقتلة إلا قتلتك في الآخرة بمثلها ، فأمر به الحجاج ، فأُخرِج ليُقتل ، فلما ولى ضحك ، فأمر الحجاج برده ، وسأله عن ضحكه ، فقال : عجبت من جراءتك على الله وحلم الله عنك ، فأمر به فذُبح ، فلما كبَّ لوجهه قال : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن الحجاج غير مؤمن بالله ، ثم قال : اللهم لا تُسلّط الحجاج على أحد يقتله من بعدي ، فذُبح واحتزّ رأسه(4) .

وقد رأينا أن نذكر الحادثة المروية هذه بكاملها لنبيّن ما وصلت إليه الأمور عند الأمراء والخلفاء بعد الرسول وصحابته ، ومصدر العجب كما قال سعيد بن جبير من جراءة هؤلاء على الله .

ـ أحوال الأمراء والعمال الظلمة مع رعيتهم

يقول الغزالي أن للمؤمن ثلاثة أحوال مع الأمراء والعمال الظلمة ، الحالة الأولى وهي شرها أن تدخل عليهم والثانية وهي دونها أن يدخلوا عليك والثالثة وهي الأسلم أن تعتزل عنهم فلا تراهم ولا يرونك(5) .

الحالة الأولى :

يرى الغزالي أن الدخول على الأمراء وعمالهم الظلمة « مذموم جداً في الشرع وفيه تغليظات وتشديدات تواترت بها الأخبار والآثار »(6) .

أما أخبار الرسول في النهي عن مخالطة الأمراء الظلمة فقوله ﷺ : « من نابذهم نجا ومن اعتزلهم سلم أو كاد أن يسلم ومن وقع معهم في دنياهم فهو منهم »(7) وقوله ﷺ : « سيكون من بعدي أمراء يكذبون ويظلمون فمن صدّقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه ولم يرد على الحوض »(8) . ومن أقواله أيضاً : « العلماء أمناء الرسل على عباد الله ما لم يخالطوا السلطان ، فإذا فعلوا ذلك فقد خانوا الرسل فاحذروهم واعتزلوهم »(9) .

---

(4) المسعودي ، مروج الذهب ، ج 3 ، ص 164

(5) الاحياء ، ج 2 ، ص 129

(6) نفس المصدر .

(7) الحديث أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس بسند ضعيف ، وقال : « ومن خالطهم هلك » .

(8) الحديث أخرجه النسائي والترمذي وصححه الحاكم من حديث كعب ابن عجرة .

(9) هذا الحديث لأنس أخرجه العقيلي في الضعفاء في ترجمة حفص الإبري .

أما أقوال الصحابة وخيار الأمة في تجنب السلاطين والأمراء الظلمة فكثيرة ، فقد قال حذيفة : إياكم ومواقف الفتن ! قيل وما هي ؟ قال : أبواب الأمراء ، يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب ويقول ما ليس فيه . وقال أبو ذرّ الغفاري لسلمة : يا سلمة لا تغش أبواب السلاطين فإنك لا تصيب من دنياهم شيئاً إلا أصابوا من دينك أفضل منه ، وقال الأوزاعي : ما من شيء أبغض إلى الله من عالم يزور عاملاً . وقال سمنون : ما أسمج بالعالم أن يؤتى إلى مجلسه فلا يوجد ، فيسأل عنه فيقال عند الأمير . واستعمل عمر بن عبد العزيز رجلاً فقيل : كان عاملاً للحجاج ، فعزله ، فقال الرجل : إنما عملت له شيء يسير ، فقال له عمر : حسبك بصحبته يوماً أو بعض يوم شؤماً وشراً . وكان سعيد بن المسيب يتّجر في الزيت ويقول إن في هذا لغنى عن هؤلاء السلاطين(10) .

ويتضح من هذه الأخبار والآثار أن الأمراء والسلاطين لا بد أن يخالطهم الظلم والكذب والافتراء على الله ، ولعل هذا عائد لاشتغالهم بأمور السياسة وابتعادهم عن طريق الله واقترابهم أكثر فأكثر في طريق معصيته إلا فيما ندر . وتبرز هذه الآثار صعوبة الجمع بين الإمارة - وما تحف بها من أمور دنيوية بعيدة عن طريق الله - والمبادىء الدينية الاخلاقية ، فيذهب السلاطين والأمراء الى الخروج على هذه المبادىء صوناً لسلطانهم ودرءاً عن أنفسهم وينغمسون أكثر فأكثر في ملاهي الدنيا ويستسلمون لفتنها ، ويحيدون عن طريق الله ، والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصى ، ولو أخذنا شاهداً على ذلك رواية حصلت في عهد قريب جداً من عهد الرسول ، وهو عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان ، فقد أُخذ عبد الرحمن بن سيحان(11) في شراب في إمارة مروان بن الحكم ، وكان حليفاً لأبي سفيان بن حرب ، فضربه مروانُ ثمانين سوطاً على رؤوس الناس ، فكتب الى معاوية يشكوه ، فكتب اليه معاوية : أما بعد فإنك أخذت حليف حرب فضربته ثمانين على رؤوس الناس ، والله لتُبطِلنّـها عنه ، أو لأقيدَنّـه منك ؛ فقال مروان لابنه عبد الملك : ما ترى ؟ قال : أرى والله ألّا تفعل ؛ قال ويحك ! أنا أعلم بعزمات معاوية منك ، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس : إنا كنا ضربنا ابن سيحان بشهادة رجل من الحرس ووجدناه غير عدلٍ ولا رِضاً ، فاشهدوا أني قد أبطلت ذلك الحدّ عنه(12) .

أما عندما باعد الزمانُ بين الأمراء وأسلافهم الأولين ظهر الظلم والعدوان على رؤوس

(10) الاحياء ، ج 1 ، ص 129

(11) عبد الرحمن بن سيحان المحاربي الشاعر ، كان حلو الأحاديث ، عنده أحاديث حسنة غريبة من أخبار العرب وأيامها وأشعارها ، وكان على ذلك يصيب من الشراب ، فكان كل من قدم من ولاة بني أمية وأحداثهم ممن يصيب الشراب يدعوه وينادمه . (راجع الأغاني ، ج 2 ، ص 247) .

(12) الأصبهاني ، الأغاني ، ج 2 ، ص 250-251

الناس جهراً وعلانية . فتقـرأ مثلاً أن أميراً من أمراء القرن الرابع الهجري وهو فخر الدولة (من البويهيين توفي عام 387 هـ / 997 م) ترك مالاً كثيراً رغم أن عصره لم يكن عصر غِنى ، فقد ذكر ابن الصابي أنه خلّـف 2,875,284 ديناراً ومن الورق والنقـد والفضة 100,860,790 درهماً ، ومن الجواهر واليواقيت واللؤلؤ والماس والبلوّر والسلاح وضروب المتاع شيئاً كثيراً ؛ وكان شحيحاً حتى كانت مفاتيح خزائنه في الكيس الحديد مسمّـراً بالمسامير لا يفارقه(13) . فإذا كانت هذه بعض احوال الأمراء الظلمة فإن الغزالي يفتي في أمر الدخـول اليهم بالحـظر لأن دورهم مغصوبة وأمـوالهم مسروقـة ، والداخـل عليهم لا بد لـه من عصيان الله من عـدة وجوه ، لأن من سلم عليهم ،.أو سجد أو ركع أو مثُل قائماً في سلامهم وخدمتهم فهو بذلك مكرم للظالم بسبب ولايته التي هي آلة ظلمه والتواضع للظالم معصية(14) ، ويرى الغـزالي أن الانحناء وتقبيل اليد معصية إن كانت لظالم ، ويرى أنها جائزة إن كانت بسبب الخوف ، أو كانت لإمام عادل أو لعالم يستحق ذلك بأمر ديني . إلا أن الغزالي يـورد خطابـاً جرى بـين الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك وأحد التابعين وهو طاووس اليماني ، يذهب فيه طاووس الى تحريم تقبيل يد أمير المؤمنين ، فالرواية تقـول بأن هشـاماً بعث بـطلب اليماني لـملاقاتـه باعتباره من تابعي صحابة الرسول فلما دخل اليماني على هشام خلع نعليه بحاشية بساطه ولم يسلّـم عليه بإمرة المؤمنين ولكن قـال : السلام عليـك يا هشـام ، ولم يكنّـه وجلس بإزائـه وقال : كيف أنت يا هشام ؟ فغضب هشام غضباً شديداً حتى هم بقتله ؛ فقيل له : أنت في حرم الله وحرم رسوله ولا يمكن ذلك ، فقال : يا طاووس مُا الذي حملك على ما صنعت ؟ قال : وما الذي صنعت ؟ فازداد غضباً وغيظاً ؛ قال : خلعت نعليك بحاشية بسـاطي ولم تقبل يدي ولم تسلم عليّ بإمرة المؤمنين ولم تكنّني وجلست بإزائي بغير إذني وقلت : كيف أنت يا هشام ؟ قال : أما ما فعلت من خلع نعلي بحاشية بساطك فإني أخلعهما بين يدي رب العزة كل يوم خمس مرات ولا يعاقبني ولا يغضب علي ، وأما قولك لم تقبل يدي فإني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول : لا يحل لرجل أن يقبل يد أحد إلا امرأته من شهوة أو ولده من رحمة ، وأما قولك لم تسلّـم عليّ بإمرة المؤمنين فليس كـل الناس راضـين بامرتك فكرهت أن أكذب ، وأما قولك لم تكنني فإن الله تعالى سمى أنبياءه وأولياءه فقال يا يحيى ويا عيسى ، وكنّـى أعداءه فقـال : ﴿ تبّـت يدا أبي لهب ﴾ (سـورة المسد ، الآيـة 1) ، وأما قولك جلست بإزائي فإني سمعت أمير المؤمنـين علياً رضي الله عنـه يقول : إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار فانظر إلى رجـل جالس وحـوله قـوم قيام . فقـال له هشام : عظني(15) .

---

(13) ابن تغري بردي ، طبعة كليفورنيا ، ص 82-83

(14) الاحياء ، ج 2 ، ص 130 (15) الاحياء ، ج 2 ، ص 133

ويرى الغزالي أن الداخل الى بيوت الأمراء والسلاطين الظلمة آثم لسكوته عما يراه في مجالسهم ودورهم وما يسمعه من كلامهم بما فيه من « فحش وكذب وشتم وإيذاء والسكوت على جميع ذلك حرام . بل يراهم لابسين الثياب الحرام وآكلين الطعام الحرام وجميع ما في أيديهم حرام والسكوت على ذلك غير جائز . فيجب عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بلسانه إن لم يقدر بفعله »(16) . وتنبع دعوة الغزالي هذه من روح الاسلام ومبادئه ، وقد طبقها عدد من الصحابة والتابعين ، حتى إذا فشا أمر الظلم وتداعت المبادىء وفتر روحها أصبح السكوت فضيلة والسلامة غنيمة ، والقارىء للتاريخ الاسلامي يجد أو يسمع صيحات قيلت في حضرة الأمراء والخلفاء تنبههم الى ما هم فيه من غي وظلم ، أما بعد أن بَعُدَ العهد بهؤلاء الصحابة خفت الأصوات وكمت الأفواه ، ويروي المسعودي أن معاوية طاف بالبيت ومعه سعد ، فلما فرغ انصرف معاوية الى دار الندوة ، فأجلسه معه على سريره ، ووقع معاوية في عليّ وشرع في سبِّه ، فزحف سعد ثم قال : أجلستني معك على سريرك ثم شرعت في سبّ عليّ ، والله لأن يكون فيَّ خصلة واحدة من خصال كانت لعلي أحب إليّ من أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس(17) . كذلك فعل عدي بن حاتم الطائي في رده على معاوية أيضاً عندما دخل الطائي عليه « فقال له معاوية : ما فعلت الطرفات ؟ يعني أولاده ، قال : قُتلوا مع عليّ ، قال : ما أنصفك على قتل أولادك وبقي أولاده ، فقال عدي : ما أنصفتَ علياً ، إذ قُتل وبَقيتَ بعده ، فقال معاوية : أما إنه قد بقيت قطرة من دم عثمان ما يمحوها إلا دم شريف من أشراف اليمن ، فقال عدي : والله إن قلوبنا التي أبغضناك بها لفي صدورنا ، وإن أسيافنا التي قاتلناك بها لعلى عواتقنا ، ولئن أدنيت إلينا من الغدر فتراً لنُدنينَّ إليك من الشر شبراً ، وإن حزَّ الحلقوم وحشرجة الحيزوم لأهون علينا من أن نسمع المساءة في علي ، فسلِّم السيف يا معاوية لباعث السيف ، فقال معاوية : هذه كلمات حكم فاكتبوها ، وأقبل على عدي محادثاً له كأنه ما خاطبه بشيء(18) .

وهكذا كان البعض يتجرأ على الحكام بوعظهم وتصويب أخطائهم ، أما بعد ذلك فقد كثر الظلم والتعسف وخاصة بحق العلماء ووجوه القوم ، حتى أن سعيد بن المسيب دعي إلى البيعة للوليد وسليمان ابني عبد الملك بن مروان فقال : لا أبايع إثنين ما اختلف الليل والنهار فإن النبي ﷺ نهى عن بيعتين(19) . وعندما قيل له : « أُدخل من الباب واخرج من الباب الآخر » . قال : لا والله لا يقتدي بي أحد من الناس ، فجُلِد مائة وأُلبس المسوح »(20) .

---

(16) نفس المصدر ، ص 130

(17) المسعودي ، مروج الذهب ، ج 3 ، ص 14

(18) نفس المصدر ، ج 3 ، ص 4-5

(19) الحديث أخرجه أبو نعيم في الحلية باسناد صحيح من رواية يحيى بن سعيد .

(20) الاحياء ، ج 2 ، ص 131

كذلك ذُبح أحد القضاة لأنه أطاع ضميره حين قالوا له : تبايع للمقدر ، فقال : هو صبي ولا تجوز المبايعة له[21] .

والملفت للنظر أنه برغم ما كانت تعج به دور السلاطين والأمراء من المرائين المتمسحين على أعتابهم فقد أبى بعض العلماء غشيان دورهم ومخالطة أمورهم في الدين والدنيا ، فعمرو بن عبيد المعتزلي[22] (ت 144 هـ) دخل على أبي جعفر المنصور فلما أراد النهوض قال المنصور : أمرنا لك بعشرة آلاف ، قال : لا حاجة لي فيها ، قال أبو جعفر : والله لتأخذنّها ، قال : لا والله لا آخذها ، وكان المهدي حاضراً ، فقال : يحلف أمير المؤمنين وتحلف أنت ؟ فالتفت عمرو إلى أبي جعفر فقال : من هذا الفتى ؟ قال : هذا محمد ابني ، وهو المهدي ، وهو ولي عهدي ، قال : أما والله لقد ألبسته لباساً ما هو من لباس الابرار ، ولقد سميته باسم ما استحقّه عملاً ، ولقد مهّدت له أمراً أمتع ما يكون به أشغل ما يكون عنه ، ثم أقبل عمرو على المهدي فقال : نعم يا ابن أخي ، إذا حلف أبوك أحنثه عمك ؛ لأن أباك أقوى على الكفارات من عمك ، فقال له المنصور : هل لك من حاجة يا أبا عثمان ؟ قال : نعم ، قال : ما هي ؟ قال : أن لا تبعث إلي حتى آتيك ، قال : إذاً لا نلتقي ، قال : هي حاجتي ، فمضى وأتبعه المنصور بطرفه ، ثم قال :

كلكم يمشي رُوَيدْ كلكم يطلب صيدْ

غير عمرو بن عبيد[23]

وإذا كانت حاجة عمرو بن عبيد عدم الدخول إلى دور الأمراء حتى لو كان مقام الأمير أمير المؤمنين وكان له ذلك فإن البعض برغم انقطاعه عنهم لم يسلم كما فُعل بالامام مالك بن أنس الذي سُعي به إلى جعفر بن سليمان ، وقيل له : إنه لا يرى أيمان بيعتكم شيئاً ، فضربه بالسياط ، ومُدّ لذلك حتى انخلع كتفاه[24] .

ويبقى السؤال : متى يجوز الدخول على السلاطين والأمراء الظلمة ؟ يقول الغزالي أنه يجوز الدخول عليهم بعذرين أحدهما أن يكون من جهتهم أمر إلزام لا أمر إكرام ، أو إذا علم المدعو أنه لو امتنع أوذي أو فسُدَ عليهم (أي الآراء) طاعة الرعية واضطرب عليهم أمر السياسة فيجب عليه الاجابة لا طاعة لهم بل مراعاة لمصلحة الخلق حتى لا تضطرب

---

(21) صلة تاريخ الطبري لعريب بن سعيد القرطبي ، طبعه دي غوي ، ليدن ، ص 28 .

(22) يكنى عمرو بن عبيد بأبي عثمان ، وكان مولى بني تميم ، وشيخ المعتزلة وفقيهها في وقته ، وله خطب ورسائل وكلام كثير في العدل والتوحيد وغير ذلك .

(23) المسعودي ، مروج الذهب ، ج 3 ، ص 302-303 .

(24) نفس المصدر ، ص 34 .

الولاية !(25) . وهذا موقف يتّسم بالتناقض إذ أن الغـزالي لا يرى وجـوب مناهضـة الأمراء مناهضة جماعية منظمة ، ويدعو إلى مناهضتهم بطريقة فردية لا تعود عليهم بالضرر ، إذ أن لمناهضة الجماعية هي التي يعول عليها في هدم قصور الظلم والطغيان وهذا ما حدا بالبعض الى مهاجمة الغزالي واتهامه بالميل الى الدعة والخنوع وعدم الاهتمام بالقضايا الكبرى التي كانت تشغل العالم الاسلامي في عصره .

والأمر الثاني الذي يراه الغزالي لجواز الـدخول عليهم فهـو السعي الى دفع ظلم عن مسلم سواه أو عن نفسه إما بطريق الحسبة أو بطريق التظلم ، فذلك رخصه بشـرط أن لا يكذب ولا يثني ولا يدع نصيحة يتوقع لها قبولاً(26) . وهذا العذر يكشف عن المرونة التي يجب أن يتحلّى بها الراعي في سبيل رعيته ، وهذا ما فعله الإمـام علي بن الحسـين الملقب بزين العابدين والسجّـاد عندما دخل الى مسلم بن عقبة ، وكان مسلم قد دخل المدينة بعد خروج أهلها على يزيد بن معاوية وقد هزمهم في واقعـة الحرة ، وكـان يؤ تى بالـرجل من الأنصـار فيُطلب منه أن يبايع على أنه عبد ليزيد . وكان الأنصار يأبون هذا ، فقتلهم مسلم واحداً بعد واحد ، حتى دخل عليه زين العابدين ، فلما رآه مسلم وقد أشرف عليه ارتعد ، وقام له ، وأقعده الى جانبه ، وقال له : سلني حوائجـك فلم يسألـه في أحد ممن قـدم الى السيف إلا شفّـعه فيه ، ثم انصرف عنه ، فقيل لعلي : رأيناك تحرك شفتيك ، فما الذي قلت ؟ قال : قلت : اللهم ربَّ السموات السبع وما أظللن ، والأرضين السبع وما أقللن ؛ ربَّ العرش العظيم ، ربَّ محمد وآله الطاهرين أعوذ بك من شره ، وأدرأ بك في نحره ، أسألك أن تؤ تيني خيره ، وتكفيني شره ، وقيل لمسلم : رأيناك تسبُّ هـذا الغلام وسلفـه ، فلما أتى به إليـك رفعت منزلته ، فقال : ما كان ذلك لرأي مني ، لقد ملىءَ قلبي منه رعباً(27) .

وهكذا أنقذ الحسين بن علي الكثير من أهل المدينة من القتل عندما دخل الى مسلم بن عقبة وقبل مبايعته للحد من فشو القتل بين المسلمين على أيدي أمراء ظلمـة لا يستحرمـون شيئاً .

الحالة الثانية :

في الحالة الثانية يذكر الغزالي احتمال دخول السلطان الظالم على المؤمن زائراً ، ويرى الغزالي في هذا المجال أن جواب السلام لا بد منه ، والقيام والإكرام له لا يحرم مقابلة له على إكرامه(28) ، والسلطان من هذا الباب مستحق للاحماد وذلـك لإكرامـه العلم والدين كـما أنه

(25) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 131-132

(26) نفس المصدر .

(27) المسعودي ، مروج الذهب ، ج 3 ، ص 70-71

(28) الغزالي ، الاحياء ، ج 2 ، ص 132

بالظلم مستحق للابعاد . وهكذا يكون الإكرام بالإكرام والجواب بالسلام ، ويعود الغزالي لينبه العالم في مطلق الأحوال الى مراعاة حشمة أرباب الولايات إذا كانوا في جمع بين رعاياهم ، وهذا يتسق مع موقف الغزالي كما سبق وذكرنا في اجتهاده عدم الحث على العصيان . أما إذا علم العالم أن ترك الاكرام للسلطان الظالم لا يورث فساداً في الرعية ولا أذى للعالم ذاته من غضبه فالأولى ترك الاكرام(28ب) .وينتقل الغزالي بعد ذلك إلى الحديث عن واجبات المرء اتجاه زائره وأولها النصيحة وتعريفه بما يجب أن يعرف تحريمه ، وتخويفه من ارتكاب المعاصي وارشاده الى طريق المصلحة وفق الشرع(29) . هذا ما كان عليه السلف كما روي عن حماد بن سلمة أنه كان جالساً في بيته وعنده محمد بن صالح وليس في البيت إلا حصير وهو جالس عليه ومصحف يقرأ فيه وجراب فيه علمه ومطهرة يتوضأ بها ، وإذ دق الباب فإذا هو محمد بن سليمان فأذن له فدخل وجلس بين يديه ثم قال له : مالي إذا رأيتك امتلأت منك رعباً ؟ قال حماد : لأنه قال عليه السلام : « إن العالم إذا أراد بعلمه وجه الله هابه كل شيء وإن أراد أن يكنز به الكنوز هاب من كل شيء »(30) ، ثم عرض عليه أربعين ألف درهم وقال : تأخذها وتستعين بها ، قال : أرددها على من ظلمته بها ، قال : والله ما أعطيتك إلا مما ورثته : قال : لا حاجة لي بها(31) . كذلك فعل أبو حازم الأعرج مع سليمان ابن عبدالملك وقد أرسل له مالاً فرده ، وقال للرسول : قل له والله يا أمير المؤمنين ما أرضاه لك فكيف أرضاه لنفسي(32) .

الحالة الثالثة :

في الحالة الثالثة يرى الغزالي أن على المؤمن أن يعتزل السلاطين الظلمة فلا « يراهم ولا يرونه وهو الواجب إذ لا سلامة إلا فيه »(33) . وعليه أن يعتقد بغضهم ولا يحب بقاءهم ولا يستخبر عن أحوالهم ولا يتأسف على ما يفوت بسبب مفارقتهم ، وإذا خطر بباله تنعمهم فليذكر ما قاله حاتم الأصم : إنما بيني وبين الملوك يوم واحد ، فأما أمس فلا يجدون لذته واني وإياهم في غد لعلى وجل ، وإنما هو اليوم وما عسى أن يكون في اليوم . أما ما قاله أبو الدرداء : أهل الأموال يأكلون ونأكل ويشربون ونشرب ويلبسون ونلبس ولهم فضول أموال ينظرون إليها وننظر معهم إليها وعليهم حسابها ونحن منها براء(34) .

(28ب) المصدر السابق .
(29) نفس المصدر .
(30) و (31) نفس المصدر .
(32) المسعودي ، مروج الذهب ، ص 177-178
(33) الاحياء ، ج 2 ، ص 132
(34) نفس المصدر .

خلاصة وحكم

قبل أن ندخل في نقاش لا بد منه حول الاسلام والسلطة والدولة ، لا بد من التساؤ ل والتقصي حول علاقة الغزالي بسلاطين وأمراء عصره . فالتاريخ حفظ لنا أن الغـزالي انبرى لمناطحة الحركة البـاطنية ، وهي حـركة دينيـة سياسيـة مناهضـة للحكم العباسي في عصـر الغزالي ، والمعروف أن الغزالي كان تابعاً « لنظام الملك » الشافعي الأشعري والذي كان وزيراً للأمير الحنفي « ألب ارسلان » ابن شقيق « طغر لبك » السلجوقي(35) ، الذي كان قد أخذ على عاتقه تأسيس المدارس النظامية في سبيل تقوية المذهب الأشعري والعقيدة الأشعريـة(36) بإزاء التيار الامامي الناهض وخاصة الاسماعيلية منه . وعندما قدم الغزالي الى بغداد (484 ـ 488 هـ) احتضنه الخليفة المقتدي بأمر الله العباسي وهيأ له الظروف الملائمـة لنشر المـذهب الأشعـري وتجديـده من خلال التـدريس في نظاميـة بغداد(37) . وبعـد اغتيـال نـظام الملك (485 هـ / 1091 م) ووفاة المقتدي بالله في غموض (487 هـ) ومجيء المستظهر بالله طلب من الغزالي أن يحارب الباطنية فكان للغزالي معهم جولات توّجها بكتابه المستظهري أو فضائح الباطنية(38) . والسؤ ال هل كان الأمراء والخلفاء الـذين عمل الغـزالي في خدمتهم من أهـل الصلاح والتقوى الذين نذروا أنفسهم للحياة الآخرة وباعوا الدنيا بثمن بخس ؟ فما نعلمه أنه في عصـر المستظهـر بالله كـانت فتن واضطرابـات ، ولم يقتصر الأمـر على المنـاطق البعيـدة والخاضعة للخلافة ، (لأن الدولة الاسلامية فقدت سيطرتها على الأطراف) بل وصل الأمر الى قلب الجزيرة العربية . ويحكي لنا ابن الأثير مـا فعله محمد بن أبي هـاشم الحسيني (ت 487 هـ) وكان أميراً على مكة « ولم يكن له ما يُمدح به ، وكان قد نهب بعض الحجاج سنة 486 هـ وقتل منهم خلقاً كثيراً »(39) . وإذا بُرأت الخلافة من كثرة الاضطرابات لأنها كانت بلا حول ولا قوة ، فما لا شك فيه أنه كان لها الدور الأكبر في إذكاء الخلافات المذهبية ، ففي عهد المستـظهر (المنـاصر للشـافعية) حصلت الفتنـة بنيسابـور بين الشـافعية والحنفيـة من جهـة والكـرامية(40) من جهـة أخرى فكـان « الظفـر للشافعيـة والحنفية عـلى الكراميـة ، فخُربت

---

(35) أمير علي ، مختصر تاريخ العرب ، ترجمة عفيف البعلبكي ، بيروت 1961 ، ص 274

(36) مصطفى جواد : الإمام أبو حامد الغزالي ، مقالة في مجلة المعرفة العراقية ، ج 34 السنة الثانية ، ص 4

(37) أمير علي ، مختصر . . . . ص 276 ، وأيضاً عبد الأمير الأعسم ، الفيلسوف الغزالي ، ص 36 -37

(38) راجع جدول الكتاب عبد الرحمن بدوي ، مؤلفات الغزالي ، القاهرة 1961، رقـم (22) ص 82 -84

(39) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، بيروت ، دار صادر 1399 هـ / 1979 م ، م 10 ، ص 239

(40) تنسب مدرسة الكرامية المشبِّهة الى مؤسسها محمد بن كرام (ت 255 هـ / 861 م) الذي شب عوده في خراسان ، وقد هاجمه الشهرستاني هجوماً عنيفاً (راجـع الشهرستـاني ، الملل والنحل ، تحقيق محمـد سيد كيـلاني ، القاهـرة 1387 هـ / 1967 م ، ج 1 ، ص 32 -33) ويقول النشار أن الكرامية عاشت بعد موت مؤسسها في فكر صوفي من أرق الصوفية هو الهروي الأنصـاري (ت 481 هـ) واحتضنها عـالم سلفي متأخـر هو «تقي الـدين بن تيمية (ت 661 هـ) . (راجع النشار ، نشأة التفكير الفلسفي في الاسلام ، ج 1 ، ص 311) .

مدارسهم ، وقُتل كثير منهم ومن غيرهم ، وكانت فتنة عظيمة »[41] .

وبالعودة الى الحديث عن الاسلام والسلطة والدولة ، يبدو لي ـ بعكس ما يذهب اليه الكثيرون ـ أن الإسلام كعقيدة تتناقض مع مفهوم الدولة والسلطة ، ومهما حاول البعض التوهم بأنه من الممكن إقامة الدولة الاسلامية بمجرد العودة الى أصول الدين ـ وحتى لو سلمنا بأنه من الممكن إقامة دولة على أسس دينية صرفة ـ فالتاريخ الاسلامي أثبت منذ مطلعه استحالة قيام الدولة الاسلامية انطلاقاً من عقائد الدين الاسلامي فحسب ، وسأستند في إدعائي هذا إلى ابن خلدون ، إلا أن من المفيد الاشارة إلى أن التململ من السلطة وإبراز تناقضها مع الدين بدأ منذ بدء الدعوة الاسلامية وفي عهد النبي محمد ﷺ نفسه وقد نسب إليه ابن قتيبة عن أبي هريرة قوله : ستحرصون على الإمارة ثم تكون حسرة وندامة فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة »[42] . وإذا صحّ هذا الحديث فيعني أن النبي كان يعلم أن الإمارة ستذهب بالدين والدنيا معاً وأنه لا دين مع السلطان والقوة والغلبة ، ويؤيد ذلك ما حدَّث به عطاء بن يسار ، أن رجلاً قال عند النبي ﷺ : « بئس الشيء الإمارة ، فقال النبي : « نعم الشيء الإمارة لمن أخذها بحقها وحلّها »[43] . وبقي التاريخ يبحث بعد ذلك عمن يأخذ الإمارة بهذين الشرطين .

ولعل أفضل ما دحض به ابن خلدون إمكان قيام دولة مبنية على الأساس الديني وحده هو تفسيره واجتهاده في مسألة خروج الإمام الحسين بن علي يزيد بن معاوية[44] . وبادىءٍ بدء نشير إلى أن المُلك والدولة عند ابن خلدون إنما يحصلان بالعصبية[45] (لما فيها من النُعرة والتذامر)[46] حسب تعبير ابن خلدون نفسه . ويضيف ابن خلدون الى العصبية الدعوة الدينية فيرى أنها (أي الدعوة الدينية) تزيد الدولة قوة على قوة العصبية[47] .

لكنه كان حاسماً في إشارته إلى أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم[48] وبالعودة الى قضية خروج الإمام الحسين بن علي ، فالمعروف أنه خرج على يزيد لاعتقاده بأحقيته في الخلافة ولظهور فسق يزيد . يرى ابن خلدون أن خروج الحسين على يزيد « متعين من أجل

---

(41) نفس المصدر ، ص 251

(42) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج 1 ، ص 1

(43) نفس المصدر .

(44) قتل الامام الحسين بن علي بن أبي طالب سنة 61 هـ في كربلاء وتوفي يزيد بن معاوية سنة 64 هـ . (راجع المسعودي ، مروج الذهب ، ج 3 ، ص 53 و 62) .

(45) ابن خلدون ، المقدمة ، ص 271

(46) تذامر القوم : حض بعضهم بعضاً على القتال .

(47) ابن خلدون ، المقدمة ، ص 278-279

(48) نفس المصدر .

فسقه ولا سيما من له القدرة على ذلك وظنّها من نفسه بأهليته وشوكته »[49] . وفي نظر ابن خلدون أن الحسين كان أهلاً كما ظنّ وزيادة . وأما الشوكة (العصبية) فغلط يرحمه الله فيها[50] . لأن عصبية مضر كانت في قريش ، وعصبية قريش في عبد مناف ، وعصبية عبد مناف إنما كانت في بني أمية[51] . يقول ابن خلدون أن الناس لا ينكرون هذه العصبية ، لكنها نُسيت في أول الاسلام لما « شغل الناس من الذهول بالخوارق وأمر الوحي وتردد الملائكة لنصرة المسلمين ، فأغفلوا أمور عوائدهم وذهبت عصبية الجاهلية ومنازعها ونسيت . . . حتى إذا انقطع أمر النبوة والخوارق المهولة تراجع الحكم بعض الشيء للعوائد ، فعادت العصبية كما كانت ولمن كانت[52] .

هكذا يعود الأمر إلى مجراه الطبيعي عند ابن خلدون بعد صحوة العرب المسلمين من آثار الوحي والخوارق في عهد الرسول . وهكذا يكون الحسين بن علي في نظر ابن خلدون قد غلط (في أمر دنيوي) وأصاب في الحكم الشرعي . والأمور الدنيوية في نظر ابن خلدون الثاقب ـ وخاصة ما يتصل منها بأمر الدولة والسلطان ـ تحكمه القوانين الطبيعية لا الدينية . لذلك لا يجوز القول بتأثيم الصحابة الذين كانوا بالحجاز ، والذين كانوا مع يزيد بالشام والعراق ومن التابعين لهم لعدم خروجهم على يزيد . ذلك أنهم كانوا على حق واجتهاد كما كان الحسين على حق واجتهاد[53] .

والتاريخ الاسلامي أجاب منذ بدئه على استحالة اتفاق المسلمين على الدولة وراعيها . فقد نعى عليٌّ بن أبي طالب الدولة الاسلامية بنفسه رغم جهوده الضائعة في كسر عصبية الأمويين وردهم إلى حياض الطاعة ، فقد أجاب رجلاً سأله : ما بال المسلمين اختلفوا عليك ، ولم يختلفوا على أبي بكر وعمر ؟ فقال : لأن أبا بكر وعمر كانا واليَيْن على مثلي ، وأنا اليوم والٍ على مثلك[54] .

وبما أن هدف الغزالي كان إحياء الدين لا إحياء الدولة ، لذلك كانت مواقفه تحض على اتباع الدين والابتعاد ما أمكن عن أهل السلطان ، وقد فصّل أموراً فقهية عديدة لا مجال للتوسع بها هنا ، داعياً فيها الى الاحتراز من الاقتراب من السلطان ودوره وماله والسير في ركابه وهواه .

---

(49) نفس المصدر ، ص 382
(50) نفس المصدر .
(51) نفس المصدر .
(52) نفس المصدر .
(53) ابن خلدون ، المقدمة ، ص 284
(54) نفس المصدر ، ص 374

لعل هذا الاستنتاج بأن الغزالي كان همه الدين لا الدولة يريح الدكتور زكي مبارك الذي هاجم الغزالي هجوماً عنيفاً ولم يستسغ سكوته على الاحتلال الصليبي لبلاد المسلمين(55) . فيتهمه بأنه كان غارقاً في خلوته منكباً على أوراده . لا يعرف ما يجب عليه من الدعوة إلى الجهاد ، بينما كان بطرس الناسك يقضي ليله ونهاره ، في إعداد الخطب وتحبير الرسائل ، لحث أهل أوروبا على امتلاك أقطار المسلمين . ويذكر في هذا المجال عدداً من فظائع الإفرنج بحق العلماء والمسلمين والرعايا المسلمين أيضاً ، فقد قبضوا على أبي القاسم الرملي الحافظ يوم فتح بيت المقدس ، ونادوا عليه ليُفتدى ، فلم يفتدِه أحد . ثم قتلوه ، وقتلوا معه من العلماء عدداً لا يحصيه إلا الله . كما ذكر السبكي في طبقاته(56) . وينطلق مبارك من هذا الواقع ليشكك في أخلاق الغزالي ويقول بأن هذه الأخلاق لا تقصر على سلوك المرء كفرد مستقل عن الحياة الاجتماعية ، ذلك أن لكل ظرف واجباته(57) . وقد أخذ مبارك على الغزالي في تقصيره عن الدعوة للجهاد مأخذاً من جملة مآخذه عليه والتي لا تحصى .ومبارك نفسه يعترف بالانقسامات الدينية الحادة التي سادت المجتمع الاسلامي في أواخر الخلافة العباسية وفي عصر الغزالي بالتحديد ، فيتهم الأمراء والملوك بأن مكرهم كاد ينحصر في « ختل العامة وجرهم الى الحروب باسم الدين »(58) . وكانوا يحاربون بعضهم في سبيل الملك إلا أنهم كانوا يختصون أنفسهم بالهداية ويرمون غيرهم بالمروق . ويرى أن الجماهير كانت وقوداً لنار تلك الفتن في مصر ، والشام ، والعراق ، وخراسان ، وغيرها من ممالك المسلمين . إن هذا القول يؤكد ما تسببه الانقسامات الدينية من خلل واضطراب في مسام المجتمع مما يستحيل معه إقامة دولة اسلامية واحدة تجمع أشتاتاً من الشعوب والقبائل وما يتخللها من عصبيات وفرق وملل ونحل وما يرافق ذلك من صراعات وفتن وحروب لا تنتهي . لذلك تفرق المسلمون وكثرت المذاهب وأصبح الحديث عن دولة مركزية واحدة تقيم العدل وترفع الظلم ضرباً من ضروب الخيال والأعجب من كل ذلك أن هنالك من يتوهم تأسيس الدول على عقائد لا تورث الا الضغائن والاختلاف .

---

(55) زكي مبارك ، الأخلاق عند الغزالي ، منشورات المكتبة العصرية ، صيدا ـ بيروت د. ت. ، ص 17

(56) نفس المصدر .

(57) نفس المصدر .

(58) نفس المصدر ، ص 24

المراجع العربية

- القرآن الكريم .
- الكتاب المقدس .
- ابن الجوزي ، عبد الرحمن بن علي . تلبيس ابليس . مصر ، إدارة الطباعة المنيرية ، 1368 هـ . مصور في بيروت ، دار الكتب العلمية ، د. ت .
- ابن الجوزي ، عبد الرحمن بن علي . صفوة الصفوة . حيدر آباد الدكن ، 1356 هـ .
- ابن خلدون ، عبد الرحمن . مقدمة ابن خلدون ، طبعة 3 . بيروت ، دار الكتاب اللبناني ، 1967
- ابن عبد ربه ، أحمد بن محمد . العقد الفريد . تحقيق محمد سعيد العريان . بيروت ، دار الفكر ، د. ت.
- ابن عربي ، محي الدين . الفتوحات المكية . بيروت ، دار صادر ، د. ت.
- ابن قتيبة ، عبد الله بن مسلم . أدب الكاتب ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد . ط. 4 بيروت ، دار الجيل ، 1382 هـ 1963
- ابن قتيبة ، عبد الله بن مسلم . عيون الأخبار . مصر ، دار الكتب المصرية 1343 / 1925 مصور في بيروت ، دار الكتاب العربي .
- أبو ريان ، محمد علي . فلسفة الجمال ونشأة الفنون الجميلة . القاهرة ، دار المعارف ، 1970
- أبو زهرة ، محمد . تاريخ المذاهب الاسلامية . القاهرة ، دار الفكر العربي ، د. ت. ،
- أبو الفرج الأصبهاني . الأغاني . مصر ، دار الكتب المصرية . مصور في بيروت ، مؤسسة جمال للطباعة والنشر ، د.ت.
- أبو هلال الصابي ، الحسن بن المحسن . تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء . بيروت ، 1904
- أدونيس (علي أحمد سعيد) . الثابت والمتحول . بيروت ، دار العودة ، 1977

ـ الأشعري ، علي بن اسماعيل . اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع . تحقيق رتسرد مكارثي اليسوعي . بيروت ، 1952

ـ الأعسم ، عبد الأمير . الفيلسوف الغزالي . بيروت ، دار الأندلس ، 1981

ـ بدوي ، عبد الرحمن . شطحات الصوفية . الكويت ، وكالة المطبوعات ، 1978

ـ الثعالبي ، عبد الملك بن محمد بن اسماعيل . يتيمة الدهر في شعراء أهل العصر . مكة المكرمة ، 1399 / 1979

ـ الجاحظ ، عمرو بن بحر . البخلاء . بيروت ، دار صادر ، د. ت.

ـ الجاحظ ، عمرو بن بحر . البيان والتبيين . بيروت ، دار احياء التراث العربي ، 1968

ـ حاجي خليفة . كشف الظنون . اسطنبول ، 1360 / 1941

ـ خليف ، فتح الله . محاضرات في التصوف . بيروت ، 1972

ـ زكي مبارك . الأخلاق عند الغزالي . صيدا ـ بيروت . المكتبة العصرية ، د.ت.

ـ السراج الطوسي ، عبد الله بن علي . اللمع في التصوف ، نشرة ألن نيسلوت . ليدن ، 1914

ـ الشريف المرتضى ، علي بن الحسين ، أمالي المرتضى . تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم . بيروت دار الكتاب العربي ، 1387 / 1967

ـ غارديه ، لويس . أهل الاسلام ، ترجمة صلاح الدين برمدا . دمشق ، 1981

ـ الغزالي ، محمد بن محمد . إحياء علوم الدين . بيروت ، دار القلم ، د. ت.

ـ الغزالي ، محمد بن محمد . الرسالة اللدنية من مجموعة « العقود واللآلىء » من رسائل الإمام الغزالي . مصر ، الطبعة المحمودية ، د.ت.

ـ الغزالي ، محمد بن محمد . المنقذ من الضلال . تحقيق أحمد غلوش . القاهرة ، 1952

ـ الغزولي ، علي بن عبد الهادي البهائي . مطالع البدور ، مصر ، 1300 هـ .

ـ الغزي ، بدر الدين محمد . آداب المؤاكلة ، تحقيق عمر موسى باشا . دمشق ، مجمع اللغة العربية ، 1387 / 1967

ـ القرطبي ، عريب بن سعيد . صلة تاريخ الطبري . ليدن ، دي غوي ، 1897 م .

ـ القلقشندي ، أحمد بن علي . صبح الأعشى في صناعة الانشا . القاهرة ، 1922

ـ متز ، آدم . الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة . بيروت ، دار الكتاب العربي ، والقاهرة مطبعة الخانجي ، ط 4 ـ 1387 هـ ـ 1967 م .

ـ المسعودي ، علي بن الحسين . مروج الذهب ومعادن الجوهر . ط 5 . بيروت ، دار الأندلس ، 1983

ـ المقدسي ، محمد بن أحمد . أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم . ليدن ، 1877
ـ المقريزي ، أحمد بن علي بن عبد القادر . المواعظ والاعتبار في الخطط . بـولاق ، 1270 هـ .
ـ الملطي ، محمد بن أحمد بن عبد الرحمن . التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع . القاهرة ، 1949
ـ المنجد في اللغة والاعلام . بيروت ، دار المشرق ، ط 25 ـ 1983
ـ النشار ، علي سامي . نشأة التفكير الفلسفي في الاسلام . ط 7 . مصر ، دار المعارف ، 1978

المراجع الأجنبية

Arbery, Arthur John: The Mawaquif and Mukhatabat . Baghdad, al-Muthana _ 1934.

Boisard, Marcel A: L'humanisme de l'Islam. ed. Albin Michel, Paris, 1979. _

Lammens, H.: L'Islam croyances et institutions 3ᵉm ed. Beyrouth, Imp. Catholi- _ que, 1943.

فهرست

الموضوع	الصفحة

1986 / 9 / 237


المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع